عُنف البادية

وقائع الأيام الأخيرة في حياة

عبد الخالق محجوب

السكرتير السياسي السابق
للحزب الشيوعي السوداني

عُنف البادية

وقائع الأيام الأخيرة في حياة عبدالخالق محجوب

ꝏ

المؤلف

د. حسن الجزولي

ꝏ

الناشر

منشورات

مدارك

ꝏ

١١ شارع عبدالرحمن الشرقاوى

ت:٣٠٣٦٨٠٥ـ القاهرة

الخرطوم ـ العمارات

ꝏ

تصميم الغلاف والإشراف العام

إلياس فتح الرحمن

ꝏ

التنسيق الداخلى

عفت إبراهيم

ꝏ

توزيع

دار العلوم . القاهرة

ت: ٥٧٦١٤٠٠

رقم الإيداع: ٢٠٠٦/١٧١٨٩

ꝏ

عُنف البَادية

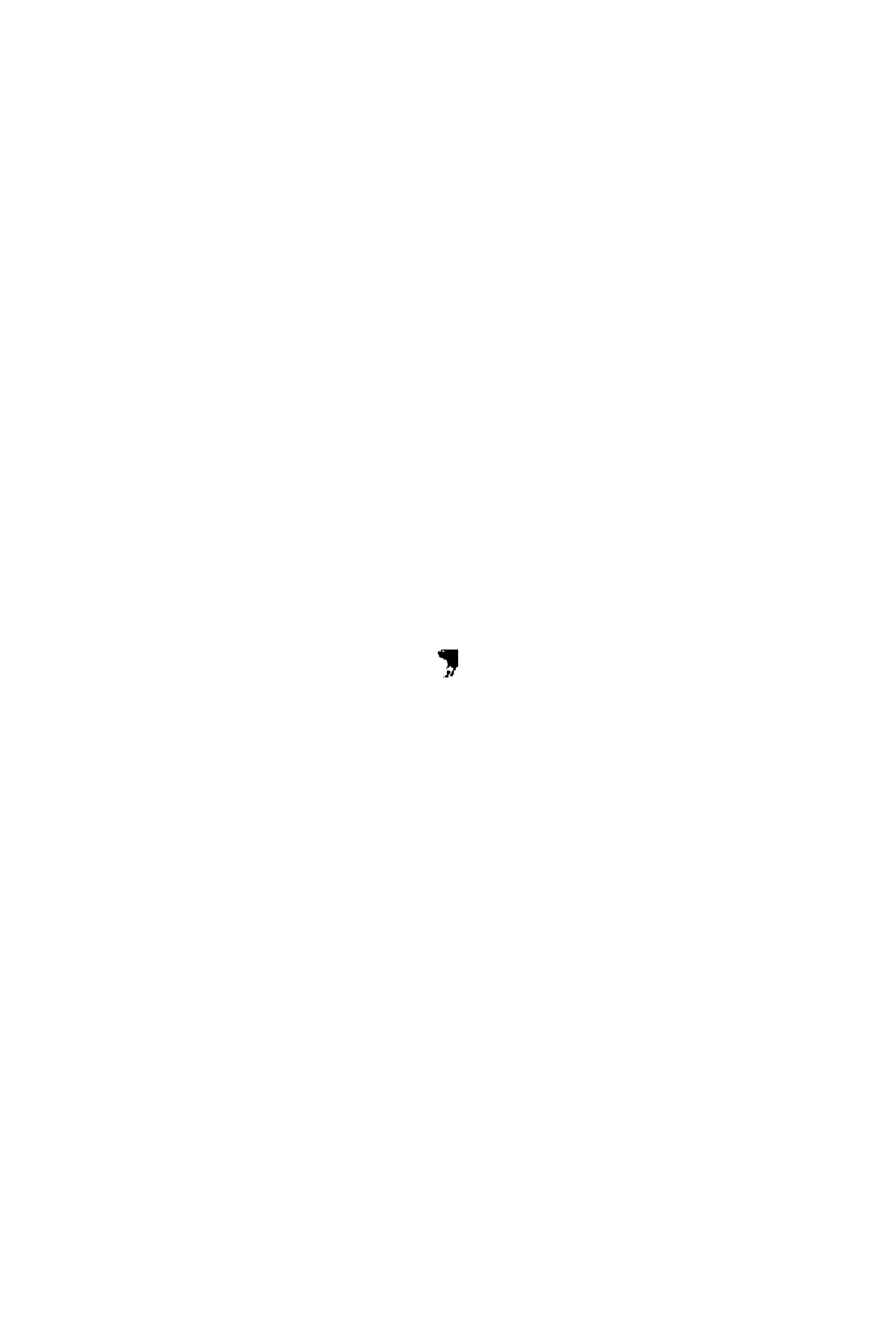
وقائع الأيام الأخيرة في حياة

عبد الخالق محجوب

السكرتير السياسي السابق
للحزب الشيوعي السوداني

د. حسن الجزولي

منشورات
مدارك
الخرطوم - القاهرة
2006



المحتويـــات

□□□

يا مَنْ بهِ علقتْ رُوحِي فـقد تلفَّتُّ   وَجْداً فـصِرتُ رَهِيناً تحتَ أهوائِي
أبكِي على شَجَنِي مِن فُـرقَتي وطني   طَوعاً ويُسعِـدُني بالنَّوحِ أعدائي
يا وَيْحَ رُوحيَ مِن رُوحي فوَا أسفِي   عليَّ مِنّي فـإنِّي أصـلُ بَلوائِـي
قُلْ لي فَديتُكَ يا سَمَعِي ويا بَصَرِي   لِمَ ذا اللَّجاجةُ في بُعْدِي وإقصَائِي

(الحـلاج)

■■■

إهـــداء

إلى عوض الجـز ولي دياب الذي دلف إلى العـسكرية من بوابة النضال النقابي والسياسي فلم تكن بالنسبة له سوى ساحة أخرى من ساحات الحفر بالأظافر في سبيل التحرر الوطني والاجتماعي، وغـادرها إلى دار الخلود أبيض السـيـرة والسـريرة، نظيف اليـد واللسـان، مثخناً، فحـسب، بجراحات الأمل المجهض، والحلم الذي استعصى على التحقق!

وإلى نعمة مـحمد عبـد الكريم الأنصاري التي ظلت تحمل مـعه عبء الوعي والحلم والأمل.. تسـتـخف بالصـغائر، وتـسمـو على النوازل، وتتوهج، كـما جمر (شـاي الصباح)، وسط رياح حـزنها النبيل، فما هزها ضنك، ولا كسرتها ضائقة ولا زلزلتها فاجعة!

عليهما رحمة الله ورضوانه..

وإلى زكـريا عبـد الرحـمن، مصطفي أبو زيد، مـحـمود كـشـة، ميرغني عـبد الكريم، بلة بلال، محـمد حضري، عبـد المنعم سلمان، سـميـرة اسحـق، على السيـد، عـبد الوهاب الشـيخ، عـبد العـزيز عصفـور، خالد الكد، إخلاص حسين، خليل أحمـد، إبراهيم عبدون، صلاح الدعاك، جبريل الأمين، على عبـد القيوم، عمر الدوش، حافظ

مدثر، الفاتح الرشيد، عـبد الوهاب سنادة، بتول العطا، صديق نمر، السر الناطق، سليمان هباش، أحمد البشير، نوال شريف، تيتو على، والخاتم عدلان.. صديقـات وأصدقـاء العمـر الذين رحلوا خفـافاً وسراعاً وتباعاً، فإن الصبر جميل إلا على غيابهم، والجزع قبيح الا من فقـدهم، لقد خلفوا شـجناً فادحاً وأسىً لـن ينمحى، في ربوع وطن لطالما جملوه بباذخ العشم، وحنايا قلوب لطالما عمَّروها بطيب الذكرى، لهم جميعا أهدى.. أيام عبد الخالق الأخيرة!

حسن

أدنبرا ـ سكتلندا

يوليو 2005م

□□□

تقديم

كتابة شاقة وشائقة

د. محمد سعيد القدال

"نصبوا للشمس أعواد المشانق

يا حبيبي

تدلف الفرحة من سجن الشرانق

ورأيت القتلة

مثل فئران الخنادق

وهدير المقصلة

مثل أفراح البيارق

كانت الخرطوم شعراً

يشعل الليل حرائق"!

جيلي عبد الرحمن

في رثاء عبد الخالق

●●●

الكتابة عن سيرة عبد الخالـق شاقة وشائقة في آن واحد. فهي شاقة لأنها متداولة كثـيراً، تجدها في بطون الكتب، وعلى صفحات الجرائد، وفي أفواه الناس، وهذا يضع عبئاً ثقيلاً على الكاتب. وهي شائقـة لأن الرجل أنجز في رحلة عـمره قصـيرة الأجل صـروحاً شامـخة، ولا أبالغ إذا قلت إنه منـذ الإمام المهدي ليس هـناك قائد سـياسي سـوداني أثر بعـمق في مجـرى الحـركة الثـورية بمدها وجذرها مـثل عبد الخـالق، ولعل هذا ما جـعل جيلي عبـد الرحمن يرثيه قائلاً أيضاً:

"كنت تزهو في ذراع الثائر المهدي سيفا
يحتسى المحروم منه قطرات الشهد صيفاً
كان سيفاً أحمر الحد صقيلا"

وبين المشقـة والتشويق تكمن الجـدلية التي أعطت عبـد الخالق حضوره الآسـر في مجرى الحركة السيـاسية السودانية، وقـامته الشامخة في تاريخ السودان الحديث، ثم جـاءت نهايته التراجيدية شبـه الأسطورية لتضفي على سـيرته بعداً شاقـاً جديداً، هو الذي تصدى له الكاتب حسن الجز ولى.

ولا تخلو كتب السـيرة بشكل عـام من مشقـة، فكتبت في هذا الصدد ما يلي: "واجه المؤرخون الذي كتبوا عن بعض الشـخصيات مشكلة، فقد وجدوا أنفـسهم من حيث يدرون ولا يدرون يندمجون مع الشـخصيات التي يكتبون عنـها، بل ينحازون إليها أحياناً، رغم أن بعض تلك الشخصـيات غير جديرة بالانحيـاز، ولكن دراستهم كـشفت لهم بعض جـوانبهم الآدميـة، فاقـتربوا منهـا أكثـر مما

يستدعى الاقتراب الأكاديمي.. ورغم صـعوبة الاقتراب العاطفي من بعض تلك الشخصـيات، إلا أن كتابها مـا استطاعوا الفكاك من تلك القبـضة". كمـا كتبت في مقـدمة كتـابي عن سيرة الإمـام المهدي قائلاً: " ولم نخف إعجابنا بالرجل، فانفعلنا معه حين انفعل وسرنا بجانبه حين سار وحططنا رحالنا بجانبه حين حط رحاله بعد طول سرى.. دعونا من الطـهر الأكاديمي، فالذي يكتب يحمـل بين جنبيه انتماءات ما تنفك تلازمه أنى تجـرد أو ادعى التجرد، ولكنه يسعى جاهداً ليعلوا فوقها".

فماذا فعل حسن الجزولى عند تنـاوله ليس لسيرة عبد الخالق، وإنما لتاريـخ الأيام التي سبقـت رحيله الأسطوري الذي مـا فتىء صداه يتردد فـي مسمع الأيام؟! لم يخف الكاتب انفعـاله بالرحيل المأساوي، ولكنه سـعى بجهد أكاديمي ليـستوفي مـختلـف جوانبه، فـــاطلع على أغلـب مـا كـتب عن تلك الكـالحـة، واتصـل بأغلب الشخـصيات الأحـياء الذين عاصـروها، ورجع إلى بعض الوثائق التي توفـرت مؤخراً، فـازاح الغمـوض عن بعض القضـايا، وترك بعضـها يكتنفها الغمـوض، وأثار مواضيع جديدة تحتاج للمزيد من التقصى، ومن هنا جاء الجانب الشائق في هذه الدراسة.

على أن أهم مـا في الكتاب أنـه، وللمرة الأولى، جـمع الروايات التي كانت متداولة على صعيد واحـد، فجاء وثيقة تاريخية "لعنف البـادية" المنفلت. ووفق الكاتب في اخـتـيـار عنوان الكتـاب، فقـد استعمل عبد الخالق تعبير "عنف البادية" عام 1965م إبان معركة حل الحزب الشـيوعي عندمـا جلبت الأحزاب أنصـارها من الريف

ليهاجموا دوره ورموزه. ومزج الكاتب ببراعة بين التاريخ والسرد الروائى. وعندما يمتزج التاريخ بالرواية يصل ذرى عـالية، كما في "قـصــة مـدينتين" ورواية "الحـرب والسـلام" و"لمـن تقـرع الأجراس". وقـسم الكاتب دراسته إلى فصـول تساعد كثـيراً على تتبع الأحداث، واختار لها عناوين ذات طابع أدبى جاذب.

وأقول لعبد الخالق في النهاية:

"لن يسوقوا البحر للمنفي وقاع الموج فينا"!

وأقول له أيضاً ما قاله أحمد عبد المعطى حجازى:

"الموت ليس أن توارى في الثرى

ولا الحياة أن تسير فوقه

الزرع يبدأ الحياة في الثرى

ويبدأ الموت إذا ما شقه"!

وها أنت تبدأ الحياة في كتاب حسن الجزولى "عنف البادية"!

م.س. القدال

الخرطوم

□□□

مقدمة

مطارد.. من المهد الى اللحد!

حاشا لا أن يدعى هذا العمل المتواضع أنه سيرة حياة كاملة، أو حتى ناقصة، لرجل في قامة عبد الخالق محجوب عثمان، فتلك مهمة عسيرة قد تحتاج لجهود أتيام من المتخصصين في هذا الحقل. ولذا فقد أولى هذا الكتاب اهتمامه لثلاثة أيام فقط من عمر الرجل، هي، بالتحديد، عمر انقلاب 19 يوليو عام 1971م في السودان، مع الاعتبار الكافي، بطبيعة الحال، لما سبقها من أحداث مهدت لما انتهت إليه، وما تلاها من تداعيات تشكلت بأثرها، بقدر ما يلزم لإضاءتها وإجلاء ما قد يكون غامضاً من تفاصيلها.

وفي الحقيقة فإن تلك الأيام الثلاثة تمثل ذروة سنام الصعود والانكسار في تسلسل زمنى لوقائع شملت إعتقال عبد الخالق الأول ونفيه إلى مصر، ضمن تداعيات أحداث الجزيرة أبا في مارس ـ أبريل عام 1970م، وإعادة اعتقاله بمطار الخرطوم، فور عودته من منفاه مساء السادس عشر من يوليو عام 1970م، ليتم التحفظ عليه بإحدى المزارع بمنطقة الباقير، وإطلاق سراحه بعد فترة قصيرة في إثر حملة احتجاج واسعة، ثم معاودة اعتقاله في السادس عشر من

نوفمبر عام 1970م، وإيداعه، ابتداءً، بالسجن الحربي بأمدرمان، قبل تحويله، بعد أيام قلائل، لأسباب صحية، إلى غرفة ضيقة بسلاح الذخيرة بمنطقة الشجرة جنوب الخرطوم، حيث قضى مدة سبعة أشهر تحت الحراسة المشددة، قبل هروبه واختفائه اللذين أثارا دهشة القريب والبعيد، ومن ثم ظهوره المفاجئ خلال الأيام الثلاثة لانقلاب التاسع عشر من يوليو عام 1971م، ثم اختفائه مرة أخرى لبضعة أيام انتهت بإعادة اعتقاله وتقديمه إلى المحكمة العسكرية الايجازية التي أنزلت به حكم الاعدام الجائر، وأخيراً.. استشهاده البطولى على حبال مشنقة كالحة بسجن كوبر بالخرطوم بحرى ليلة الثامن والعشرين من يوليو عام 1971م.

خلال كل ذلك اهتممت برصد خلفيات ووقائع وتداعيات ذلك الانقلاب، وتقصى الحقيقة في ما نسب للشهيد من دور فيه، من حيث حجم هذا الدور، ومدى مسئولية الرجل عن كل ما ترتب عليه، وأسباب العجلة التي لازمت محاكمته وإعدامه!

وعلى كل فإن نوايا السلطة لتعطيل دوره القيادي لم تكن لتخفي منذ اعتقاله الأول في أبريل عام 1970م، سواء "بتوجيه الضربات للحزب في شخصه، أو بتصفية دوره السياسي والفكري، أو بتصفيته جسدياً" [1]! لذلك عندما ألقى القبض عليه من داخل عربة مصطفي أحمد الشيخ، أحد الكوادر الحزبية والقيادية باتحاد الشباب السوداني، والتي كان يستقلها معه عابراً جسر النيل الأبيض من ام درمان إلى الخرطوم نهار 16 نوفمبر

---

(1) د. محمد سعيد القدال؛ معالم في تاريخ الحزب الشيوعي السوداني، دار الفارابى، الطبعة الأولى، 1999م،ص,290

عام 1970م، كـان من المؤكد أن شعوراً قـوياً، ربما لامس حواف اليـقين، قد اعـتراه، في تلك اللحظة، بأن تداعـيات ذلـك الاعتـقال سوف تـتخـذ طابعاً مـختلفـاً، بكل المقاييس، عن كـل الاعتـقالات السابقة التي ظل يواجهها ببسالته المعهودة طوال حياته السياسية!

●●●

خبـر عبـد الخالق الملاحقـة والاعتـقال منذ أن كـان في (المهد السيـاسي) في مصر، حـتى لقد أصيب بالـسل الرئوي وهو بعد طالب شـاب غض الاهـاب في مقتـبل دراسته الجـامعـية هناك. ثم خبرهما بعـد عودته إلى السودان، ومساهمتــه في تشكيل وقيادة الحلقـات الماركسـية الأولى وسط العـمال والمثـقفين السـودانيين، مهـيئاً نفسـه لمواجهة عنف الإدارة الاستـعمارية البـريطانية التي كانت مخـابراتها، بالفعل، قد أدرجت اسـمه في مضابطهـا كزعيم سياسي ذي ميول يسارية وعمره لم يتـعد الثانية والعشرين بعد، مما اضطره للاختفاء لفترة من الزمن.

وخلال فـترة الحـكم العسكري الأول بقـيادة الفـريق إبراهيم عبـود (نوفمبـر 1958م ـ أكتوبـر 1964م) تعرض عبـد الخالق للاعتـقال مـرات عديدة بحـراسات كوبـر وزالنجي وغيرهـما من سجون البلاد. وفي عام 1959م قـدم مع بعض رفاقه إلى محكمة عسكرية في ما سمي وقتها (بقضية الشيوعية الكبرى)، وتحت ما سـمي (بقـانون النشـاط الهـدام) الذي كـانت قـد سنتـه الإدارة الاستـعمـارية قبل الاسـتقـلال، ثم أبقت على جوهره الحكـومات (الوطنيـة) المتعـاقبـة، عسكـرية ومدنيـة، خلال مـرحلة ما بعـد الاستقلال، في سياق محاولاتها التي لم تهدأ يوماً للحد من نشاط

الحزب الشيوعي والقوى الوطنية الديمقراطية! وفي مطالع الستينات قام نظام عبود بنفي عبد الخالق، ضمن عدد من زعماء المعارضة، إلى جوبا بجنوب السودان.

وما كاد ينقضي أقل من عام على انقلاب 25 مايو عام1969م، بقيادة البكباشي، وقتها، جعفر نميري، حتى أعادت السلطة (التقدمية) نفي عبد الخالق إلى مصر، هذه المرة، في طائرة واحدة مع الصادق المهدي، وذلك لموقفه وموقف الحزب الشيوعي المعارض لضرب الأنصار في الجزيرة أبا وودنوباوى عام 1970م. وعندما التقى هناك بالرئيس عبد الناصر سأله عما إذا كانت مصر قد تحولت إلى منفي للمناضلين! فنفي عبد الناصر ذلك بشدة، وقال له "أنت لك مطلق الحرية في البقاء، أو العودة إلى وطنك "[1]، فاختار عبد الخالق العودة إلى السودان.

وقبل وصول عبد الخالق مطار الخرطوم صدرت تعهدات من نميري شخصياً لبعض قادة الحزب، بعدم تعرض السلطة له. لكن ما أن هبطت الطائرة على المدرج حتى شوهد زيادة ساتي، وكيل وزارة الداخلية وقتها، يصعد إليها، ثم يهبط منها بعد قليل وبصحبته عبد الخالق الذي أخطر من كانوا بانتظاره من قادة الحزب، ومن بينهم الشفيع ونقد، أنه تقرر التحفظ عليه، لبعض الوقت، في مزرعة بمنطقة (الباقير)[2] إلى الجنوب الشرقى من الخرطوم!

---

(1) د. محمد محجوب عثمان؛ الجيش والسياسة في السودان، دراسة في حركة 19 يوليو 1971،ط 2، مركز الدراسات السودانية 2001م، ص ,59

(2) المصدر السابق،ص ,59

انفجرت على الفور حركة احتجاج جماهيرية واسعة تشجب ذلك العسف وتطالب بإطلاق سراح الرجل. وفي ذلك السياق أصدر (تجمع الكتاب والفنانين التقدميين ـ أبادماك) بيانه الشهير الذي ما يزال كثيرون يحفظون مقتطفات منه، وكان مما جاء فيه: "إذ نجهر دفاعاً عن الرفيق عبد الخالق فإننا إنما ندافع عن ظاهرة وضيئة، منسجمة الأجزاء، بالغة التكامل في حقلنا الثقافي. لقد توصل الرفيق عبد الخالق إلى الماركسية في مسعى الشباب الحميم إلى ما ينسق العاطفة والعقل في إطار السقطه السياسية الباهظة التي آلت اليها القيادات الوطنية في بلادنا عام 1946م. ولقد وقف على قدمين من الصمود والصحو، ولمدة ربع قرن كامل، على أرضية النضال العملي والفكرى في بلادنا، ذائداً عن حركة الشعب الديمقراطية. ولقد تحمل المسغبةَ والأذى والشراسة والضغينة والتشهير والإرهاب، وتوارثت اسمه أجهزة المخابرات جيلاً عن جيل. ونحن جيل من الامتنان المفعم بالحب والتقدير لشخص وفكر وخبرات الرفيق عبد الخالق محجوب، فبجهده الناجز والشامخ، وجهد كافة الثوريين، خرج علينا هذا الشعب الذي نبدع بأدوات الفن من أجله، ونمجد خطوه اللهيف بالاشتراكية، ونتغزل في أشواقه وتطلعاته، ويأكل اكتافنا حديد المسئوليات الجمه لتصعيد نضاله وانتصاراته"[1].

أطلق سراح عبد الخالق بعد أقل من شهر، ولكن لأشهر قصار طاله بعدها، مجدداً، الاعتقال الذي سيدشن بداية تداعيات درامية

---

(1) د. عبدالله على إبراهيم؛ صحيفة الفجر اللندنية،يوليو 1998، العدد63

سوف تـهز السودان هـزاً عنيفـاً، ومعه المـنطقة وضـمير العـالم بأسره، لسنوات طويلة قادمة، وهي التداعيات التي استهدفت حياة الرجل خلالها، بشكل مباشـر، حيث كان هو "المركز الأساسي في الصراع، وله ثقله الـفكري والتنظيمي والتاريخـي، وكانت السلطة والعناصر المؤيدة لها تدرك ذلك الثـقل، فاستهدفوه باسـتمرار من كل الجوانب. اعتـقلوه، ونفوه، ثم اعتقلوه مرة أخـرى، ثم اعتقلوه مرة ثـالثة، وأعـدموه" [1]. وبإعـدامه خـالوا أنهم تخلصوا، مـرة وللأبد، من (عدو) لدود لطالما أقلق (أمنهم)، وقض مضاجعهم!

وتجدر الإشارة هنا إلى وثيقة سرية كانت قد وجهتها السفارة البـريطانية بالخـرطوم إلى وزارة الخارجـية البـريطانية بتـاريخ 5/6/1971م، وقد تم الافـراج عنها مؤخـرا، ضمن جمـهرة من الوثائق التي انقـضت ثلاثون عـاماً على صـدورها، حـسب النظم المتـبعة في بـريطانيا بشـأن هذه الوثائق السرية. لقـد ألمحت تلك الوثيقة إلى ما أسمته النهاية السـياسية لسكرتير الحزب الشيوعي السوداني جـراء هروبه من معتقله بسـلاح الذخيرة! وجاء فـيها، تحت الرقم/3: "برغم الشائعـات بأن عبد الخالق قد مـات (حالته الصحية ليست على ما يرام)، إلا أن الراجح أنه اختفي. وقد أحدث ذلك بعض التـسلية، في مـا لا يبـدو أن أحدا يأخـذ الأمر بجـدية شديدة، رغم صـدور التعليـمات لجـهة البحث الكامل عـنه. وثمة بعض الغـرابة في لجـوئه لـوضع نفـسـه في هذا الوضع غـيـر القانوني، على حين ظلت الحكومة تعامله بلين وتساهل ولم تصدر

---

(1) القدال؛ معالم... ص 261

في حقه صحيفة اتهامات. ومن الواضح أنه استطاع أن يبقى على اتصالاته بأولئك الأعضاء من حزبه الذين لم يكونوا مسجونين، ويكون بهذه الخطوة قد وضع لنفسه نهاية سياسية، على الأقل تحت هذا النظام!"[1].

تعمق هذه الوثيقة من علامات الاستفهام والغموض الذي كان وما يزل يكتنف جل الوقائع التي جرت نهار ذلك اليوم التاسع عشر من يوليو عام 1971م، وتلاحقت لأيام ثلاثة تالية، ثم بقيت آثارها تتداعى لسنوات طوال بعد ذلك!

●●●

لا شك أن الزمن الذي يفصلنا الآن عن تلك الأحداث قد باعد وصعب من امكانية تجميعها إلى بعضها البعض، بأمل تسهيل قراءتها قراءة موضوعية تفكك جزءاً ولو يسيراً من شفراتها، وتروى ولو شيئاً من غلة حتى أولئك الذين، برغم معاصرتهم لها، تضافرت عوامل كثيرة لتحجب عنهم، هم أنفسهم، الكثير من حقائقها وتبقيها طى الكتمان، كتغييب الموت لبعض صناعها، والتزام البعض الآخر الصمت بعناد، وبذهنية يؤسفنا أن نصفها (بالرعوية)، ناهيك عن غلة جيش جرار من الأجيال اللاحقة، ممن يحق لهم الوقوف عن يقين على تلك الصفحات الخطيرة من تاريخنا المعاصر، خاصة وأن تلك الأجيال ظلت تقرأ لبعض الأقلام التي ما زالت تردد ـ بحسن نية حيناً وبسوء نية في الغالب ـ

---

(1) حسن ساتي؛ إنقلاب 1971م بالسودان في الوثائق البريطانية (6- 10)، مجلة المجلة، العدد/ 1234، 11 أكتوبر 2003 العدد,1234

الكثيـر من المعلومات والتحليـلات المغلوطة، أو التي، على الأقل، لم تثبت صـحتـها رغم مرور كل تلـك السنوات، منها ما هـو منقول بشكل ببغائي , ومنها ما هو (مـفبرك) عن قصد، كـالفرية القائلة بأن الرجل قد لجـأ في أعقاب فشل مـحاولة 19 يوليو الانقـلابية إلى السفارة الـبلغارية بالخرطوم محـتمياً بها، وذلك فـي محاولة بائسة لوصمه بالعمالة!

وإذن فقراءتنا هذه تهدف ـ ضمن أغراض أخرى ـ إلى محاولة إجلاء الغـموض الذي اكـتنف أحداث تلك الفـترة بإلقـاء المزيد من الضوء على المجهول أو المخفي منها رغم الصعوبات والعوائق!

ولا ننكر أننـا لم يكن بمقـدورنا، ونحن نتـتـبع ونرصـد تلك الأحداث، الاكـتفاء (ببـرودة) التحليل والتوثيق الأكـاديمي المجرد، دون أن نعبر عن قدر من التعاطف الانساني المشروع مما نجد في أنفسنا ولا يمكننا تفاديه بأية حـال! على أننا لم نأل جهداً مع ذلك لالتزام مـعاييـر الدقة والموضوعـية رغم كل اللؤم والخـسة التي ووجهت بها قيم التضـحية والبطولة في تلك الأحداث التي أسست لنهاية عهد التسامح في حياتنا السياسية، حيث "لم يحدث أن تمت منازلة حركة سياسية بمثل ذلك العنف الدموى في تاريخ السودان الحديث إلا حركة الامام المهدى بعد هزيمتها في معركة كررى عام 1889م وحركة 1924م، وكـان العنف في كل من الحالتين قد تم على يد الإدارة البريطانية. أما نميري والذين تعاونوا معه في تنفيذ المذابح التي وقعت في مـعسكر المدرعات في الشجـرة بالخرطوم، فهم أول سودانيين يبـتدرون العنف الدموى في معترك السـياسة السودانيـة، وكان عبـد الخالق محـجوب والشـفيع أحمـد الشيخ

وجوزيف قـرنق أول سياسـيين مدنيين يعدمـون في السودان في تاريخه الحـديث" ، كما أشار إلى ذلك، بحق، المؤرخ مـحمد سعـيد القدال.

إنه بالتـأكيـد العنف الذي مـهد له تداعى الأحـداث في أعقـاب سـقـوط الحكم العـسكري الأول لـلفـريق إبراهيم عـبـود (1958–1964م)، نتيجة لثورة أكـتوبر، وتشكيل حكومة أكتوبر الأولى برئاسة سر الختم الخليفة من قبل جبهة الهيئات التي قادت انتصار الثورة، فتربصت دوائر الأحـزاب التقليدية في تلك الفترة بالحكومة الوليـدة لوئدها وهي في المهد، حينما جـلب حزب الأمة، آنذاك، أنصـاره بأسلحتـهم التـقليدية من الأقـاليم إلى العـاصمـة لمحاصرة وإرهاب (قلعة الثورة)، حتى تم حل تلك الحكومة فانفتح الطريق أمام القوى الاجتماعية التي هددتها شعارات أكتوبر، لتعود على أسنة (الحراب) و(الفـئوس) الهمـجية، وبـأسلوب لطالما حذر عبد الخالق منه، واصفاً إياه (بعنف البادية)! [1].

ولم تكد تمضى سـوى سنوات قلائل على تلك الاحـداث، حتى شهدت البـلاد، في عقابيل فشل حركـة 19 يوليو 1971م، (عنفاً بدوياً) جديداً مع فارق الدرجة والكثافة، رعته، هذه المرة، وأشرفت عليه، دوائر إقليمية وعالمية شايعت سلطة مايو في ردتها وتحولها بالكامل إلى ظاهرة من ظواهر (سلطة الفرد المطلقة)، ودعـمتها في ادعاء (الدوام) و(الخلود)!

---

(1) أوضح لى التجانى الطيب بابكر سكرتيـر اللجنة المركزية للحزب أن عبد الخـالق استخـدم تعبير (عنف البـادية) فيما بعـد أيضاً لوصف الكثـير من أحداث العنـف التي واجـهـا الحزب، خـاصة في أعـقاب مصـادرة نشاطه السـياسي عام 1965م.

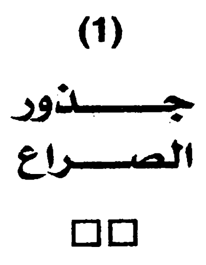
لكن السؤال: ما الذي بقى في نهاية الأمـر، وبعد كل ما جرى: كلمة السلطة أم كلمة التاريخ؟!

●●●

لم يتبق لنا سوى الاشارة الى أن هذا العـمل المتواضع ما كان له أن يرى النور لولا أيـاد بيضـاء لأسـتـاذات وأسـاتذة أجـلاء، وزميـلات وزملاء أعـزاء، وصديقـات وأصدقـاء كثـر، ممن أولوه عـونهم السـخي، ومـلاحظاتهم الثـاقبـة، وتوجيـهاتهم السـديدة، إضـافـة، بالطبع، إلى كل مـن أسهـم، عن طيب خـاطر، بإفـاداته كشاهد عـيان، مقتطعـاً، لأجل ذلك، الكثير من وقتـهم الثمين. ولو شئـنا أن نعدد كل تلك الأسـماء الكريمة لاحـتجنا إلـى صفـحات وصفحات، فلهم جميعاً أجزل الشكر والتقدير والتحايا العاطرة.

وبعـد، نكرر أن هذا العمل لا يدعي القـول الفصل، أو التـوثيق الكامل، بل، على العكس تماماً، لا تزال تشوبه الكثـير من الفجوات والأسئلة التي لم يجـد لها إجابات مـقنعة. فإن اسـتطاع، فقط، أن يفتح باباً لمن يـستطيع الاضافـة، أو لمن بمقدوره تدقيق واقـعة أو تصحيح معلومة، فيكفيه بذلك توفيقاً!





(1)
جذور الصراع

أحداث سياسية متلاحقة أمسكت برقاب بعضها البعض، ما بين صباح السادس عشر من نوفمبر عام 1970م وعصر التاسع عشر من يوليو عام 1971م، حتى شكلت، في ما بعد، تراجيديا ما يزال كثير من الدارسين والمهتمين يعكفون على نبش أضابيرها علهم يفكون شفراتها أو يفسرون طلاسمها!

لكن مقدمات تلك الاحداث تعود بتاريخها إلى ما قبل ذلك بسنوات، على الأقل منذ انتكاس شعارات ثورة 21 اكتوبر عام 1964م، ومواجهة الحزب الشيوعي لمؤامرة حله عام 1965م، على الرغم من الحكم الذي أصدرته المحكمة العليا ببطلان مشروعية ذلك الحل بعد أن نظرت في الاستئناف المقدم منه، وهو الحكم الذي صرح بشأنه رئيس الوزراء وقتها الصادق المهدى قائلاً: "إن الحكومة غير ملزمة بأن تأخذ بالحكم القضائى الخاص بالقضية الدستورية"![1].

إزاء ذلك قدم مولانا/ بابكر عوض الله، رئيس القضاء آنذاك، استقالته التي تعتبر الأشهر حتى الآن في تاريخ الدولة السودانية، قائلاً في معرض تسبيبها: "إنني لم أشهد قط، في كل حياتي

---

(1) صحيفة الرأى العام، 1966/7/13م

القضائية، اتجاهاً نحو تحقير القضاء والنيل من استقلاله كما أرى اليوم.. إنني أعلم بكل أسف تلك الاتجاهات الخطيرة عند قادة الحكم اليوم لا للحد من سلطات القضاء في الدستور فحسب، بل لوضعه تحت إشراف السلطة التنفيذية "![1].

بالنسبة للحزب تركت (جـردة) الحل آثاراً سالبة على "نشاطه السياسي العام، و.. وضعه الداخلى، فقد ألجمت اندفاعه السياسي، وأعادته لشبه السرية، وأغلقت صحيفته، ودوره، وفجرت أزمة داخله حول جدوى النظام البرلمانى الليبرالى. ولكنها بدأت خافتة ولم يشتد ساعدها إلا فيما بعد"[2]. وقد شكلت تلك الأزمة أحد أهم أسباب تفريخ الفكر الانقلابى داخل الحزب، وقتها، حيث أفضت إلى حالة من الاحباط، ومراكمة السلبيات التي سادت في بعض أوساط "انعناصر من البرجوازية الصغيرة التي تأتى من بين صفوفها غالبية كادر الحزب الشيوعي المثقف"[3].

ومن ثم أخذ يستعر داخل الحزب صراع أيدولوجى عبر عن نفسه في المؤتمر الرابع الذي دفعت، في الواقع، حدة ذلك الصراع نفسه لانعقاده في أكتوبر عام 1967م. وتلى ذلك انعقاد دورتى اللجنة المركزية في يونيو 1968م ومارس 1969م، اللتين لخصتا جوهر موقف الحزب من القضايا الخلافية في "الموقف المبدئى الصارم من الانقلابات العسكرية ـ ضرورة تغيير قيادة الحزب لتتصدى للمهام الجديدة التي أفرزها الصراع الاجتماعى ـ التركيز

(1) صحيفة الأيام، 20/4/1967م .

(2) القدال؛ معالم.. ،ص162 .

(3) المصدر السابق، ص 172 .

على العمل الجماهيرى الصبور الدؤوب ليصل الحزب إلى القيادة صاعداً من القاعدة ولا يهبط عليها من أعلى، و أبرزت الصراع الضارى الذي يدور داخل الحزب "! [1].

وكان تقرير المؤتمر الرابع، المقدم من السكرتير السياسي عبد الخالق، قد أشار باكراً، وفي إطار هيكلته لإستراتيجية الحزب حول الثورة السودانية، إلى المسائل التي احتدم الصراع حولها لاحقاً بشكل أكثر حدة، وأهمها دور الديمقراطيين الثوريين، وغموض الحديث عن هذا الدور من الناحية النظرية، وما يحتويه من مفاهيم غير علمية عن الاشتراكية. كما أشار إلى التقديرات اليمينية التي تهول من هذا الدور، كتجربة متكاملة تحمل نفياً للماركسية حول قوانين التطور الاجتماعي، علاوة على التقديرات الليبرالية التي تهبط به الى مستوى حركة برجوازية صغيرة عاجزة عن مواكبة الثورة الاجتماعية وقيادتها. وخلص التقرير الى أهمية تقييم الحقائق الخاصة بتطور الثورة في الظروف التاريخية الراهنة حتى لا تنزلق إلى الجمود العقائدى وخطأ التقديرات الذاتية. كما نبه إلى خطورة تنامى الاتجاهات الانتهازية اليسارية "التي تبشر بأنه لا مكان للنضال الجماهيرى ولا أمل من ورائه، وكل ما يبقى للحركة الثورية هو أن تتكفئ على نفسها وتقوم بعمل مسلح، لأن هذا العمل هو الذي يحضر الجيش السياسي الجماهيري "![2].

---

(1) سابق، ص196 .

(2) سابق، ص179 .

أما اللجنة المركـزية فقد شددت، في دورتيهـا المذكورتين، على أهمية مواصلة مناقشـاتها بعد أن ثبت أن المؤتمر الرابع لم يحسم الصراع بشكـل كامل. فشـرعت، من خلال الدورتين، في مـحاولة وضع المعـالجات الملائمـة للقضـايا الملحة التي برزت بعـد المؤتمر الرابع، ولحدة الصـراع الذي تفاقم حول الموقف من قيـادة الثورة السودانية والتغيير الاجتماعي في البلاد بشكل عام. ومن أهم تلك القضـايا:

1 ـ أن الحركة الشعبية تنتصر، بمعنى وصول الحلف الديمقراطى تحت قيـادة الطبقة العـاملة للسلطة وتشكيل حكومـة وطنية ديمقراطية، عندما تنضج الازمة الثورية وسط الجماهير.

2 ـ أن الحـزب لا يرى بديلاً عن نشاط الجـماهيـر في التصـدى لاستكمال مهام الثورة الوطنية الديمقراطية، والانتقال بها إلى آفاق الاشتراكية.

3 ـ أن الحلف الوطنى الديمقـراطى يتشكل مـن جماهيـر الطبـقة العاملة في القيادة، وجمـاهير المزارعين والبرجوازية الوطنية والمثـقفين الثـوريين والاقـسام الثـورية المسلحـة التي تضع نفسها في خدمة ذلك الصف.

4 ـ أن الحزب يضع في اعتباره كل الاحتمالات، من حيث إمكانية لجوء القوى الرجـعية لأقسـامها المسلحة في الجـيش لإقامة ديكتاتورية عسكرية، كما يضع نصب عينيه، في نفس الوقت، احتمـال لجوء فئات اجـتماعيـة من بين أوساط قوى الجـبهة الوطنية الديمقراطية في البلاد لانقلاب عسكرى.

●●●

ما لبث الصراع أن انتقل إلى العلن، وعلى صفحات الصحف، بعد أن أخذت تتكاثف في أفق الحياة السياسية السودانية، وفي أروقة الحزب، ملامح الخلاف الفكري الذي أدى، في وقت لاحق، إلى انقسام جديد داخله.

في ذلك السياق دار سجال فكرى عاصف، من مواقف شديدة التباين، عن دور القوات المسلحة، ودور التنظيم الطليعى، ودور الجماهير في التغيير الاجتماعي. وكان قد بدأه أحمد سليمان المحامى، عضو اللجنة المركزية وقتها، بمقال في صحيفة (الأيام)، حيث اقترح ميثاقا شبيهاً بميثاق ثورة أكتوبر 1964م بعد تصحيح هناته وثغراته، مشيراً الى أن حكومة وحدة وطنية مستقرة، ومعبرة عن المصالح الرئيسية الحقيقية للمجتمع، من شأنها أن تنفذ ذلك الميثاق المقترح. ونادى صراحة بأن "لا سبيل إلى هذا الاستقرار غير حماية القوات المسلحة التي يجب الاعتراف بها كقوة مؤثرة وكعامل فعال في حياة البلاد السياسية، فالجيش هو القوة الوحيدة التي تستطيع أن تحمى الميثاق المنشود وحكومته، ويستطيع بما يتمتع به وحده أن يردع المارقين والمغامرين" (1).

وفي يناير 1969م رد عبد الخالق على مقال أحمد سليمان بمقال في صحيفة (أخبار الأسبوع) نبه فيه إلى أن الحديث الذي أخذ يتكاثر عن القوات المسلحة حديث خطير يتجاهل تجربة الشعب السوداني، مشيراً إلى تجربة كبار جنرالات الجيش في

---

(1) سابق، ص 198

الحكم العسكري الأول عـام 1958م، وأن البلاد ليست في حـاجة (للضبط والربط) والتنفيذ السـريع، وأن الحديث عن جهاز الدولة باعتباره شيـئا مميزاً عن الفئات والطبقات الاجتـماعية التي جربت السلطة وفشلت هو حديث غير سليم ومجـاف للحقيقة، "فالقوات المسلحة لا تخرج عن إطار التحليل الطبـقى، وتشكل، في مستواها الأعلى وبالتجربة، جزءاً من النادي الذي سقط طريقه الاقتصادي، وأصبح لا مفر من نظام سياسي جديد"[1]. وإلى ذلك أوضح عبد الخالق أن مشـروع أحمد سليمان في حكومـة الوحدة الوطنية هو تجمع بين القوى الرجعـية والقوى التقدمية. كمـا نبه إلى أن أحمد سليمـان إنما يعارض في مقاله تحليل المؤتمر الرابع حـول القوات المسلحـة، بل يقتـرح دخولهـا كجـسم واحد بأقـسامـها الوطنـية والرجعـية لحل أزمة الحكم، "كـما يطرح دخول القـوات المسلحة ككل في العمل السياسـي لحمـاية حكومة الوحدة الوطنية – ولكن حـمايتـهـا ممن؟! ألا يدل حديث أحـمـد سليـمان على أن القـوات المسلحـة مدعوة إلى دعم حـكم رجعى به عناصـر تقدميـة شكلاً، وإيجاد صيغة للتصالح بين القوى الرجعية حتى بين أبسط ميادين الديمقراطية وهي الانتخابات"؟[2].

ثم عاد عبد الخـالق لتوضيح هذا الموقف في 19 مايو 1969م، أي قبل وقـوع الانقلاب فـعلياً بأقـل من أسبوع، مـن خلال ندوة سياسية في قلب دائرته الانتخـابية بأحد ميادين حى بانت جنوب أم درمـان، وذلك ضمن حـديثـه عن آفاق المـستـقـبل السيـاسـي

---

(1) سابق، ص199 .

(2) سابق، ص 199– 200 .

للسودان، حيث قال: "إن البلاد دخلت الآن، وبما لا يقبل الجدل، في نفق مظلم للغاية"! وأضاف: "إنني لا أرى مخرجاً منطقياً من هذا النفق سوى قيادة وطنية جديدة تترجم إرادة التغيير، وتعبر عن تطلعات الجماهير". ومضى يقول: "ولعله من الواجب أن أؤكد هنا أن حزبنا الصامد يرفض أية مغامرة عسكرية طائشة للتغيير تستغل فيها البرجوازية الصغيرة معاناة شعبنا لتتسلق إلى الحكم تحت عناوين تعرف سلفاً أنها زائلة قبل أن تستوعبها جماهيرنا"![1].

●●●

مضت الأحداث تتداعى على ذلك النحو حتى وقع الانقلاب العسكري، فعلياً، في تلك الاثناء، فجر الخامس والعشرين من مايو عام 1969م، في ظروف تصاعد أزمة سياسية حادة بين قوتين اجتماعيتين متناقضتين:

ـ فمن جهة وقف الحزب الشيوعي والفئات والشرائح المساندة لبرنامجه للتغيير الاجتماعي الذي تم التعبير عنه في برنامج سياسي (للقوى الاشتراكية) التي كانت قد نظمت نفسها، آنذاك، استعداداً لمعركة رئاسة الجمهورية، بل وحددت اسم مرشحها.

ـ ومن الجهة الأخرى وقفت القوى المناوئة له، والمتمثلة في أحزاب وقوى اليمين التقليدية التي كانت تنادى (بالدستور الاسلامى) كمخرج وحيد من الأزمة السياسية.

---

(1) بابكر حسن مكى؛ النميري.. الامام والروليت ـ أسرار 16 سنة من حكم المشير للسودان، ص36 .

إستقبل الشارع السوداني انقلاب مايو بارتياح، وحظي بقبول عاصف ومساندة واسعة من قطاعات وفئات اجتماعية عريضة. غير أن الصراع داخل الحزب ما لبث أن ازداد حدة بعد الانقلاب، وتعمقت الأزمة الفكرية فيه بين جناحين:

- أحدهما بقيادة أحمد سليمان ومعاوية إبراهيم سورج، عضوا اللجنة المركزية، ويرى ضرورة التعاون مع السلطة العسكرية الوليدة التي رفعت شعارات الحزب والتزمت بتحقيقها كاملة![1].

- أما الآخر فبقيادة عبد الخالق، وقد تحفظ على خط الانقلاب نفسه، ودعا للنأى بالحزب عن مواقع السطة، وعدم المشاركة في حكومتها، والتمسك باستقلالية منابره في تلك الفترة "من زاوية ما يتيحه هذا من حرية في اتخاذ القرار السياسي واستقلاليته، كشرط لرفد فكر التحالف الناقد والايجابى لكل خطوة ايجابية تتخذها السلطة لصالح الحركة الجماهيرية، مع كفالة حرية النقد للقرارات التي تحد من اندفاع الحركة الجماهيرية". وذلك باعتبار أن الانقلاب قد وقع، بالفعل، وأحدث واقعاً سياسياً موضوعياً مختلفاً عما كان قائماً قبله، مما يستوجب التعامل معه، بطبيعة الحال، بصورة مختلفة أيضاً.

غير أن قراراً بالمشاركة في السلطة ما لبث أن صدر، مع ذلك، في أعقاب مداولات ساخنة عندما وقفت "غالبية اللجنة المركزية مع فكرة المشاركة في حكومة مايو على المستوى الوزارى بعد رفضها الاقتراح المقدم من السكرتير العام للحزب بعدم قبول

---

(1) محمد محجوب؛ الجيش..، ص35 .

كراس وزارية"، علماً بأن المكتب السياسي للحزب كان قد اعترض، منذ مارس 1969م، على فكرة الانقلاب الذي تبنته عناصر القوميين العرب في تنظيم (الضباط الأحرار)![1] ويوضح محجوب عثمان، الصحفي وعضو اللجنة المركزية للحزب، أبعاد هذا الصراع قائلاً: "هناك حقيقة كبيرة غائبة وهي أن اللجنة المركزية للحزب الشيوعي اجتمعت في أمسية 25 مايو بأحد المنازل بمدينة الخرطوم بحرى وصدر توجيه من قيادة الحزب للذين تم اختيارهم في أول مجلس وزراء لحكومة مايو من أعضاء الحزب بألا يؤدوا القسم حتى تجتمع اللجنة المركزية للحزب وتقرر هل هذا انقلاب عسكرى أم ثورة، وكانت المناقشة في اجتماع اللجنة المركزية قد وصلت الى انقسام حاد جداً، وكان هناك من يرى أن هذا انقلاب عسكرى ويدعو للنأى عنه وبالتالى لا يشارك أعضاء الحزب في مناصب وزارية، وأنا كنت في ذلك الوقت أحد أعضاء الحزب الذين تم اختيارهم للوزارة، وكان هناك رأى آخر داخل اللجنة المركزية يرى أن مايو حركة تقدمية وأن بيانها الأول يشتمل على العديد من أطروحات الحزب، واحتدمت المناقشة الى أن تم اللجوء للتصويت وكان رأى الأغلبية بعد التصويت يقف مع تأييد الحزب لحكومة مايو، وهُزم رأى الأقلية التي ترفض التعاون مع النظام، وكان يقود هذا الرأى عبد الخالق محجوب سكرتير عام الحزب. وأنا رغم صدور قرار تعييني وزيراً إلا أننى كنت أقف مع رأى الأقلية الداعية لمقاطعة انقلاب مايو.

---

(1) المصدر السابق، ص35 .

وبالفعل خرجت من اجتماع الحزب للمشاركة في الحكومة رغم قناعتى بعدم صحة هذا الرأى، ولكن في النهاية خيارى هو التمسك بقرار الحزب. وبالفعل شاركت في أول تشكيل وزارى في حكومة مايو وكان بقية أعضاء الحزب الشيوعي الذين تقلدوا مناصب وزارية هم موريس سدرة وجوزيف قرنق وفاروق أبوعيسى وأدينا القسم. وهكذا بدأت العلاقة مع مايو وتطورت إلى أن نشب الخلاف والانشقاق والعداء "[1].

كانت ثمة اتصالات مبكرة قد جرت مع الحزب، قبل تنفيذ الانقلاب، في محاولة لإقناعه بضرورة المشاركة فيه ومساندته. وبعد ما يفوق الثلاثين عاماً من ذلك أفصح بابكر عوض الله، رئيس القضاء الأسبق، وأحد أبرز ممثلى تيار القوميين العرب داخل نظام الانقلاب المايوى، والعضو المدنى الوحيد في مجلس قيادة ثورته، ورئيس مجلس وزرائه، عن أن ".. الحزب الشيوعي كان أبعد الأحزاب عن الحركة، وكان ضدها على طول الخط، وهذا ما دفعنى نهار 24 مايو، بعد تسجيل كلمتى التي أذيعت في اليوم التالى، إلى الذهاب إلى المرحوم عبد الخالق محجوب في منزله، وأوضحت له أن حركة مايو سوف تقوم رافضة جميع الأحزاب السياسية القائمة آنذاك، وبالرغم من يسارية الحركة الا أنها ترفض الانتماء إلى الحزب الشيوعي أو الارتباط به. فثار ثورة عارمة وقال لى: عاوزين ترجعونا لحكم العسكر تانى؟! والله لو أعلنتم الارتباط بالحزب الشيوعي دون غيره لرفضنا، ونحن الآن

(1) ضمن موقع net.sudaniyat، حوار، البيان.

سائرون في الطريق الممهد للديمقراطية والتي لا تستند الى أحزاب طائفية" (1).

وتبدو إفادة بابكر عوض الله هذه أقرب إلى الصدق من روايات من يحاولون، لأسباب سياسية واضحة، أن ينسبوا تدبير انقلاب مايو إلى الحزب الشيوعي، ومن رواية جعفر نميري كذلك في كتابه (النهج الاسلامى لماذا)، والتي، وإن كانت تنفي، في النهاية، علاقة الحزب بتدبير الانقلاب، إلا أنها لا تهدف إلى توثيق التاريخ بأمانة، بقدر ما تهدف إلى اصطناع بطولات دراماتيكية كاذبة لصاحبها!

على العموم كان لا بد للصراع أن يبدأ في التفجر، منذ اللحظة الأولى، بين الحزب الشيوعي وسلطة مايو الوليدة.

●●●

في أغسطس عام 1970م انعقد المؤتمر التداولى لكادر الحزب، بعد أن تأخر عاماً كاملاً، "وكان عاماً مليئاً بالاحداث، ومشحوناً بالصراعات، ولعل تأخيره قد أفسح المجال لقدر كبير من الحوار، مما ساعد في بلورة القضايا وشحذها. كما أن الاوضاع السياسية والمواقف العملية خلال تلك الفترة قد ساعدت أيضا في نقل الصراع من حيز النظرية الى ميدان الواقع" (2).

إنعقد ذلك المؤتمر ليحسم قضايا أساسية، وصراعاً فكرياً حاداً أصبح يعبر عن نفسه بوضوح، وبالصوت العالى، في كل هيئات

---

(1) صحيفة أخبار اليوم، العدد/ 3508 بتاريخ 19 يوليو 2004م.

(2) القدال؛ معالم.., ص245 .

الحزب القيادية، بل وامتد ليشمل هيئاته القاعدية، خاصة عندما تركز حول موقف الحزب من سلطة 25 مايو، فأصبحت أمام المؤتمر قضيتان أساسيتان:

- تحديد طبيعة النظام من وجهة النظر الماركسية اللينينية،

- وموقف الحزب من النظام وتحديد واجباته في المرحلة الراهنة "[1].

تقدم عبد الخالق إلى ذلك المؤتمر بمساهمة فكرية طرحت، ضمن ما طرحت، موقف الحزب من القوات المسلحة طبقياً وسياسياً، حيث أكدت أن الجيش ليس "طبقة أو فئة اجتماعية واحدة، كما أنه ليس جهازاً معزولاً عن عمليات الصراع الطبقي، فهناك كبار الجنرالات الرجعيين الذين برهن حكمهم الديكتاتوري في أعوام 1958 - 1964م على أنه جزء من البرجوازية المرتبطة مع الاستعمار "[2]. كما أشارت مساهمة عبد الخالق إلى أن " غالبية جنود القوات المسلحة السودانية وضباطها جزء من الشعب لا من معسكر أعدائه.. ولكن إثارة دور القوات المسلحة بطريقة يفهم منها وكأن الحزب الشيوعي يضعها ككل في صف القوى المعادية للثورة السودانية أمر يخفي وراءه اختلافنا حول قضيتين أخريين، أولاهما وضع القوات المسلحة بين قوى الجبهة الديمقراطية، وثانيهما الموقف من الانقلاب. نحن كشيوعيين لا نقبل أيدولوجياً نظرية القلة التي تقبض على السلطة ثم بعد ذلك

---

(1) المصدر السابق، ص 248.

(2) سابق، ص270-271 .

ترجع للجماهير، ولهذا فالقبض على السلطة بواسطة أقلية مدنية كانت أم عسكرية، من غير اعتبار لدور الجماهير واستيفاء عوامل نضوج الأزمة الثورية، ومن غير اعتبار لدور الطبقة العاملة.. أيدولوجية غير شيوعية، وهي، في وضع بلادنا المتخلف، أيدولوجية البرجوازية الصغيرة. الفئة من الضباط التي نظمت الانقلاب العسكري ونفذته وقبضت على السلطة صباح 25 من مايو هي ضمن فئات البرجوازية الصغيرة المتعلمة. نحن نناضل من أجل انجاز مهام الثورة الديمقراطية. نحن نناضل من أجل المصالح المباشرة للجماهير في حياتها اليومية، ونحقق لها بالنضال مكاسب في مستوى معيشتها، وفي كافة نواحي حياتها الاجتماعية. وهذا النضال هو الذي يقرب الحزب الشيوعي من الجماهير ويربطه بها، فتتيقظ على الوعى بمهامها التاريخية السياسية من خلاله. وفي بداية الشوط الذي نحن بصدده نناضل من أجل الايجابيات في السلطة الراهنة، ونكافح ضد كل السلبيات" (1).

أما معاوية سورج فقد ركز في مساهمته على انتقاد عبد الخالق، واصفاً نشاطه السياسي قبل مايو باليمينية. وقال إن عبد الخالق سعى في تلك الفترة لإقامة تحالف سرى مع الصادق المهدى ومع قطاع من الأخوان المسلمين وجماعة وليم دينق من خلف ظهر الحزب. وقال إن عبد الخالق اعترض على اعتقال الصادق المهدى بعد قيام مايو داعياً لإعطائه دوراً خاصاً. وأضاف أن عبد الخالق تحول إلى أقصى اليسار بعد 25 مايو، منتقداً

---

(1) الحزب الشيوعي السوداني ـسكرتاريةاللجنة المركزية؛ 19 يوليو 1971م، يناير 1996م.

السلطة منذ بياناتها الأولى، وغفلتها إزاء أحداث الجزيرة أبا باعتبار أن الأحداث وقعت صدفة ولم تحدد السلطة زمناً لوقوعها، معتبراً أن ذلك نتيجة لاتجاه يمينى للسلطة. ومضى معدداً انتقادات عبد الخالق للسلطة في تحذيره من قيام الاتحاد الاشتراكى وقرارات التأميم والمصادرة. وحول ورقة عبد الخالق المقدمة إلى المؤتمر قال معاوية إن بها خلطاً "بين الديمقراطيين الثوريين للبرجوازية الصغيرة والبرجوازية التقدمية، كما أسقط الدور التاريخي للبرجوازية إطلاقاً، ثم استشهد بتوسع من كتاب سوفيتى أصدرته دار التقدم في موسكو يحوى مقالات لعلماء وصحفيين سوفييت" (1).

تداول المؤتمر حول المشروعين المطروحين، مشروع عبد الخالق ومشروع معاوية، وخلص إلى التصويت عليهما، ففاز مشروع عبد الخالق بأغلبية 69 صوتاً ضد 15 صوتاً. وبذلك صار مفترضاً أن الصراع قد انحسم حول إستراتيجية الحزب وتكتيكاته.

إلى هنا كانت الأمور تسير سيراً عادياً حسب لائحة الحزب الداخلية. لكن ما حدث بعد ذلك شكل خروجاً تخريبياً متعمداً ليس فقط على أسس العمل الحزبى، بل وعلى مجمل أخلاقيات النشاط السياسي. إذ أن (جناح معاوية) ما لبث أن تكتل، بتشجيع من السلطة، ليبدأ نشاطاً تنظيمياً وفكرياً معادياً لخط الحزب، ومن داخل مواقع الحزب، فأعلن رفضه لقرارات المؤتمر، وقرر تشكيل

---

(1) القدال؛ معالم،سبق ذكره، ص 258 .

مركز بـديل لمركز الحزب الرسمي، والبـدء في التحضيـر للمؤتمر الخامس، وإصدار بيان لجماهير الحزب. وقد صدر البيان، بالفعل، في 21 سبتـمبر، بتوقـيع اثنتى عشر عضـواً في اللجنة المركزية. كما صدر بيان أخر بتوقيع حوالى خـمسين عضواً آخرين. فاعتبر المركز ذلك، عن حق، انقسـاما واضحاً، ورغم ذلك سعى لمعـالجته بالاستناد أيضاً إلى اللائحة والنظـم الداخلية. لكن (جناح معاوية) أصر على عـدم الاحتكام إلى اللائحة ومـواصلة نهجه التـخريبى، فلم يترك للجنة المركزية من خيار آخر غير أن تصدر قراراً بفصل جميع العناصر المتكتلة والخارجـة على الشرعية الحزبية وأن تعلن ذلك في بيان.

وسط كل تلك الأحـداث كان واضحـاً أن عبد الخـالق هو الذي يشكل العـنصـر الرئيـسي، بل "كـان هو المـركـز الأسـاسي في الصراع، وله ثقله الـفكري والتنظيمي والتاريخـي. وكانت السلطة والعناصـر المؤيدة لهـا تدرك ذلك الثـقل"، مما يفـسر تركـيـزها الواضح على استـهدافه هو بالذات. وفي الحقيـقة فقد أشـار عبد الخالق لتشككـه في نوايا السلطة التي ظهرت من خلال محـاولتها التفريق، منذ أيامـها الأولى، بين معاملتـه هو وبين معاملتها لبـقية قيادة الحزب، وقد عبر عن ذلك أكثر من مرة متسائلاً بتهكم مرير: "هل تراهم يعاملوننى هكذا لأننى مـربوع القامة أصلع الرأس، أم لأننى سكرتير الحزب"؟![1].

□□□

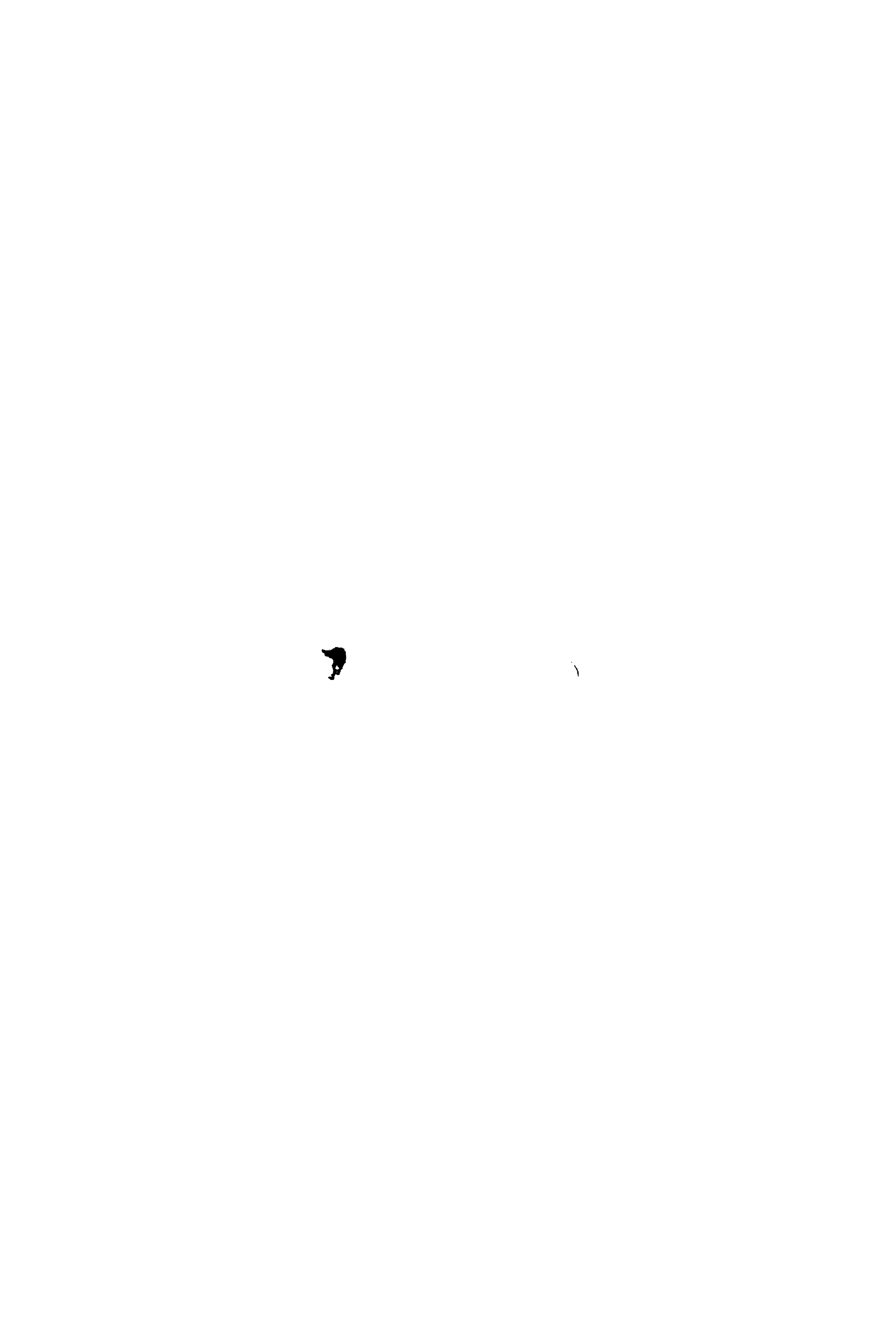
---

(1) إفادة نعمات أحمد مالك أرملة عبد الخالق للكاتب بلندن 2004م.

(2)

تداعيات المواجهة

□□



فوجئت الجماهير صبيحة 16 نوفمبر عام 1970م بقرار جمهورى صادر من مجلس قيادة الثورة بإعفاء كل من المقدم بابكر النور والرائدين هاشم العطا وفاروق حمدالله من عضويته!

لكن الأمر لم يكن مفاجئاً بالنسبة للمراقبين آنذاك، بالنظر إلى تفاقم الخلافات وسط القوى الفاعلة وذات التأثير على الأحداث. فهناك الخلاف الناشب أصلاً بين الحزب وبين قيادة مايو حول الانقلاب نفسه، وحول الكثير من السياسات التي ترتبت عليه، كالموقف من قضية الحريات، ومن استقلال الحزب، ومن ميثاق طرابلس في ديسمبر 1969م، ومن ضرب الأنصار في ود نوباوى والجزيرة أبا في مارس ـ أبريل 1970م، ومن قرارات التأميم والمصادرة في 25 مايو من نفس السنة، وغيرها من الأحداث. ضف إلى ذلك الخلاف الذي نشب داخل مجلس قيادة الثورة حول أسلوب اتخاذ القرار، ولعل أبرز محطاته الباكرة موقف الأعضاء الثلاثة من إقدام نميري، بعد أشهر قلائل من الانقلاب، على إبرام ميثاق طرابلس مع عبد الناصر والقذافي، دون الرجوع لمجلس الثورة. وهو الموقف الأقرب إلى موقف الشيوعيين الذين رأوا في ذلك الميثاق "تجاوزاً لخصوصية التشكيل العرقى

للســـودان، كـمـــا رأوا فيــه انفـــراداً من نميــري باتخـــاذ القـــرارات المصيرية الخطيرة دون استشارة أعضاء المجلس الآخرين" [1].

ولم يكن خافـيـاً أن اتجاه النمـيري ذاك كان يجـد المساندة من أعضـــاء المجلس الآخرين، باستثناء الأعـضاء الثلاثة، كمـا كان ".. مدفوعاً بالقـوى القومية العربية الناصـرية التي أصبحت ذات باع أطول في الساحة منذ نجاح مايو.. وكـان يعضد من باع القوميين العرب وجود بابكر عوض الله على رأس السلطة التنفيذية، إضافة إلى عدد من النافـذين من الضباط في الجيش وخــارج الجيش من أمثال محمد عـبد الحليم وشقيقه العميد أحمـد عبد الحليم والعميد عمر محمد سعـيد، ثم بعض المنظرين من أمثال الطاهر عوض الله وناصر السيد وبابكر كرار" [2].

لقـد أخذ هذا التـيـار القومـي العربي الناصــري ينحـدر بمايو سريعاً في اتجاه يفرغ فكرة (الجبـهة الديموقراطية) التي تأسست عليـهـا مـبـادئ الانقـلاب المعلنة من مــحـتواهـا، مما انعكس في التنظيمات الفوقية للنساء والشباب وحتى الطلائع، والتي دفع هذا التيار لتشكيلها بغرض مناوءة المنظمات الجـماهيرية القائمة بحجة أنهـا مواليـة للحـزب الشـيوعي. ولم يُجـد في حل الخـلاف بين التـيارين لا (الملتـقى الفكرى العـربى) الذي نظمـه منصور خـالد بالخرطـوم، ولا (ندوات الحوار) التي تبناها الرائد زين العـابدين عبـد القادر، عـضو مجلس الـثورة والرقيب العـام آنذاك، بمكاتب

---

(1) محـمود محـمد قلندر؛ سنوات نميـري، مركز عـبدالكريم مـيرغنى، الخرطوم 2005م، ص 148 .

(2) المصدر السابق.

الرقابة العامــة. وحتى المحاولة التي يبدو أن بابـكر عوض الله قد لجـأ إليهـا لتليين ذلك الخلاف بـتصـريحه الشـهيـر، إبان زيارته لألمانيا الديموقراطية عام 1970م، بأن مايو ما كان يمكن أن تنجح أو تبقى إلا بمعـاضدة الشيـوعيين، قـد ووجهت بتصـريح نميري المضاد الذي قطعت إذاعة أم درمان برامجها خصيصاً لبثه، والذي نفي فـيه أية عـلاقة لمايو بالشـيوعـيين فكراً أو ممارسة. وكـانت مداولات اللجنة التحـضيرية للميثاق، في إطار تنفـيذ قرار مجلس الثـورة بإنشـاء تنظيم جـامع للقـوى الوطنيـة، مناسـبة أخـرى للمواجـهة بين التيارين، حيـث طرح الشيوعيون والديمـوقراطيون صيـغة (الجـبهـة الديموقراطيـة)، بينما تمسك القـوميـون العرب بصيـغة (الاتحاد) كـحزب قائد أوحـد، والتي أفضت، لاحـقاً، إلى تنظيم (الاتحـاد الاشتـراكى) أو (تحـالف قوى الـشعب العـاملة) كمجرد تنظيم تابع للسلطة.

من جهة أخـرى كان لا بد للصراع الذي انفـجر داخل الحزب، قبل وبعـد انقلاب مايو، أن يجد تـعبيراً عنه، بصـورة أو بأخرى، داخل تنظيم الضـباط الأحـرار في الجيش، والذي كـان يَفتـرض (جدارته)، حسب طبيعة الأشياء، بقيادة دفة السلطة في تلك الأيام الاولى من عـمـر السلطة الجـديدة، بـاعـتبـاره (التـنظيم) المنفـذ للانقلاب. وهو الافتراض الذي سيجـد مقاومة داخل مجلس قيادة الثورة، وسـيؤدى، في نهـاية الأمر، وبالضـرورة، إلى تنازع تلك (الجدارة) بين المجلس والتنظيم، بل وإلى لجوء القوميين العرب في المجلس والجـيـش لتكوين تنظيم آخـر مناوئ لتنظيـم الضـبـاط الأحرار باسم (أحرار مايو)!

حول ملابسات ذلك الصراع الذي اتخذ أشكالاً مختلفة وأفضى، في مرحلة منه، لإقصاء الأعضاء الثلاثة من المجلس، يروى المقدم معاش محمد محجوب عثمان، الشقيق الأصغر لعبد الخالق، وأحد أعضاء التنظيم الشيوعي وتنظيم الضباط الأحرار داخل الجيش، والذي أصبح عضواً بمجلس قيادة الثورة في انقلاب 19 يوليو بعد أقل من عام من ذلك، قائلاً: "لم يمض على انقلاب 25 مايو 1969م سوى شهرين حتى تم الانتكاس على اتفاق سابق يقضى بحق تنظيم الضباط الأحرار في الرقابة على أداء المجلس في كافة المستويات، سواء تلك الخاصة بالقوات المسلحة أو ذات الطابع السياسي على مستوى الدولة، وأن تخضع هذه وتلك لاستشارة أعضاء التنظيم قبل أن تصبح اتجاهات رسمية. واعتبر المجلس المعلن أن ذلك يشكل قيداً عليه، وأن دور التنظيم قد انتهي بعد انتصار العملية الانقلابية، وأن النظم العسكرية لاتسمح بقيام تنظيمات داخل الجيش (!) ولهذا فقد صدر قرار بحل تنظيم الضباط الأحرار. ورغم أن هذا القرار قد وجد معارضة واسعة في اجتماع عاصف فقد تم تطبيقه رسمياً. إلا أن التنظيم ظل محافظاً على كيانه سراً، باستثناء أولئك الذين آثروا الدخول إلى أروقة السلطة من باب التعاون مع مجلس الثورة "[1].

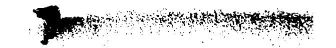
من جانبه أيضاً يلخص الرائد فاروق عثمان حمد الله ظروف الصراع داخل المجلس، وبين المجلس والتنظيم، بأن حركة الضباط

---

(1) محمد محجوب؛ الجيش.. ص38 .

الأحرار أصبحت غير راضية، بصورة متزايدة، عن سياسات نميري الداخلية، وبصفة خاصة سياساته تجاه (مشكلة الجنوب)، حيث تم الابقاء على غالبية الجيش هناك دون أن يحدث أى تقدم، فأصبح الضباط في حيرة من أمرهم، بينما نميري يتحول، يوماً عن يوم، إلى طاغية لا يحفل حتى بمشاورة زملائه في المجلس بشأن قرارات مصيرية يتخذها في أمور غاية في الأهمية والخطورة، علاوة على تدهور الأوضاع الاقتصادية في البلاد. وقال إنه وعدد من زملائه، خاصة بابكر النور وهاشم العطا، أصبحوا يشعرون بعدم الرضا، أكثر فأكثر، بإزاء تعدى نميري المتواصل على الحريات الشخصية للمواطنين. وأنه شخصياً ظل منزعجاً إزاء ممارسات الاعتقال التي كانت تتم بدون مبرر من قبل الأجهزة الأمنية التابعة للبوليس والجيش، على خلفيات سياسية أو غيرها، حيث أصبح المواطنون يُعتقلون دون توجيه تهم محددة إليهم أو تقديمهم للمحاكمة. كما وأن اجراءات المصادرة والتأميم أثرت بصورة بالغة على الاقتصاد، وأن الأحزاب السياسية أصبحت ممنوعة من ممارسة نشاطها، وأن حقوق الأقليات والآراء المخالفة لم تحترم. ولذلك "تقدمت باستقالتي في مارس 1970م، خلال أحداث الجزيرة أبا، وقد ظللت مرعوباً من حمام الدم وفظاظة الأفعال من نميري ورفاقه. ولكن الاستقالة رفضت، وبقيت مع نميري أطول ما استطعت من زمن، محاولاً دفعه لتغيير أساليبه، ولكنني فشلت "[1].

(1) حسن ساتي؛ إنقلاب 1971 بالسودان في الوثائق البريطانية (6 ـ 10)، مجلة المجلة، العدد/11، 123 بتاريخ 4 أكتوبر 2003م.



ويكتب السفير السابق أحمد عمرابى، مشيراً إلى جذور ذلك الصراع، قائلاً: "الانقلاب الذي جرى في 19 يوليو 1971 يمثل أعلى ذروة تصعيدية لذلك الخلاف الكبير والمتشعب بين فريقين في ثورة مايو: فريق العناصر الموالية لمصر بصورة كاملة بزعامة جعفر نميري، والذين كانوا لا يرون بأسا في التدخل المصرى في الشأن السوداني، وفريق العناصر الاستقلالية ذات النزعة اليسارية المعارضة لهذا التدخل. هذا الخلاف ظهرت بوادره منذ الأيام الأولى لاستيلاء نميري وصحبه على السلطة في عام 1969.. حيث أن المجلس انشق بمرور الشهور إلى فريقين: أغلبية تضم نميري وخالد حسن عباس ومامون عوض أبو زيد وأبو القاسم محمد إبراهيم وأبو القاسم هاشم وزين العابدين محمد أحمد عبدالقادر ومعهم العضو المدنى الوحيد بابكر عوض الله، في مقابل أقلية ثلاثية من بابكر النور وفاروق عثمان حمد الله وهاشم العطا. كانت الأغلبية ملتزمة بتطبيق الأجندة التي أعدتها القاهرة سلفا لتحديد مسار السلطة الثورية الجديدة. وكان في مقدمة هذه البنود أن تعمد السلطة في مرحلة لاحقة، بعد رسوخ قدمها واكتساب قدر من الشعبية بعد تصفية القوى السياسية التقليدية وعلى رأسها (الأنصار) وحزب الأمة، إلى أن تتخلص من الاعتماد على الشيوعيين. على هذا النحو كانت الخطة تقضى بتكوين تنظيم سياسى شعبى أوحد باسم (الاتحاد الاشتراكى السوداني) على غرار (الاتحاد الاشتراكى العربى) في مصر الناصرية آنذاك. كان المطلوب اذن تصفية الحزب الشيوعي السوداني ككيان تنظيمى ليذوب في (الاتحاد الاشتراكى

السوداني). وعندما صار الخلاف الأيديولوجي في صفوف الثورة ومؤيديها صراعاً مكشوفًا، ظهر للجميع أن قيادة الحزب الشيوعي السوداني نفسه منشقة على نفسها إلى فريقين، فريق يؤيد الأجندة المصرية ويقوده أحمد سليمان وفاروق أبوعيسى ومعاوية إبراهيم، وفريق يعارضها بقيادة عبد الخالق محجوب والزعيم النقابى الشفيع أحمد الشيخ والقائدة النسائية فاطمة أحمد إبراهيم بالاضافة إلى التيجانى الطيب ومحمد إبراهيم نقد وجوزيف قرنق. وإلى أن رحل عبد الناصر في سبتمبر 1970م كان يتدخل من حين لآخر كلما اقترب ذلك الصراع من لحظة انفجار مدوى، فتهدأ الخواطر مؤقتاً، ثم ما تلبث أن تعود للالتهاب مجدداً. ويبدو أن عبدالناصر كان يحرص على أن يتم الانتقال الى مرحلة (الاتحاد الاشتراكى السوداني) بطريقة ودية.. وبالتراضى، لا عن طريق القهر! ولكن بعد رحيل عبد الناصر وتسلم أنور السادات سدة الرئاسة اختلف الأمر. كان الرئيس المصرى الجديد مصمماً على القضاء على اليساريين، وخاصة الشيوعيين منهم، لا في مصر وحدها (على صبرى وشعراوى جمعة وصحبهما)، وإنما في السودان أيضاً، فأخذ يتحين الفرص[1].

في كل الأحوال تسبب إقصاء الأعضاء الثلاثة في إضعاف أداء مجلس الثورة الذي تفتقر باقى عضويته إلى الوعي السياسي والفكري. ولذا فإن "تضافر العوامل الخارجية، وتحول سلطة مايو إلى مواقع اليمين كلياً بعد الانقلاب الذي أحدثته في 16

(1) طارق احمد بابكر؛ 3 أيام هزت العالم، دار كيمبريدج للنشر، ط 1، 2003 ص89.

نوفمبر 1970، ما كان له أن يتم اذا لم تتوفر له التربة الملائمة في التركيب الفكرى الضعيف وتدنى الوعي السياسي لمجموعة مجلس الثورة. تلك كانت حفنة من الضباط التقت على درب التآمر مع جهات خارجية، حققت انقلاباً، رافعة شعارات التقدم والاشتراكية، وهي تجهل أبجدياتها "(1). ويتجلى أحد أبلغ الأمثلة على ضعف التركيبة الفكرية لغالبية أعضاء مجلس (ثورة مايو) في ما دار في أحد الاجتماعات العاصفة للمجلس عند عودة نميري من زيارة له إلى ليبيا في أغسطس 1970م، بعد مشاركته في احتفالات الذكرى الأولى (للثورة) الليبية , حيث عقدت قمة ثلاثية شارك فيها إلى جانب جمال عبد الناصر والقذافي وتمخضت عن فكرة (الاتحاد الثلاثى) بين مصر والسودان وليبيا، وذلك بمبادرة من القذافي الذي كان قد أعد ميثاقاً (لاتحاد الجمهوريات العربية) بزعامة عبد الناصر، فتم التوقيع عليه , كما وقع القذافي والنميري على ميثاق شرف بين الدولتين كان قد أعده القذافي أيضاً، وينص على أن تسلم كل منهما معارضى الطرف الآخر للسلطات المختصة. وفي ذلك الاجتماع الذي أعقب حضور النميري من ليبيا، استعرض النميري ميثاق الاتحاد، وأوضح أن الاختيار قد وقع عليه ليكون نائباً لرئيسه، ثم مضى يؤكد أن تلك لا تعد، فحسب، فرصة تاريخية بالنسبة لشخصه، بل للسودان كله، لأنه المستفيد الأوحد من فكرة الاتحاد. وفجأة خفض نميري من صوته قائلاً إن السودان يمكن أن يفسخ ميثاق الاتحاد في أى وقت يشعر فيه أنه

---

(1) محمد محجوب؛ الجيش...، سبق ذكره، ص48 .

حقق ما أراد كما فعلت سوريا مع مصر عام 1961م! وقبل نهاية الاجتماع طرح نميري فكرة الاتحاد للتصويت، وقبل أن يهم الأعضاء برفع أصابعهم طلب بابكر النور أن يُسمح له بالكلام. وتحدث بابكر بغضب شديد عن الطريقة (الساذجة) التي يريد النميري أن يقرر بها أمراً مصيرياً كهذا، وقال إن من يحق له التصويت على قرار الوحدة ليس هو مجلس الثورة، بل الشعب السوداني كله. فقاطعه نميري بسخرية: تريدنا أن نجلس هنا ونطلب من الشعب السوداني أن يقف طابور ليقول كل واحد رأيه في الوحدة؟ فرد بابكر بلهجة لا تقل سخرية: لا توقفهم في طابور لأن الشمس حارة جداً.. لكن أطرح عليهم الفكرة في استفتاء عام! وعقب نميري على بابكر قائلاً بأن رأيه فردى ولا يمثل أغلبية أعضاء المجلس، ثم طرح الاقتراح للتصويت، فانضم الرائد فاروق عثمان حمدالله والرائد هاشم العطا إلى رأى المقدم بابكر، بينما صوت الأعضاء السبعة الآخرون، بمن فيهم النميري وبابكر عوض الله، إلى جانب ميثاق الاتحاد. ولكن الاجتماع انتهي دون أن يعرض النميري على المجلس (ميثاق الشرف) الذي أبرمه مع القذافي! وشاءت الأقدار ألا يطبق ذلك (الميثاق) إلا مرة واحدة، هي تلك التي احتجز فيها القذافي طائرة بابكر النور وفاروق حمدالله وسلمهما للنميري[1].

●●●

---

(1) بابكر مكى؛ النميري..، سبق ذكره، ص42.

بجانب اقصاء الأعضاء الثلاثة وتحديد اقامتهم، واحالة ثلاثة عشر من ضباط القوات المسلحة إلى التقاعد، إضافة إلى حملة الاعتقالات التي طالت عدداً كبيراً من الكوادر الوسيطة في الحزب الشيوعي، ومصادرة أموال رجل الأعمال المعروف حامد الانصارى بتهمة أنها مملوكة للحزب، فقد تم أيضا اعتقال د. عز الدين على عامر، عضو اللجنة المركزية للحزب، ووضعه في مصنع الذخيرة بمنطقة الشجرة بالخرطوم، كما تم أيضاً اعتقال عبد الخالق محجوب، السكرتير السياسي للحزب، ووضعه في السجن الحربي القديم بأم درمان.

اقتيد عبد الخالق في البداية، وبعد القبض عليه، مباشرة، من عربة مصطفي احمد الشيخ التي كانت تقله، صباح 16 نوفمبر عام 1970م، من أم درمان إلى الخرطوم عبر جسر النيل الأبيض، إلى القيادة العامة، حيث وجد نفسه، حسب وثيقة تقييم اللجنة المركزية لانقلاب 19 يوليو، أمام اجتماع لمجلس قيادة الثورة، أشبه بالمحكمة العسكرية برئاسة نميري الذي وجه لعبد الخالق قائمة اتهامات شملت معارضة ثورة مايو، ووضع العراقيل في طريقها قبل وبعد انتصارها، ومعارضة تجنيد الشيوعيين لجهاز الأمن، ومعارضة السلم التعليمي، ومعارضة ضرب الجزيرة أبا، ومعارضة التأميم والمصادرة، ومعارضة ميثاق طرابلس.. الخ. وأبلغ النميري عبد الخالق قرار مجلس الثورة باعتقاله، وقال له: انك لن ترى الشمس بعد اليوم!

إستلم الرائد مامون عوض أبو زيد زمام الكلام من نميري، طالباً من عبد الخالق أن يكشف لمجلس الثورة ما لديه من

معلومات عن مؤسسات الحزب وممتلكاته، فما كان من عبد الخالق إلا أن زجره قائلاً: يسهل على أن يُقطع لساني من أن أكشف أسرار الحزب! ثم تجاهل، من ناحية أخرى، حديثاً سوقياً مبتذلاً كان الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم قد بدأ يخوض فيه!

بعد ذلك نقل عبد الخالق إلى السجن الحربي بأم درمان، فأصيب في اليوم التالي بنزلة برد حادة، وساءت حالته الصحية، فزاره النقيب طبيب المرحوم عبد الرحمن الدرديرى، وأسعفه ببعض الأدوية، لكنه أوصى بأن حالته تستدعى نقله فوراً إلى المستشفي. وعندما رُفض طلبه أصر على نقله لأى مكان آخر تتوفر فيه ظروف صحية أفضل. وبدا المرحوم الدرديرى في أشد حالات الغضب وهو يهدد بالكشف عن حالة عبد الخالق ومكان اعتقاله للناس!

ما حدث في إثر ذلك كان أمراً غريباً، بالنظر لطبيعة الأوضاع الدكتاتورية، ولا نجد له تفسيراً بغير حقيقة الهشاشة الداخلية للتسلط مهما حاول المتسلط أن يتظاهر بعكس ذلك! فقد أفضت ضغوط المرحوم الدرديرى، على أية حال، لنقل عبد الخالق إلى استراحة بميس الضباط الملحق بمباني مصنع سلاح الذخيرة بمنطقة الشجرة بالخرطوم، وإن كان قد فرض عليه "الحبس الانفرادى، ومنعت عنه الكتب والصحف والمذياع، وصدرت الأوامر لجنود الحراسة بعدم التحدث إليه"[1].

●●●

(1) الحزب الشيوعي؛ 19 يوليو، سبق ذكره.

مصنع سلاح الذخيرة استقبل، في فترات مختلفة من ذلك العهد، عدداً من المعتقلين السياسيين، عسكريين ومدنيين، من أبرزهم، حسب الفريق أول ركن معاش إسحق إبراهيم عمر، الرائد المسئول، آنذاك، عن استخبارات السلاح، "المرحوم اللواء الرشيد دياب، والعقيد محجوب برير و.. مامون شرفي الذي كان قد حُكم عليه بالإعدام ثم عدل الحكم إلى السجن المؤبد، كما شهد أيضاً اعتقال أحمد الشامى أحد القيادات السابقة في الحزب الشيوعي "[1].

أما في ما يتصل باعتقال عبد الخالق، فقد تم إحضار د. عز الدين على عامر أولاً إلى المصنع، وأودع منزل قائد السلاح الذي يواجه النيل الأبيض من الناحية الغربية. وفي وقت لاحق استلم مسئول الاستخبارات بالمصنع اخطاراً بأن عبد الخالق محجوب يشكو من مكان اعتقاله بالسجن الحربي بأم درمان، ولذا فقد تقرر استبدال موقعه بموقع د. عز الدين. وتم ذلك بالفعل ليل اليوم التالى، حيث نقل د. عز الدين إلى السجن الحربي بأم درمان، ووضع عبد الخالق في مكانه بالمصنع، وصدرت تعليمات صريحة مكتوبة إلى مجموعات الحرس والحكمدارات للالتزام بعدم الاقتراب منه أو التحدث إليه، وبعدم تخطى تلك التعليمات، مع ضرورة التبليغ الفورى عن أية ملاحظات غير طبيعية![2].

---

(1) إفادة الفريق أول معاش إسحق إبراهيم عمر للكاتب عن طريق الفاكس من امدرمان بتاريخ 29/9/2002م.

(2) المصدر السابق .

لكن الحزب سرعان ما نجح، برغم كل تلك التحوطات، في خلق صلة مع عبد الخالق داخل ذلك المكان المعزول، الموحش، المكتظ بالعسكر المدججين بالسلاح الفتاك، وبالتعليمات الصارمة، والأوامر المشددة!

●●●

ذات مساء، خلال شهر يناير عام 1971م، وصلت رسالة من عبد الخالق إلى مركز الحزب يقترح فيها فكرة هروبه، مرفقاً بها خطة وضعها بنفسه من واقع المكان ومحيطه!

وفي الحقيقة لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يتصل فيها الرجل بقيادة الحزب، حيث كان قد سرب إليها قبل ذلك عدة مذكرات صغيرة حول مسائل مختلفة، ألمح ضمنها إلى فكرة هروبه[1]. كما تابع بنفسه، عبر عدة اتصالات، مراحل وضع وتنفيذ خطة ذلك الهروب، "حيث استخدم في إحدى تلك الرسائل عنوان رواية نجيب محفوظ (اللص والكلاب) للتنبيه إلى الكلاب التي اعتادت أن تتجمع وتحدث ضجيجاً في المنطقة الواقعة غرب المصنع، والتي سيجد فيها عربة بانتظاره بعد تسلله من الغرفة، حسب الخطة. وبالفعل رتبت القيادة لخطة خلط اللحم بالسم وتقديمه لتلك الكلاب في نفس يوم الهروب فنفقت في الحال"![2].

---

(1) افادة سعاد إبراهيم احمد للكاتب بشقتها بمنطقة هامبستيت بلندن 2004/8/5.

(2) افادة محمد إبراهيم نقد، السكرتير السياسي الحالى للحزب للكاتب من السودان عن طريق الهاتف، مساء 2004/12/27.

أقتــرح عبد الخالق تــكوين لجنة مخصــوصة من داخل اللجنة المركزية لتنفيــذ تلك الخطة تحت إشراف عبد المجيــد شكاك، عضو اللجنة المسئــول عن تنظيم صف الضباط والجنود الشيــوعيين في الجيش، ومسئول الصلة مع عبد الخالق في معتقله[1].

فور تكليفه عكف شكاك على مراجعة الخطة مضيفاً إليها بعض المقتــرحات حول إمكانية مــغادرة عبد الخــالق البلاد في نفس ليلة الهروب، كـما اجتمع بالكادر العــسكري لاختيــار العنصر المناسب الذي سيقوم بالدور الأساسي في تنفــيذ العملية. وكان ذلك يعنى التأنى في التنفيذ، فأخطر عبد الخالق بهذا التقدير ووافق عليه.

●●●

في الشــارع كــانت المجــابهــات تســتفــحل بين الشــيــوعــيين والديمقراطيــين من جهة، وبين القــوميين العــرب ومن ورائهم زمر الانتهــازيين والمتســلقين الذين تحلقوا حــول السلطة، وهرولوا إلى تنظيمــاتها، وتهافتوا علــى أجهزتها، وبالأخص أجهــزة أمنها، من الجهة الأخــرى. أما في أروقة مجلس الثورة فــقد كان الموقف من الحزب ما يزال محل نقاش حتى بعد قرارات 16 نوفمبر 1970م.

---

(1) عضو اللجنة المركزية للحزب، وقد خلف عــبد القادر عباس (تمساح) عضو اللجنة المركزية السابق في المســئولية عن تنظيم صف الضباط والجنود الشيــوعيين في الجيش، بعد أن انقــسم عباس مع مجــموعة معاوية ســورج وأحمد سليمان. وقــد انتحر شكاك في معــتقل شالا عــام 1977م نتــيــجــة لاصــابتــه بالفــشل الكلوى، وارتفــاع البــولينا،وامتــناع السلطات عن تحويــله للمســتــشفي، مما فــاقم من مــرضه، وأدى، في مــرحلة مــتأخــرة منه، إلى اخــتــلال في جهــازه العصبي.

وقد انعقد آخر اجتماع لمناقشة تلك المسألة بالقيادة العامة للجيش نهار 12 فبراير 1971م. لكن، لما لم يحسم ذلك الاجتماع الأمر، نفد صبر النميري، فما كان منه إلا أن خرج من الاجتماع ليتخذ القرار، كالعادة، بمفرده، ولينفذه هو شخصياً، وحده، وفوراً!

فوجئ المواطنون، عند الظهيرة، بإذاعة أم درمان تقطع إرسالها لتنبه إلى بيان مهم سوف يلقيه عليهم بعد لحظات رئيس مجلس الثورة بنفسه!

توجه نميري إلى مبنى الإذاعة وألقى (بيان 12 فبراير) الشهير الذي اتسم، ربما لأول مرة، بمثل ذلك العنف والعداء الصريحين ضد الشيوعيين. فقد شدد على أن قرار (الثورة) بحل جميع الأحزاب (شامل) للحزب الشيوعي، وأنها لن تسمح له بأن (يدعى) أنه فوق ذلك القرار، وأنها ترفض (الوصاية)، وسوف (تسحق) العناصر التي تحاول التلاعب (بإرادة الشعب)، وما إلى ذلك!

في مارس جاء رد اللجنة المركزية للحزب الشيوعي على ذلك البيان ببيان مضاد، حيث تحدث لجنته المركزية سلطة مايو بأنها لا تملك أن تحطم الحزب، وأنها، إذا حاولت ذلك، فستضع نفسها في موضع الخطر!

لكن النميري ما لبث أن أردف بيان 12 فبراير الحاد بخطاب لا يقل حدة، بتاريخ العاشر من أبريل بميدان (سباق الخيل) بالخرطوم، حيث شن هجوماً عاصفاً على الحزب الشيوعي، داعياً، صراحة أيضاً، لتحطيمه، وذلك من خلال لقاء شعبي نظمته هذه

المرة قوى مناوئة تاريخياً لليسار وللحزب، مما اعتبره البعض تعميداً علنياً لمايو في رحاب اليمين العريض!

وبالفعل واصل النميري انطلاقه في هذا الاتجاه، لا يلوى على شئ، فأصدر، بمناسبة 25 مايو 1971م، جملة قرارات حل بموجبها، باسم مجلس الثورة، عدداً من المنظمات الجماهيرية التي تأسست منذ أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات، والتي ظلت تناضل وتؤدى دورها السياسي والاجتماعي عبر الحقبتين الاستعمارية والوطنية، وعلى رأسها اتحاد الشباب والاتحاد النسائى. وشملت قرارات الحل جمعيتى الصداقة السودانية مع الاتحاد السوفيتى وألمانيا الديموقراطية وغيرهما. وأعلن عن قيام منظمات فوقية بديلة للنساء والشباب، وطلب منها أن تتيقظ دون تسلل عناصر (مشكوك) فيها إلى صفوفها، وكانت الإشارة، هذه المرة، إلى (الشيوعيين) وليس إلى (العناصر الرجعية)! كما أعلن عن إلغاء (قانون العمل) الذي كان قد صدر بدفع من اتحاد نقابات العمال تحت قيادة الشفيع احمد الشيخ.

إنفتحت بذلك أبواب العداء واسعة بين مايو والحزب، بحيث أصبح وجود أحدهما نافياً، بالضرورة، لوجود الآخر! وهكذا أصدر الحزب، أواخر مايو، أخطر بياناته، معلناً بوضوح، وربما لأول مرة، عن عزمه إسقاط سلطة مايو الدكتاتورية!

●●●

في تلك الأثناء، وفي أحد لقاءات قيادة الحزب مع كادره العسكري، طرح المقدم بابكر النور اتساع رقعة التذمر وسط الضباط (الديمقراطيين)، وضغوطهم باتجاه تنفيذ عملية عسكرية

تطيح بنظام نميري، يسبقها تهريب عبد الخالق على خلفية الخطر الذي يحيط بحياته في المعتقل.

كانت تلك هي المرة الأولى التي يطرح فيها التنظيم العسكري للشيوعيين في الجيش مسألة تهريب عبد الخالق. بل وكانوا، في ما يبدو، قد شرعوا وقتها، عملياً، في تحسس الامكانيات المتوفرة لتنفيذ ذلك، حيث كان عبد الخالق قد أشار في احدى رسائله لقيادة الحزب إلى "خطورة المحاولة التي قام بها المقدم محجوب إبراهيم (طلقة)، القيادى بتنظيم الضباط الشيوعيين، للاتصال به في معتقله"[1].

ورغم تلك الإشارة إلى محجوب (طلقة)، تحديداً، الا أنه، في ما يبدو أيضاً، لم يكن الوحيد الذي قام بتلك المحاولة! فقد أشار محمد محجوب عثمان إلى أن الضباط كانوا، وقتها، يسعون حثيثاً للتشاور وتبادل الرأي مع عبد الخالق حول التطورات الأخيرة للوضع السياسي بالبلاد. وهكذا قرر كل من الرائد هاشم العطا والمقدم محجوب إبراهيم (طلقة)، بالإضافة إلى محمد محجوب نفسه، الاتصال بالرجل في معتقله!

ويمضي محمد محجوب قائلاً إن عبد الخالق لم يكن على علم مسبق بتلك الزيارة التي رتب تأمينها المقدم محجوب (طلقة) مع بعض صف الضباط والجنود الشيوعيين بسلاح الذخيرة، حيث تم الاتفاق على انتقاء أفراد بعينهم لحراسة البوابة وغرفة عبد الخالق في تلك الليلة. الا أنهم فوجئوا عند وصولهم بطاقم البوابة

---

(1) الحزب الشيوعي؛ 19 يوليو..، سبق ذكره.

يعترض طريقهم، ويكاد يعتقل ثلاثتهم، لولا تعرفه على المقدم محجوب (طلقة) الذي كان قد عمل لسنوات بذلك السلاح!

كان ثلاثتهم ينوون، في ما يبدو، وضمن (التشاور) و(تبادل الرأى) مع عبد الخالق، مناقشته أيضاً حول فكرة وترتيبات تهريبه الذي قرروا التصدى لتنفيذه كتنظيم. وربما لهذا السبب استشاط المقدم بابكر النور غضباً، فيما بعد، حسب محمد محجوب، وعاتب ثلاثتهم على ذلك التصرف. "إلا أن رد الفعل الغاضب بما لا يقاس جاء من قيادة الحزب في اجتماع دُعينا اليه، وحضره محمد إبراهيم نقد والراحل المناضل عبد المجيد شكاك. في هذا الاجتماع انساق نقد وراء الغضب للحد الذي صرح فيه بأن الحزب سيضطر إلى حل التنظيم العسكري اذا لم يكف عن التصرف من وراء ظهره. وما أخال أن قراراً كهذا كان من الممكن أن يصدر على أية حال. ولعل أبرز مدلولات تلك الحادثة هي حجم الفجوة التي كانت تفصل بين قيادة الحزب والتنظيم العسكري، سواء كان هذا على مستوى توفر الثقة أو متانة الصلة التنظيمية بين الطرفين" [1].

من جانبها تشير وثيقة الحزب حول تقييم انقلاب 19 يوليو الى أن عزوف العسكريين عن اخطار الحزب، أو التنسيق معه، ناشئ عن تجربتهم مع انقسام مجموعة معاوية وأحمد سليمان التي كانوا يعلمون أنها تسرب المعلومات عن الحزب لجهاز الأمن ومجلس الثورة. ولهذا ضعفت ثقة الضباط الشيوعيين في قيادة الحزب خوفاً من وصول معلومات أخرى للسلطة!

---

(1) محمد محجوب؛ الجيش..، سبق ذكره، ص60 .

ولا يكتفي محمـد محجوب بالتأكيد على هذا التفـسير فحسب، بل يمضى موضحاً أن "أصدق وصف لهـذا هو أن فجوة شاسعة من عدم الثقة كانت قائمة بين التنظيم العسكري وقيادة الحزب. بل أن الشك والريبـة من جانب ذلك التنظيم لم تعـد قاصـرة على ما كان يفعلـه الانقساميون من نقـل للمعلومات الحزبيـة إلى أجهزة السلطة، بل شـملت مواقف بعض الأعضـاء القيـاديين في الحزب ممن لم يزل يعتقـد بوجود امكانيات للتعـاون مع سلطة مايو، في ظروف اتسم فيها خط الحزب بالاضطراب وعدم الوضوح الفكري حول طبـيعة السلطة حتى بعـد عبورها نقطة اللاعـودة في العداء لمجمل القوى الوطنية والديمقراطية "[1].

لكن قيادات عليا وسط العسكريين، كبابكر النور وهاشـم العطا، أقدمت، في مـا هو واضـح، على تداول أمر اعتـزامهم تهريب عـبد الخالق مع قيادة الحزب التي أوضحت لهـم أنها تباشر تلك المهمة بنفسـها، فليس ثمـة ما يدعو لتـدخلهم. ويبدو أن ذلك قـد تم بعد عودة العـسكريين لطرح فكرة تهريب عـبد الخالق وإلحـاحهم في ذلك. فـقد نقل هاشـم لـقيـادة الحزب مـعلومـات "تشيـر إلى أن السلطه قررت ترحـيل عبد الخـالق الى مكان ناء، وربما يكون إلى الجنوب، وحذر من الاحـتمالات التي تشيـر إلى مخطط النظام في اللجوء إلى تصـفيـته هناك"[2]. وكان هاشـم قـد بعث، قبل ذلك، بخطاب إلى صلاح مـازرى، عضو اللـجنة المركزية، يؤكد فـيه أن خالد حسن عباس يسعى لمحاكـمة عبد الخالق، ".. وأنا لا أستطيع التصرف لأن ناس المخابرات مضايقنى شديد، وأنا خايف على عبد

---

(1) المصدر السابق، ص62 .

(2) الحزب الشيوعي؛ 19 يوليو..، سبق ذكره.

الخالق شديد، وإذا كنت موجوداً في مصنع الذخيرة لن يستطيع أحد أن يمسه بسوء. أرجو أن تتصرفوا لإخراجه قبل عودة خالد حسن عباس من الخارج "[1].

كانت تلك هي الظروف التي أشار الحزب، في التقييم المذكور، إلى أن حملة قد نشطت خلالها لإطلاق سراح عبد الخالق، حيث أصدر الحزب بياناً جماهيرياً طالب فيه بذلك، محذراً السلطة من أية محاولة للمساس بحياته. وما لبث هاشم أن "عاود.. الطلب مرة أخرى، وأخطر بالتروى لبعض الوقت، ومرة ثالثةً طلب الشروع في التنفيذ وضرورة تحديد يوم لهروب عبد الخالق، وكان الرد بالتأجيل أيضاً.. في هذا الوقت كان شكاك قد اتصل بعبد الخالق، وعرض عليه اقتراح هاشم ومحجوب إبراهيم، فوافق عليه طالما يوفر الحد الأدنى "[2].

غير أن وثيقه التقييم تكشف أيضاً عمَّا اتضح فيما بعد من ".. أن سبب استعجال العسكريين وإلحاحهم في الإسراع بتهريب عبد الخالق أنهم اقتربوا من ساعة الصفر للقيام بالانقلاب، وآثروا ـ إلى جانب أسباب أخرى ـ إبعاد عبد الخالق من منطقة عسكرية، إضافة إلى أن القوى المعادية ربما ستلجأ إلى تصفيته جسدياً خلال العمليات العسكرية لتنفيذ الانقلاب "![3].

□□□

---

(1) حوار مع جعفر العطا شقيق هاشم؛ صحيفة أخبار اليوم، العدد/ 8053 بتاريخ 19 يوليو 2004م.

(2) الحزب الشيوعي؛ 19 يوليو..، سبق ذكره.

(3) المصدر السابق.

(3)

هــروب
الزميل كـــرار!

□□

دلف عبد الخالق إلى مصنع الذخيرة بمنطقة الشجرة بالخرطوم، مكان اعتقاله الجديد، حاملاً حقيبة صغيرة بها بعض متعلقاته، ومن ضمنها بلوفر (فنلة) صوف عسكريه ربما كانت قد صرفت له قبل تحويله من السجن الحربي بأم درمان. وسرعان ما استقر بالاستراحة الملحقة بميس الضباط الذي يقع جنوب غرب المصنع الحربي على الضفة الشرقية للنيل الأبيض.

كانت الاستراحة عبارة عن غرفة صغيرة ألحقت بها دورة مياه بحمامها، وأمامها فيراندا على جانبيها شرفتان من الناحيتين الشرقية والغربية. وكانت تبعد عن الميس بحوالى خمسة وعشرين متراً، وعن السور الخارجي للمصنع بحوالي مترين. وكان هناك سور من السلك الشائك وأشجار (التمر الهندى) الكثيفة تحيط بالمصنع من الجهتين الجنوبية والغربية. وقبالة الشاطئ كان ثمة باب صغير يقع بين الاستراحة والميس، ولدواعى أمنية لم يكن مسموحاً لغير رئيس عمال (فراشى) الميس باستعماله مطلقاً، إذ يؤدى شمالاً إلى مساحة خالية تفصل بين بلدة الشجرة ومساكن جنود وضباط المصنع، وجنوباً إلى قرية (ود عجيب) الواقعة على بعد حوالى ثلاثمائة متراً عن سور المصنع الجنوبى والبوابة

الرئيسية للمصنع. وكان ذلك، بالتحديد، هو "الباب الذي سيستغل حسب الخطة"![1].

عاش عبد الخالق في تلك الاستراحة كمعتقل سياسي (فوق العادة)، حيث عملت السلطة على احكام عزلته التامة، فمنعت عنه الكتب والمجلات والصحف، وشددت التعليمات لحراسه بعدم احضار أى من هذه (المواد) أثناء (نبطشياتهم)، حتى ولو لاطلاعهم الشخصى، كما شددت الأوامر بعدم الاقتراب منه أو التحدث إليه.

لكن عبد الخالق والحزب تمكنا برغم كل تلك التدابير، كما سبق أن أشرنا، من تأمين صلة ما بينهما، فتبادلا الرسائل، ووصله جهاز راديو (ترانزيستور)، كما استطاع، بشخصيته الجذابة وكارزميته الطاغية، بناء قدر معقول من العلاقات الإنسانية مع حراسه الشباب الذين خلب ألبابهم تماماً بما كان ينثر في أجوائهم من رائق المؤانسات وشائق الأحاديث، حتى لقد أصبحت ذكرياته وتعليقاته وقفشاته ونكاته الاجتماعية والسياسية موضوعاً يومياً أثيراً لأحاديثهم، ضباطاً وصف ضباط وجنوداً، وتحولت فرص الاقتراب منه والاستماع إليه من خانة (المحظورات) التي ينبغي التقيد بها حرفياً، حسب التعليمات الصارمة، إلى شغل شاغل بالنسبة لهم كعناصر قوى نظامية ربما لم تعتد على الاختلاط بزعامات سياسية، دع أن تكون في مثل تلك القامة، وبمثل تلك الخصائص، الأمر الذي أسهم في إثارة اهتمامهم بالحزب،

(1) عثمان على الكودة: الحزب الشيوعي السوداني والمؤامرة الفاشلة في 19 يوليو .

وبرنامجه، وأهدافه السياسية، فشهدت تلك الفترة ترشيح الكثيرين منهم لعضويته!

وقد كانت لعبد الخالق خبرات سابقة في التسامي على كآبة الحبس الانفرادي، حيث يروي محمد سعيد القدال أنه سأله يوماً عن كيفية تحمله لذلك النوع من الاعتقال الذي تحرم عليه فيه الكتب وأدوات الكتابة، فقال إنه اعتاد، ببساطة، أن يستلقي على ظهره، ويأخذ في كتابة مقال أو قصة في ذهنه، بحيث يراجع كل فقرة، ويعيدها، ثم ينتقل إلى التي تليها، حتى يفرغ من الموضوع، فتكون قد انسلخت ساعات في ذلك الجهد!

واستطراداً، فإن للكثير من المناضلين خبراتهم الشخصية الثرة في هذا الصدد. فقد أورد القدال أيضاً ما رواه له التجاني الطيب، سكرتير اللجنة المركزية، من أنه عندما اعتقل في عهد نميري عام 1980م، ووضع في زنزانة معزولة على سطوح جهاز الأمن، أخذ يتذكر كل زملاء دراسته، فرداً فرداً، منذ المرحلة الأولية، فتحدى بذلك ذاكرته وقضى وقتاً مسلياً[1].

في محبسه ذاك بمصنع الذخيرة أنجز عبد الخالق وثيقته القيمة التي اشتهرت في أدبيات الحزب، لاحقاً، بوثيقة (حول البرنامج)، والتي عالج فيها الكثير من القضايا التي تتعلق بمستقبل التنمية والديمقراطية والثقافة، منطلقاً من ضرورات التمايز الأيديولوجي بين مشروع الطبقة العاملة ومشروع البرجوازية الصغيرة، مؤكداً على قضية التطور الوطني الديموقراطي، وعلى أن الإجراءات الاستثنائية ينبغي أن تبقى

---

(1) د. محمد سعيد القدال؛ كوبر: ذكريات معتقل في سجون السودان، الشركة العالمية للطباعة والنشر، القاهرة 1998، ص18.

رهينة استثنائيتها، وألا يسمح بديمومـتها أو استمرارها، ومشدداً على أهمية العودة للشرعية والديمقراطية عبر إتاحة أوسع الفرص أمام حركة الجماهير المستقلة المتمتعة بكامل حرياتها وحقوقها.

وتروى سعاد إبراهيـم احمد، عضو اللجنة المركـزية، أنها ظلت تتلقى منه تلك الوثيقـة المهمة في شكل قـصاصات صغـيرة جداً، عكفت، لاحقاً، وبمساعدة د. فاطمـة بابكر، عضوة الحزب وأستاذة الاقتصـاد بجامعة الخرطوم، على إعـادة نسخها يدوياً وتسليـمها لقيادة الحزب(1).

من جانبه يحكي الرقيب معـاش عثمان على طه الكودة، الكادر بتنظيم الحزب وسط ضباط صـف وجنود مصنع الذخيرة، والذي سيلعب، في ما بعد، الدور الأساسي في تنفـيذ الحلقة الأخيرة من خطة هروب عبـد الخالق، طرفـاً من سخريات الـرجل اللاذعة من مايو ورجـالاتها أثناء وجوده بالمعـتقل. من ذلك، مثلاً، أن مـامون عوض أبو زيد، عضو مجلس قيادة الثوره المسئول عن جهاز أمنها في ذلك الوقت، جاء، عـصر أحد الأيام، لمقـابلة عبد الخـالق لسبب مـا. وأثناء وجـوده معـه دخل (ود الزبيـر)، أحد فـراشى مـيس الضباط، إلى غـرفة عبد الخالق، حـيث كان قد اعتـاد أن يجهز له (قهـوة العصـرية) في مثل ذلك الوقت يومـياً. وكـان (ود الزبير) مدمناً على تعاطى الخمور البلدية، وقد اعتاد تناولها يومياً في مثل ذلك الوقت أيضـاً بعد نهـاية عـمله مبـاشرة! وعندمـا لاحظ عبـد الخالق أن مامـون قد انتبه للرائحة النفـاذة تفوح من (ود الزبير)

---

(1) افادة سـعاد للكـاتب، سبق ذكـرها. وقد صدرت هـذه الوثيقـة عام 2000م في كتاب عن دار عزة للنشر والتوزيع بالخرطوم.

بمجـرد دخـوله، وجه حـديثـه للعـامل قـائلاً: "ايه الحكايه ياود الزبير.. ما لسَّه الوكت بدرى"! فـرد ود الزبير قائلاً: "خلاص يا أسـتاذ المواعـيد جـات والراس لازم يتوزن"! فـما كـان من عبـد الخالق إلا أن قـال له، وهو يسدد نظراته الحادة إلى عينى مـامون مباشرة: "أوعك من مريسة (مايو).. أشـرب مريسة (الفيتريتة).. (مايو) دى قشرة خارجيـة فقط ولكن من الداخل فارغة لاتحتوى على أى شئ"![1].

هكذا وجدت أطقم الحراسـة في مثل تلك الطرائف والمؤانسات، في ذلك المكان الموحش، أحداثـاً غير عادية، مـثلما وجدوا في عـبد الخـالق نفسـه شـخصـية غـيـر عادية، فكـانوا يحرصـون على نبطشيـاتهم وينتظرونها بـفارغ الصبـر! وتحول اسم النبطشـية عندهم إلى (المحاضرة)، واسم المعـتقل إلى (الأستاذ)! وذلك برغم الأوامـر والتعليـمات المشـددة التي كـانت تحظر الاقتـراب منه أو التحدث إليه[2]. ويؤكد العريف معاش عثـمان عبد القادر على ذلك بقوله إن العسـاكر صاروا يحبون (الونسة) معه، ويتشوقون لمجئ يوم خدمتهم كحرس له، وقد أحبه أغلبهم[3].

●●●

---

(1) الكوده؛ الحزب... سبق ذكره. و(مايو) و(الفيتريته) نوعان من الذرة السودانية تصنع منهما بعض الخمور البلدية (كالعرقى) و(المريسة)، وتعتبـر الأخيرة غذاء رئيسـياً لكثير من السكان، خـاصة في الغرب والجنوب.

(2) المصدر السابق.

(3) الصحافة، العدد/ 5004، 22/ 7/ 2004 .

كان من عادات عـبد الخالق، التي ظل يحرص عليـها منذ أيامه الأولى في ذلك المكان، أن يصـحو مبكـراً، فيأخـذ حمامـه، ويحلق ذقنه، ثم يتـعطر ويرتدى مـلابس نظيـفـة ويخـرج للجلوس على كرسيه في ظل الفرندة أمام غرفته، حيث يشرب قهوته الصباحية، وهو يدخن في صمت، ويومئ برأسه مبتسماً للجنود الذين يمرون به محيين.

ومن عاداته أيضاً أنه كان يغير ملابسه أكثر من مرة في اليوم الواحـد. فيخـلع الجلباب والعـمامـة اللتين يكون قد ارتداهمـا في الصبـاح، ليرتدى في منتـصف الظهيـرة زياً أفرنجـياً كـاملاً مع الجوارب والحذاء اللامع ونظارة الشمس، وما أن يأتى المساء حتى يغير بزى آخر.. وهكذا!

أدهشت تلك العـادات الجنود أول الأمـر! لكنهم مـا لبـثـوا أن ألفوها مع كـر الأيام والأسابيع والشهـور المتطاولة! ولم يفطن أى منهم لما تخفيه وراءها من نوايا حقيـقية إلا بعد أن (تبخر) الرجل من المكان، فجأة، ذات مسـاء، مما يدل على أن فكرة الهروب كانت حـاضـرة في ذهنه ربما منذ الأيام الأولى لتـرحـيله من السـجن الحربي بأم درمان إلى مصنع الذخيرة بالشجرة!

كان الضابط المسئول، أيامها، عن اسـتخبارات سلاح الذخيرة، الرائد إسحق إبراهيم عمر (لاحقاً الفريق أول ركن معاش) يحضر إلى الموقع يومـياً في حـوالى الثالثـة بعد الظهـر، دون أن يحرص على الدخول إلـى عبد الخـالق إذا كان في غرفـته، بل كـان يكتفي (بأخذ التـمام) العـسكري التقليـدى من نوبة الحراسـة ثم يغادر. ومع ذلك لم يكن من الصـعب عليه أن يلاحظ توطد العـلاقات بين

الرجل وحراسه، من خلال المرات التي صادف فيها جلوسه خارج الغرفة. وحول ذلك يقول إسحق انه لاحظ أن بعض الحرس يكونون في مواقع الحراسة، بينما الباقون يتحلقون حول عبد الخالق يستمعون لأحاديثه باهتمام، "ولذلك اتصلت بالقيادة العامة وأوردت إليها أن عبد الخالق قد أثر على الجنود وضباط الصف خاصة، ومنهم أعداد ينتمون إلى حزبه، وأرى أن يتم تحويله إلى حراسة أخرى، أو استبدال الحراس من مصنع الذخيرة بأي وحدة أخرى توكل لها هذه المهمة، وكان ذلك قبل وقت كاف من هروبه"(1).

وقد تم بالفعل تغيير اثنين من المسئولين عن أطقم الحراسة، قبل يومين فقط من تنفيذ عملية الهروب. سوى أن ذلك جرى على العكس تماماً مما هدفت إليه تحذيرات ضابط الاستخبارات المسئول! حيث تم تعيين الرقيب عثمان الكودة ليكون مسئولاً عن الحراسة ليوم الاثنين 27 يونيو 1971م، بينما عين العريف عثمان محمد عبد القادر لتولى تلك المسئولية في اليوم التالي، دون أن يكتشف أحد، إلا في ما بعد، أن كلاهما كادر عسكري في الحزب الشيوعي، وأنهما كانا ضالعين، آنذاك، بشكل مباشر، في خطة هروب (الزميل كرار).. الاسم الحركي، وقتها، لسكرتير الحزب الشيوعي!

ساورت الشكوك الرائد إسحق في أمر ذلك الاستبدال. ولكن لم تتح له الفرصة كي يستجلي حقيقته، فقد "كنت في ذلك اليوم

---

(1) إفادة الفريق اسحق للكاتب، سبق ذكرها.

مريضاً، ورغم ذلك حضرت، وتفقدت الدورية والأفراد، وشككت في موضوع هذا الاستبدال، وأرجأته حتى الصباح، ولكن.. قبل الصباح هرب عبد الخالق"[1].

غير أن إسحق يجزم بأنه على الرغم من علمه بأن "الكثير من الجنود وضباط الصف وبعض الضباط من مصنع الذخيرة هم من تنظيم الحزب الشيوعي ولهم خلايا به وتم توضيحها للقيادة العامة"[2]، وعلى الرغم من الشكوك التي ساورته بشأن العلاقة التي نشأت بين عبد الخالق وحراسه، وكذلك بشأن عملية استبدال **ضابطي الصف، وقناعته التامة، بحكم عمله كضابط استخبارات، أن تلك الأمور ترجح حدوث شئ ما، إلا أنه لم يطف بخياله، مع ذلك كله، ولو للحظة واحدة، أن عبد الخالق كان يتهيأ للهروب!**

وحسب الكودة فإنه ".. ومنذ صبيحة الثلاثاء 28 يونيو 1971، تمام الثامنة صباحاً، وبعد أن اكتملت اجراءات التسليم والتسلم بالنسبة للحراسة، قصد العريف عثمان، رئيس نوبة ذلك اليوم، أن يتغيب عن منطقة الحراسة لفترات متباعدة تتراوح ما بين الساعة إلى الساعة والنصف، وذلك حتى لا ينتبه جنوده إلى غيابه بعد تنفيذ عملية الهروب مع معتقله، "إلا بعد الفترة التي تعودوا أنه كان يتغيبها عادة"[3] والتي تسمح بالاختفاء تماماً عن الانظار!

---

(1) المصدر السابق.

(2) المصدر السابق.

(3) الكودة، الحزب...، سبق ذكره.

ويشيـر العريف عـثمـان عبـد القادر، من جـانبه، إلى أن عـبد الخالق كـان على علم تام بكل تفاصـيل العمليـة عن طريق تنظيم الضباط الشيوعيين في المصنع، "لكنى لم أقابله مطلقاً في المعتقل، ولم أقترب منه إلا لحظة التنفيذ (...) ناداني أحد العساكر التابعين لورديتى وأخبـرنى أن المعتقل يرغب في الحـديث مع (الحكمدار)، فلبيت النداء.. كـانت الساعة تمام الـتاسعة والنـصف.. دخلت عليه في غرفـة الاعتقـال.. سألنى: إنتـو مصمـمين تنفذوا العـملية دى الليلة؟ هززت رأسى بالايجـاب وقلت له نعم.. ماعليـك الا أن تقوم بإغلاق النافـذة، وسحب الستـارة، والاحتفـاظ بمفتاح الغـرفة في يدك.. حتى لا تتعرض لأى شكوك" [1]. ثم قاما بضبط ساعتيهما!

كانت عملية جمع الجنود للتـمام وصرف الأوامر النهائية لنوبة الليل تجرى، في العادة، مع غروب الشـمس. إلا أن العريف عثمان ظلّ يرجئـها، ذلك المساء، قصـداً، إلى ما قبل دقائق مـعدودات من ساعة الصفر، حسب الخطة.

في تلك الأثناء كان عبد الخالق قد ارتدى، كعادته المسائيَّة، زيَّه الافرنجى الكامل، واتخذ مجلسه على كرسيه المعتاد خارج غرفته. وما أن أزفت سـاعة الصفـر بالضبط، حتى انطلق صـوت العريف عثـمان آمراً جنوده بالاصطفاف للتـمام بكلمة (أجـمع) العسكرية المتـعـارف عليـها. وكـان طريق الجنود نحـو مكان التـمـام يمر، بالضرورة، قرب موقع جلوس عبد الخالق. لذلك، وعلى حين كانوا يلقـون عليه تحـيـة المساء، كـالعادة، كـان بمسـتطاع كل منهم أن

---

(1) جريدة الصحافة،مصدر سابق.

يشاهده ينهض من كرسيه، ويتجه نحو باب غرفته كي يدخل ليخلد للنوم.. كعادته أيضاً!

●●●

إصطف الجنود للتمام وقد أولوا ظهورهم إلى الحائط الشرقى لغرفة عبد الخالق، فلم يكن بمقدورهم، بالتالي، وقد أصدر إليهم قائدهم أمر (الانتباه)، رؤية ما يجرى خلفهم، حيث أن قواعد الضبط والربط لا تسمح للجندى بالالتفات إلى أية جهة أثناء الاصطفاف العسكري، وبعد سماع كلمة (إنتباه)، دون أمر أو إذن مهما كان السبب.

من جهته، ما أن سمع عبد الخالق تلك الكلمة تصدر من العريف عثمان، وكان في تلك اللحظة قد وصل باب الغرفة، حتى جذبه بقوة، حسب الاتفاق، بحيث يحدث صوتاً يومئ للجنود بأنه قد دخل الغرفة بالفعل، وأغلق بابها خلفه! لكنه في الواقع لم يدخل، بل خب مسرعاً، وهو يحرص على ألا يحدث أي صوت، باتجاه باب العمال في الناحية الغربية من الاستراحة. وعند وصوله تأكد من أن القفل قد استبدل، بالفعل، حسب الخطة. فأخرج نسخة المفتاح الجديد التي كانت قد سلمت له من قبل، وفتح الباب، بهدوء، مغادراً المكان، وتاركاً الباب موارباً للعريف عثمان الذي سيخرج أيضاً بعده بدقائق معدودات!

وحسب الخطة أيضاً لمح عبد الخالق، على بعد حوالي 300 متراً إلى الغرب، سيارة تربض في جانب من الساحة التي تفصل بين مدينة الشجرة ومساكن جنود وضباط المصنع. كما وجد

بانتظاره الرقيب الطاهر أبـو القاسـم، عضـو تنظيم الحـزب بسلاح الذخيرة، ولم يكن قد التقى به من قبل. ومـا أن اقترب عبد الخالق من الطاهر حـتى نطق بكلمة (عـمرو)، فـسارع الطاهر للرد علـيه بكلمـة (أبن الـعـاص)، وكـانت تلك هـي كلمـة السـر التي أبلغـا بضرورة تبادلها.

بعد أن تم ذلك اطمأن عبـد الخالق، وتبع الطاهر الذي قاده إلى السيـارة، فاستـقلها وغادر المكان. ولم يكـن الرجل الجالس خلف مـقودها، بطـوله الفارع وسـمـرته الداكنة، سـوى.. هاشم العطا شخصياً!

مكث العريف عثـمان يثرثر، بعض الوقت، بكلام مطوّل لجنوده الذين كانوا مـا يزالون مصطفين في وضـع (الانتـباه). وللمفـارقة الطريفة فإنه لم يجد، في تلك اللحظات الدقيـقة، موضوعاً يشغلهم به سـوى.. تحذيرهم مـن عبـد الخالق، وتـذكيـرهم بالتـعليمـات الصارمة، واجبة الاتباع، بشأن عدم الاقتراب منه أو التحدث إليه!

وعندما تيقن العـريف عثمان تماماً مـن أن عملية هروب الرجل قد تمت بسلام، أصدر أمره للطابور بالانصراف.

إنهمك الحراس في ترتيب مراقـدهم، بينما حمل هو إبريق الماء، واتجه، بخطـوات عادية، للخروج مـن نفس ذلك الباب، كـما لو انه ذاهب لقضاء الحاجة، تاركاً مـتعلقاته في مكانها! في الخارج كان بانتظاره أيضاً زميله في السـلاح وتنظيم الحزب، الرقيب الطاهر، الذي قاده إلى سـيارة أخرى استـقلاها معاً وغـادرا المكان. وكان السائق، هذه المرة، هو المقـدم محجوب إبراهيم نمر (طلقـة)! وبعد

فتـرة قصـيرة التـقى الجميـع قرب منازل الرى المصـرى، حسب الاتفاق.

جرت الأمور كلها بذات الدقة التي كان العريف عثمان يأمل أن ينفـذ بها دوره في الخطة. لكن هنة بسـيطة كانت قـد بدرت منه، حسب افادته للكاتب، ظلت، رغم بساطتها، تقلقه وتشغل باله طوال مراحل تنفـيذ العمليـة! ذلك أنه، عند عودته، ذات مـرة، من إحدى فترات تغيـبه المقصود عن جنوده، سأله أحدهـم أين كان، فسارع العريف الذي لم يكن يتوقع السؤال، بأنه ذهب يبحث عن سجائر.. علماً بأنه لم يعرف عنه التدخين قط[1]!

●●●

(تمام) الصبـاح، بالنسبـة للنبطشيـات، في مثل أهمـية (تمام) المساء. غـير أن الجنود لما هبـوا من مراقدهم فـجر اليـوم التالى، الموافق الاربعاء 29 يـونيو 1971م، وهم يغالبـون آثار العاصـفة الترابية الكثيفة التي كـانت قد ضربت الخرطوم في الليله السابقة، لم يجدوا رئيس نبطشيتهم بينهم! فكروا، أول الأمر، أنه ربما ذهب لقـضاء حاجـة هنا أو هناك، فـانتظروه. ثم لما طال انتظارهم دون جدوى مـضوا يبحـثون عنه في كل الموقع. ثم لما طال بحـثهم بلا جدوى، وبـدأت الشمس في الشـروق، كان لا بد، في النهـاية، من إحاطة الضابط المناوب علماً بالأمر!

كان الضابط المنـاوب في مكتبه يحسب الدقـائق، ويرقب أشعة الشمس الأولى تتـسلل عبـر النافذة، وهو يؤمل في عملـية تسليم

---

(1) افادة العريف عثمان عبدالقادر للكاتب عن طريق الهاتف من قرية أم سنط بالسودان عام 2004.

وتسلم روتينيــة هادئة تتيح له انصــرافاً ســريعاً إلى الراحــة بعد نهاية ورديتــه. لكن ظهور أحــد أفراد الحراســة، وليس رئيســها، أمامــه، هكذا فجأة، وفــي ذلك الوقت المبكر من الصبــاح، أثار قلقه على نحو ما!

أدى الجندى التــحيــة العسكريــة بنشاط، ضــارباً بلاط المكتب بقدمه اليمنى، قبل أن يطلق قنبلته:

ـ "يا فندم صحــينا في المواعيــد بالضبط وما وجــدنا العريف عثمان رئيس الوردية في الموقع، وانتــظرناه لأخذ التمام ولكنه لم يظهر حتى الآن"!

حدق الضــابط المناوب في وجه الجندى عاقــداً ما بين حاجبــيه برهة، ثم ما لبثت حدقتا عينيه أن اتسعتا على آخرهما، وهو يلتقط قبعته العسكرية من فوق طاولته، ويصيح كالملدوغ:

ـ "أوع تكونوا حارسين ليكم غرفة فاضية"؟!

ولأن الجندى لم يكن قــد استــوعب، في تلك اللحظه، التجــريد الذهنى السريع الذي خلص به ضابطه إلى (الاحتمال المرعب)، فقد رد ببساطة وبراءة:

ـ "فاضية كيف سيادتك.. مش الأستاذ فيها"؟!

لم ينتظر (ســيــادته) حــتى يكمل الجندى عــبــارته، بل انطلق كالسهم باتجــاه غرفة عبــد الخالق، بينما يده المرفوعــة فوق رأسه تصارع الريح لتلهــوج وضع القبعة كــيفما اتفق. لكنه مــا أن فتح باب الغرفــة حتى اصطدمت عــيناه بمرأى السرير الخــالى، المغطى بطبقة خفيفة من غبــار العاصفة الترابية، فتصلب في مكانه، يلهث

بأنفاس مبهورة، وعـينين واجفتين، وفم يابس، ويتمتم، والدم يكاد يتجمد في عروقه، بكلام غير مفهوم!

في ما بعد علق أحـد كبار ضباط وزارة الداخـلية هازئاً، عندما هرعت فرق التفتيش بكلابها البوليسية إلى المكان دون أن تجد أثراً واحداً يمكن أن تبـدأ منه البحث: "ربما أشرك الشـيوعيون مـعهم الأرصاد الجوية أيضاً!"[1].

●●●

على استحـياء واضح، وبعد فترة من التردد، أصـدر مدير عام وزارة الداخلية بيـاناً جاء فـيه: "بهذا أعلن للمـواطنين الكرام بأن عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعي المنحل قد تمكن من الهروب من معتـقله الليلة البارحة بمساعدة العريف عثـمان محمد عبـد القادر والذي كان في الليلـة المذكورة حكمدار المعـتقل والذي اختفي هو أيضا بعد هروب عـبد الخالق. لذا فإننا نهيب بالمواطنين الكرام أن يعـاونوا قوات الأمن في البحث عـن الهاربين". وأردف ذلك بتصـريحه للصحافـة بأن "البوليس في جميع أرجـاء البلاد يقوم بالبحث عن عبد الخالق، كمـا أن رقابة دقيقة قد فرضت على الحدود والمطارات والموانئ"[2].

لم تتطرق أجهزة الاعلام مرة أخرى لا لبيان مدير الداخلية ولا لتـصـريحه! وبدا واضـحـاً أن النظام أصـيب بأشـد الاضطراب والارتبـاك جراء ذلك الهـروب والاختـفاء اللذين أثارا حـالة غيـر

---

(1) الكوده؛ الحزب..، سبق ذكره.

(2) موقع www.omdurman.plus اشراف د. عبدالماجد بوب.

مسبوقة من الحيرة والدهشة وسط أجهزة مخابراته التي جدّت، بصمت وتكتم، في البحث وإعادة البحث المضنى عن سكرتير الحزب الشيوعي الهارب، كما اشتركت في تلك المهمة أيضا مخابرات أكثر من دولة عربية وغربية. "وعلى الفور تم اعتقال كل من الرقيب عثمان على الكودة والمقدم محجوب إبراهيم (طلقة) واتهامهما بالضلوع في تهريب عبد الخالق" [1].

●●●

وإذن فقد نجحت خطة الهروب. ولكن السؤال: خطة من كانت تلك التي تم تنفيذها؟! هل هي خطة الحزب التي وضعها شكاك مقترنة بإبعاد عبد الخالق إلى خارج البلاد في نفس يوم تهريبه؟! أم خطة العسكريين المرتبطة، كما قد رأينا بمشروع الانقلاب، وبالتالى فإن هدفها الأساسى كان إبعاد عبد الخالق من موقع مرشح لعمليات عسكرية؟!

الاجابة على هذا السؤال يمكن التماسها في ما سبق أن أبرزنا من الحقائق المشمولة بالمصادر المتوفرة، وأهمها تقييم الحزب لحركة 19 يوليو الصادر عن السكرتارية المركزية عام 1996م، وكتاب المقدم معاش محمد محجوب، وذلك كالآتي:

1 ـ عبد الخالق اتصل، في الأصل، بقيادة الحزب وفاتحها في أمر هروبه، مقترحاً خطة محددة من واقع جغرافيا المكان، ومقترحاً أن يوكل الإشراف عليها لشكاك. لكن العسكريين الشيوعيين بدأوا في الاتصال به حول نفس الأمر لدرجة أنه

---

(1) المصدر السابق.

نبه إلى خطورة ذلك، مما أثار حفيظة القيادة التي هددت بحل تنظيم العسكريين الشيوعيين! لكن الحقيقة التي يمكننا استخلاصها من ذلك هي أن عبد الخالق كان، في مرحلة ما، يتلقى اتصالات من المركز ومن العسكريين الشيوعيين، ولكل منطقه وحجته.

2 ـ عكف شكاك، فور تكليفه بالمهمة، على مراجعة خطة عبد الخالق، مضيفاً إليها بعض الملاحظات حول ضرورة التدقيق في اختيار العنصر العسكري المناسب للقيام بالدور الأساسي في التنفيذ، وضرورة بحث إمكانية مغادرة عبد الخالق البلاد في نفس ليلة العملية، الأمر الذي استوجب التأنى، وبالتالى التأجيل. وقد أخطر عبد الخالق بذلك ووافق عليه.

3 ـ ظل الضباط الشيوعيون، وعلى رأسهم هاشم العطا ومحجوب (طلقة)، يضغطون، المرة تلو المرة، باتجاه استصدار قرار من قيادة الحزب تعهد لهم بموجبه مهمة تهريب عبد الخالق وتحديد تاريخها، محذرين، في كل مرة، من تزايد احتمالات الخطر على حياة عبد الخالق. ولكن القيادة كانت تتمسك في كل مرة بالتأجيل. إلى أن اتصل شكاك بعبد الخالق، وعرض عليه اقتراح هاشم ومحجوب، فوافق عليه "طالما يوفر الحد الادنى"[1].

4 ـ إتضح فيما بعد أن سبب استعجال العسكريين لتهريب عبد الخالق هو أنهم كانوا حريصين على ابعاده من أى منطقة

---

(1) 1الحزب الشيوعي؛ 19 يوليو، سبق ذكره.

عسكريـة لأنهم كانوا قد اقـتربوا من سـاعة الصـفر لتنفـيذ الانقـلاب. ولم يكونوا واضـحين مع قـيادة الحـزب في هذه المسألة بسبب تجاربهم مع الانقسامـيين من مجموعة معاوية سورج وأحـمد سليمـان الذين كانوا، قبل فـصلهم، يسربون المعلومـات عن الحزب إلى مجـلس الثورة، مما رتب لحـجاب كـثيف مـن عدم الثـقـة بينهم وبين القـيـادة التي لم يكونوا يضمنون خلوها تماماً من مثـل تلك العناصر. ورغم ذلك فقد نبه بعضـهم، كبابكر النور، قيـادة الحزب لاتساع رقعة التذمر وسط الضـباط (الديمقـراطيين)، وضـغوطهم باتجـاه تنفيـذ عمـلية عـسكرية تطيح بنظام نميري، يـسبـقها تـهريب عـبد الخالق.

5 ـ رغم أن وثيقة تقييم الحزب لحـركة يوليو نوهت، بوجه عام، بإحكام الخطة التي تم بها تهريب عبد الخالق، الا أنها أشارت إلى بعض الأخطاء التي شابتـها نتيجـة التعجل، مثل التـقدير الخاطئ بارسال العريف عثمان عبد القادر إلى الدويم التي لا تعتبر مكاناً مناسبـاً لإخفائه، وعدم تمكين تنظيم الحزب هناك من تولى مهـمة اخـفائه، اضافـة إلى أن "خطة شكاك الأولى كانت أكثر تحوطاً بان يسـافر العريف الى الخارج فوراً" [1]، وأن العريف نفسه لم يكن مهيئاً ذهنياً أو نفسياً للاختفاء لمدة قد تطول، كذلك اسـناد مهمة توصيله للدويم والمحـافظة عليه هناك أسندت الى شخص كان معـداً في الأصل لتغطية منزل يختفي فـيه عبد الخالق بعد هروبه، وقـد صدق حدس شكاك

(1) المصدر السابق.

في هذه الناحيـة، حيث طالت الاعـتقالات التي أعـقبت هروب عبد الخالق كادراً ذا علاقة بذلك المنزل، كما كشفت كادراً على صلة بمهمة تأمين المنزل!

من هذه الحـقـائـق والملاحظات يمكننا أن نخـلص إلى أن خطة هروب عبد الخالق، رغم نجاحها بصورة عامة، لم تكن عملية فنية فـقط، وإنما سيـاسـية في المقـام الأول. وقد توزعـتـها تقـديرات مختلفة، تقديرات الحزب من جهـة، وتقديرات الضباط الشيوعيين من الجهة الأخرى، وتقديرات عبد الخـالق نفسه من الجهة الثالثة، دون أن يتوفر لهذه التقديرات الحد الأدنى من التنسيق الكافي في مـا بينها لـعدة أسـباب تـتعلق بدوافع كل طـرف وأهدافه منهـا، والحساب الدقيق لاحتمـالات نتائجها، والظروف المحيطة التي تمت فيها من الناحيتين الموضوعية والذاتية.



(4)

ثقوب في
جدار التأمين!

□□

أنطلق هاشم العطا بعربته التي تقل عبد الخالق، في تلك الليلة العاصفة، عابراً شوارع الخرطوم الأسفلتية، وأزقتها الترابية، ومارقاً، بسرعة عادية، وأعصاب فولاذية، من خلال تقاطعاتها، ومنعطفاتها، ودواراتها، بالاتجاه الذي ينتهي إلى آخر مكان في العالم يمكن أن يخطر ببال أجهزة المخابرات والأمن أن الحزب الشيوعي يحتمل أن يخفي زعيمه فيه: **غرفة داخليّة بالمنزل الحكومي الكائن داخل المباني الملحقة بالقصر الجمهوري، على مرمى حجر من مكتب نميري شخصياً، والمخصّص لسكنى العقيد عثمان حاج حسين أبو شيبة، خدن الروح لنميري، ولأعضاء** مجلس الثورة الآخرين، وموضع ثقتهم المطلقة، وكاتم أسرارهم المؤتمن، والضابط الذي تمت ترقيته مؤخراً إلى رتبة أعلى، وجرت إعادة تأهيل قوات الحرس الجمهوري، خصيصاً، بناء على طلبه، لكي تصبح خط الدفاع الأساسي عن (الثورة) ورئيسها ومجلسها، ولكي يتولى قيادته بنفسه!

لم يكن العقيد أبو شيبة، الكادر القيادي السري في تنظيمي (الضباط الشيوعيين) و(الضباط الأحرار) بالجيش، والضالع بشكل مباشر في التخطيط لانقلاب 19 يوليو، يكتفي، فحسب، بالتزام أقصى درجات الحيطة والحذر وضبط النفس في كلّ

حركاته وسكناته، بل وباللجؤ، فوق ذلك، للتمويه على سلوكه وتصرفاته، يومياً، بل وعلى مدار الساعة، بكلٍّ ما يتفتق عنه ذكاؤه الوقاد وجرأته النادرة من حيل وأساليب خداع! ولهذا كان قد انضم، امعاناً في التمويه، وبرفقته العقيد عبد المنعم الهاموش، إلى تنظيم (أحرار مايو) المستحدث بواسطة السلطة، والمخترق من قبل كل الأحزاب السياسية والمخابرات المصرية، على حين كانا، في الواقع، منهمكين مع زملائهما في التنظيم الأصل (الضباط الأحرار) في الإعداد لانقلاب الحركة (التصحيحية)!

هكذا، وفي اللحظة التي وقف فيها اللواء عبد الحى محجوب، أحد قيادات مصنع الذخيرة، أمام اللواء خالد حسن عباس، عضو مجلس الثورة والقائد العام للجيش، بمكتبه بالقيادة العامّة، لينهي إليه نبأ هروب عبد الخالق، كان المقدم أبو شيبة موجوداً (بالمصادفة!) مع اللواء خالد، فما كان منه إلا أن استشاط غضباً وهياجاً وخاطب اللواء عبد الحي، وهو في أشدٍّ حالات الانفعال، متباذئاً على ضباط سلاح الذخيرة كلهم بأنهم مجرَّد (ملكية)، أى مجموعة مدنيين لا يحسنون العسكرية، وإلا فكيف تسنى لعبد الخالق الهروب من بين أيديهم؟![1].

في ما بعد، وفي حوار صحفي أجرى مع النميري، أشار إلى واقعة اختفاء عبد الخالق في منزل أبو شيبة قائلاً: لقد اتجه إلى مكان "لا يمكن أن يخطر على بالنا أن عبد الخالق محجوب سيتوجه إليه.. إتجه إلى القصر الجمهوري، وحل ضيفاً على قائد الحرس الذي هو موضع ثقتى الكاملة، ومن الطبيعى، نتيجة لهذه

(1) صحيفة أخبار اليوم، العدد/ 8053، 19 يوليو 2004م.

الثقـة، أن نبحث عن عـبد الخـالق في كل مكان إلا في المكان الذي حل ضيفاً عليه "![1].

ومع ذلك فإن جدار التأمين لم يخل من ثقوب!

●●●

انطلقت عربة المقدم مـحجوب إبراهيم (طلقة) بالعريف عـثمان عـبد القـادر إلى حـيث تولى حـسن قطان، أحـد كوادر الحـزب العمالية، نقله مباشرة إلى مدينة الدويم، على النيل الأبيض، تنفيذاً لقرار مسـبق يقضى، حسب الخطة، بإخفائه لبـعض الوقت، ريثما يتم تهريبه إلى خارج البلاد. وقد تولت سعاد إبراهيم أحمد، عضو اللجنة المركزية، مهمة توفير ملابس مدنية له، كما قامت، بمساعدة بعض أعضاء الحزب، بإحراق ملابسه العسكرية ودفن رمادها في حفرة داخل الأرض![2].

ورغم أن عملية نقل العريف عـثمان إلى الدويم قد تمت بنجاح، إلا أنها، في ما يبدو، كانت قـد تركت، في البداية، لتقديرات حسن قطان! لكن، في ما بـعد، وفي أول اتصال حـزبيّ به، "كان وضـع العريف عثمان من أول المسائل الـتي نوقشت معه، وأن وضـعه في الدويم ليس سليماً، فـوافق على الاقتراح بإعادته للعاصـمة، حيث للحزب امكانات أفضـل في التأمين، لحين اكتمال إجـراءات تهريبه للخارج "[3].

---

(1) طارق؛ 3 أيام... سبق ذكره، ص.40

(2) افادة سعاد للكاتب، سبق ذكرها.

(3) الحزب الشيوعي، 19 يوليو، سبق ذكره.

جدير بالاهتمام الخاص أيضاً أن العريف عـثمان نفسه كان قد تحـفظ، أصلاً، على مـشاركـتـه هو، أو أى من زملائه في فـرع الحزب بمصنع الذخيرة، في عملية تهريب السكرتير العام، لمعرفته بالضـغـوط الفظيـعـة التي سـوف تمارسـها أجـهـزة أمن مـايو واستخـباراتها تجاه كل من يقبض عليـه ممن له أدنى صلة بتنفيذ هذه العمليَّة، بغرض استخدامه كخيط يوصلهم إلى مكان اختفائه! ويبدو أن تحفظ عثمان كان قد انصب، بالأساس، على ما لمسه في الخطة من ضعف فـي العناية بتأمين الكادر الذي سـيقوم بتنفـيذ الحلقة الأسـاسية في العمليـة، ذلك أنه، عندما توجه إليـه الرقيب عثمان الكودة الذي كلف بمناقشته بسـؤال مباشر حول ما إذا كان يفهم من تحفظه عدم ممانعتـه في القيام بالدور المطلوب في ما إذا قام الحـزب بتأمين وضعه، رد قـائلاً: "إذا لم يجد الحزب زمـيلاً غيرى، والتزم بتأمينى، فأنا على استعداد للقيام بالعملية"[1].

وقـد أشار الكودة في مـذكراته، أيضـاً، الى أن اللجنة المكلفـة بخطة التـهريب والإشـراف على تنفـيـذها كانت قـد قررت عـدم مباشـرة أى من أعضائها لأى عـمل لا يضمن فيه الحـزب سلامة الزميل المنفـذ أو الزملاء الذين سيشـتركون معـه. وقد نقل شكاك هذا القرار إلى مركز الحزب الذي أمن، مـن جانبه، على وجهة نظر اللجنة.

●●●

---

(1) الكودة، الحزب...، سبق ذكره.

لم يمكث عبد الخالق طويلاً في منزل العقيد أبو شيبة. ولأن أم درمان لم تكن، في أى وقت، ضـمن الخيارات الحـزبية لاختـفائه، بسبب صعوبة تأمينه فـيها، كونها مدينته التي يعرفـه فيها الكبار والصغار، فقد ظل يتنقل، بعد مـغادرته منزل أبو شيبة، بين ثلاثة منازل أخرى كان الحـزب قد وفرها لتأمينـه في مدينتي الخرطوم والخـرطوم بحـرى. وعـلى الرغم من أنهـا لم تكـن تصلح تمامـاً لبـقائه فـيهـا أمداً طويلاً، في ظل تـلك الظروف، إلا أنه ظل يتنقل بينها حـسب تقدير هيـئة تأمينه، علـى أية حال، حتى مـساء 19 يوليو، حيث استقر أولاً في منزل بالخرطوم بحرى لبعض الوقت. لكن الكادر المسـئول عن تأمـينه مـا لبـث أن أعـاده إلى مـدينة الخرطوم ليستقر في منزل (م) لبعض الوقت أيضاً. ثم ما لبث أن حوله إلى منزل (ص) بالخرطوم/2، وهو المنزل الذي ظل مـختفيا فـيه حـتى وقوع انقـلاب 19 يوليـو، والذي واصل التردد عليـه واستـخدامه، بحـفاوة أصحـابه، خلال الأيام الثلاثة التـالية لذلك الانقلاب، بالإضافـة إلى منزل صديقيه حامد الانصـارى وزوجته سعاد إبراهيم احمد الذي غشـيه لبعض الوقت بعد موكب يوم 22 يوليو، ثم غادره، لآخر مرة، متـوجهاً إلى منزله بحى الشـهداء بأم درمان.

وثمـة روايتان مـختلفـتان في شـأن وصوله لأم درمـان، مما سنرى لاحـقـاً. لكن، في أى من الحـالتين، كانت تـلك هي اللحظة الفاصلة التي فقد فيها عـبد الخالق اتصاله المؤسسي بالحزب، مما كشفه للخطر، وأدى إلى اعتقاله المأساوى!

●●●

خلال فترة اختفائه التي أعقبت هروبه من معتقل الذخيرة، لم يكن عبد الخالق معزولاً عن الأحداث التي كانت تمور بها البلاد آنذاك، بل عاد، عنوة، إلى قلبها، يباشر مهامه القيادية، ويشرف على توجيه دفة الحزب.

كانت أياماً عصيبة مفتوحة على جميع الاحتمالات، وكل شئ متوقع الحدوث في أية لحظة. السلطة تجد في البحث عن الرجل، والحزب يجد في تأمينه، وإلى أن يقيض لأجهزة الأمن والاستخبارات المحلية والأجنبية أن تفلح في اعتقاله مجدداً، فإنها لا توفر جهداً في التضييق عليه، لشل قدراته قدر المستطاع، وللتقليل من تأثيره على مجريات الأمور.

ووفقاً لوثيقة التقييم المشار إليها، "فقد اجتمع مع بعض العسكريين الشيوعيين والديمقراطيين، واستمع لآرائهم وتقديراتهم حول إصرارهم على تنفيذ انقلاب.. بعد أن تأكد لهم تنكر نظام مايو للشعارات الديمقراطية التي.. أعلنها، وتوجهاته.. نحو الدولة الديكتاتورية ومصادرة الحريات.. إنتظمت صلته بقيادة الحزب، فتسلم بعض الرسائل من الأمانة العامة.. تلخص ما كانت تعالجه من قضايا لتضعه في صورة الأحداث وتقديرات الحزب. وقد رد عليها جميعاً.. كما دعا لعقد اجتماع للمكتب السياسي.. لمناقشة اقتراح العسكريين، ووجه بتحضير اجتماع آخر للجنة المركزية.. يُدعى إليه هاشم العطا لطرح وتوضيح وجهة نظر العسكريين.. وشرع في وضع نقاط أولية لوثيقة موجهات قيادية كأساس لتقرير سياسي.. يفضح توجهات السلطة، ويوضح موقف الحزب منها، ويطرح الموجهات.. التي تلبى رغبات الجماهير.. طلب مده

بالوثائق الحزبيــة التي صدرت بعد قرارات 16 نوفـمبر 1970م، والتقى بالشفيع.. وحـضر جزءاً من هذا اللقاء هاشم العطا. طلب مقابلة مع عدد آخر من قيـادات الحزب، منهم الجزولي.. التجاني.. شكاك. تلقى ملاحظات ومناقشات اجـتماع المكتب السياسي الذي عقـد بتاريخ 15/7/1971م، ورد علـيها بتـعليق مطول.. إقـترح تكوين لجنة.. لتـوفير الامكانـيات اللازمة لسكن وترحـيل الكادر المختـفي، ومراجعة تأمين الحــزب لمواجهة الظروف الصعـبة التي تزداد ضيقاً. تم ترتيب لقاء (آخر) له مع هاشم العطا، إلا أن هاشم تخلف عن الحضـور، ربما لأسباب سـتتضح فيـما بعد! لكن عـبد الخالق أصــر على اللقاء.. ثانـية.. للضغط أكـثر على العـسكريين لتأجـيل تحركهم. و.. حـدد لهذا اللقاء" مـساء 19 يوليو الســاعة الثامنة مساء" [1].

وعلى الرغم من اضطلاعه بكل تلك المهام، وهــو مختفي، إلا أن عبد الخالق كان ما يـزال يرغب في توسيع إمكانات حركته. فطلب الانتقال إلى منزل آخـر ييسر له العمل مباشـرة مع هيئات الحزب القيادية، كالسكرتارية العامــة والمكتب السياسـي، بدلاً من الاعتماد على كـادر (الصــلة). وكـان ذلك هو المنزل الذي انتـــقل إليــه من الخرطوم بـحرى. ومن هناك وجـه بالتحـضير لاجـتمـاع اللجنة المركزية.

أما أسرته فانهــا لم تلتقه طوال تلك الفترة، خـاصة أن زوجته نعمات مالك كانـت محل مراقبة لصيقة على مدار الـساعة تقريباً.

---

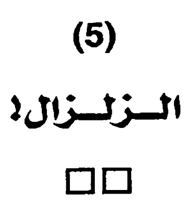
(1) الحزب الشيوعي؛ 19 يوليو..، سبق ذكره.

ولهـذا فإن الكادر المسـئول عن تـأمينه قـدر أن أية زيارة له ربما تعرضــه وتعرض الحـزب بالتالي لمخاطر جـمة، فاكـتفت نعـمات بالرسائل التي كانت تصلهـا منه. وفي الحقيقة فقـد كانت تصلها مثل تلك الرسائل حتى قبل هروبه من مصنع الذخيرة. كان يأتيها بها هاشـم المعطا بين الحين والآخر. وفي احداها ألمح، على نحو ما، إلى احتمال هروبه، وأن ثمة ترتيباً يجرى لأجل ذلك!

لكن،.وفي ما عـدا تلك الإشارة الخفية، لم تكـن لدى نعمات أى تفاصيل أخرى حول الموضوع[1].

□□□

(1) افـادة السيـدة نعـمـات أحمـد مـالك للكاتب عن طريق الهـاتف من امدرمان بالسودان في 15/8/2004.


(5)
الزلزال

لخصت وثيقة تقييم الحزب المشار إليها جدول أعمال عبد الخالق ليوم 19 يوليو عام 1971م على النحو الآتي:

1 ـ موعد للقاء كل من التيجانى الطيب والجزولى سعيد وعبد المجيد شكاك.

2 ـ موعد مع الشفيع احمد الشيخ للتشاور حول ما توصل إليه المكتب السياسي للحزب ورأى العسكريين.

3 ـ موعد اجتماع اللجنة المركزية في الثامنة مساء بحضور هاشم العطا.

●●●

خلال ساعات ما بعد ظهيرة ذلك اليوم كان سكان العاصمة يسايرون ناموس حياتهم المعتاد، حيث كانت السيارات الخاصة وسيارات التاكسى وحافلات شركة مواصلات العاصمة بلونها الأزرق، وعلامة رأس الفيل وخرطومه الملوى على صفحتيها، ما تزال تقل أغلبهم في طريق العودة من أماكن العمل، بينما البعض الآخر يتناول، أو قد تناول وجبة الغداء، ثم أخلد إلى غفوة (العصرية)، أو (ونسات) البيوت، أو لعب الورق، أو مطالعة الصحف اليومية والمجلات المصرية، أو متابعة برامج (أم درمان)

و(صـوت العـرب) و(البى بى سى)، أو تهـيـأ للخـروج لعـيـادة المرضى بالمسـتشفـيات، أو لممـارسة أو مـشاهدة كرة الـقدم في الاستادات الكبيرة، أو الميادين الفسيحة، أو (دافورى) كرة الشراب في أزقة الأحياء الشعبية، وما إلى ذلك.

في ذلك الوقت بالتحديد كان ثمة حدث مختلف تماماً يجرى في مكان مـا من العاصـمـة، ولن يلبث أن يدوى كـالزلزال، حين يتم الاعـلان عنه خلال السـاعات القليـلة القادمـة، ليثـير دهشـة كل السودانيين، وبالأخص لغرابة توقيته في ذلك الزمن!

وبالفعل، وقبيل موعد نشرة أخبار الثالثة ظهراً، قطعت إذاعة أم درمان، فجأة، بث برنامج تـفسير القرآن الشـهيـر الذي كان يقدمه الدكتور عبد الله الطيب في مثل ذلك الوقت من كل يوم، وبدأت في بث المارشـات العسكرية لفـتـرة، ثم ما لبث صـوت المذيع أحمـد سليمان ضو البيت أن أعلن أن الرائد هاشم العطا سوف يتلو بياناً هاماً بعد قليل.. فترقـبوه! وهكذا ظل هذا الاعلان يتكرر بين الفينة والأخرى، متـخللاً المارشات العسكرية التي ظلت تتـواصل لتدخل الناس في حيرة من أمر ما كان يجرى في تلك اللحظات! وسرعان مـا شـغلت التكهنات والتـوقـعات أحـاديثـهم وتحليـلاتهم، وقـد انصرفوا بكلياتهم إلى أجهزة الراديو، علاوة على أجهزة التلفزيون الذي بدأ إرساله أيضاً في ذلك الوقت.. على غير العادة!

لكن أغلب تلك التكهنـات لم تكن لتصـدق في تلك اللحظات، إلا بصعـوبة شديدة، أن اللواء جعفـر محمد نميـري قد أطيح به، وأن ذلك قد تم بمثل تلك السهولة العجيبة، وأن السلطة قد انتقلت فعلياً إلى يد مجمـوعة عسكرية أخرى داخل الجـيش، عن طريق انقلاب

جريئ تمَّ تنفـيذه بنجـاح مذهل، وفي ذلك التـوقيت الغـريب، كون الانقلابات تقـع في الفجر عـادة، وأن (مهندس) الانقـلاب وقائده، الذي كان المذيع مـا ينفك ينبه إلى بـيانه الذي سيـجرى بثـه بعد لحظات، هو الرائد هاشم الـعطا بالذات.. والذي يفـترض أنه كـان خاضعاً للمراقبة والمتابعة الاستخباريَّة اللصيقة منذ أن أقصى قبل ثمانية أشهر من مجلس قيادة الثورة مع المقدم بابكر النور والرائد فـاروق حمـد الله اللذين كانا، وقـتهـا، يستـشفـيان بالعـاصمـة البريطانية، ولكنهـما كانا في الواقع، وقبل مغـادرتهما إلى لندن، "على علم بأن هنـالك انقلاباً سـيـتم، وقـد استـقـر الرأى بأن لا يسـتبـقهُم هاشم بأى عـمل في هذا الاتجـاه. وكانت تلك كلمـات الوداع الآخيرة التي قالها بابكر لهاشم"[1]. ويروى المقدم معاش محـمد محجـوب أنه، وقبل ليلة واحدة من سفـره، هو الآخر، إلى خارج البـلاد، أوصله هاشم العطا بعربتـه إلى منزله. وفي شارع جانبى بـحى الملازمين بالقرب من المنزل لفت نظره قـول هاشـم له وهو يودعه: "أرجو أن لا تضطرنا الظروف للتـحرك في غيابكم.. ثم انطلق بسـيـارته في جوف الليـل. ولم يدر بخلدى أن ذلك هو آخر وداع مع ذلك الرجل الباسل النبيل"[2].

●●●

---

(1) رواية احمـد الحسين أحـد الضبـاط الشيـوعين في تنظيم الضـباط الأحرار وأحد المشاركين في تنفيذ انـقلاب 19 يوليو لعبد الماجد بوب في مـقـابلة أجـراها مـعـه في 7/يـونيـو 2001، رسـالة بالبـريد الالكترونى من بوب للكاتب بتاريخ.25 / 5/ 2001

(2) محمد محجوب؛ الجيش... سبق ذكره، ص70.

ولكن (اللحظات) التي كان المذيع ينوه فيها بأن بيان الرائد هاشم سوف يُبث (بعدها) تطاولت وتمددت، في الحقيقة، حتى تملكت الناس حالة غير محتملة من القلق والتوتر، قبل أن يأتى البيان بعد ذلك.. بساعات!

وإذا كان هاشم العطا لم يف بالتزامه بحضور اجتماع اللجنة المركزية الذي كانت الترتيبات قد جرت لعقده، سراً، في الثامنة من مساء ذلك اليوم، بغرض تداول اقتراح الانقلاب المرفوع إليها من العسكريين الشيوعيين والديموقراطيين في تنظيم الضباط الأحرار، فإن السبب يكمن ببساطة في أن الانقلاب كان قد وقع فعلاً قبل ذلك بساعات طوال، عصر ذلك اليوم. وكان عبد الخالق، فيما رأينا، قد نقل للمكتب السياسي عزم الضباط الأحرار على القيام بانقلاب، وحثهم على الاستماع لرأى الضباط الأحرار.

لم يؤيد الشفيع وبقية أعضاء المكتب السياسي فكرة الانقلاب، ولذا طلبوا الالتقاء بقادة الضباط الأحرار لإقناعهم بصرف النظر عن الفكرة في ذلك الوقت. وقد أكد هاشم لقادة الحزب بأنه لا يملك قوات عسكرية، وليس بيده شئ، واعداً بنقل رأى المكتب السياسي إلى الضباط المعنيين. وإلى ذلك أخلف هاشم أيضاً موعداً آخر كان محدداً له للقاء الشفيع نهار يوم 19 يوليو نفسه بمكتبه باتحاد العمال. ولم يكن ثمة سبب لنلك الاختلاف سوى أن هاشم كان في تلك الاثناء على رأس القوة التي تأهبت لاحتلال القيادة العامة!

هكذا وجد هاشم نفسه غارقاً، عملياً، في لجج مهام لا حصر لها! علاوة على أن السّيّاق المنطقى لتداعيات الوقائع والأحداث

اللاحقة سوف يؤكد صحة قراءة عبد الخالق وقتها، وقيادة الحزب في ما بعد، لطبيعة تفكير العسكريين الشيوعيين من حيث اعتقادهم بأن مهمتهم تنحصر فقط في إنجاح عملية الانقلاب، فنياً، حتى لو كان ذلك بطريق المفاجأة، ثم ترك الأمر كله، بعد ذلك، للحزب، دون تقدير دقيق لظرفه الذاتى، آنذاك، من ناحية قيود التأمين الصارمة، ومقتضيات العمل السرى التي تثقل النشاط بطبيعتها، وتشلُّ كثيراً من ديناميانه السياسية والحركية، ناهيك عن وجود عدد كبير من كوادره القيادية، قرابة العام، إما تحت الأرض أو في المعتقلات!

ولعل هذا ما يفسر اضطرار هاشم، ربما على غير ما كان يتوقع، لإهدار كل ذلك الوقت الثمين، خلال الساعات التي أعقبت نجاح العملية العسكرية من الناحية الفنية، سعياً لإيجاد صلة بعبد الخالق أو الشفيع أو نقد أو التيجانى أو أىّ من قادة الحزب الذين لم يكونوا مهيأين، تأمينياً، لمقابلته تحت تلك الظروف، إلا في المكان والموعد المحددين مساء ذلك اليوم، لمناقشة موقف الحزب من مقترح الانقلاب أصلاً، فإذا بهم يفاجأون بوقوعه فعلياً قبل ذلك بساعات، كما يفسر تأخير إذاعة (البيان الأول) الذي لم يكن مُعداً مسبقاً، مما ترك أثراً سلبياً على مجمل ما سمى، وقتها، (بالحركة التصحيحية)!

●●●

لم تكن ساعة الحائط الكبيرة في غرفة الاستقبال ببيت حامد الانصارى قد دقت، بعد، معلنة الثالثة بعد الظهر، عندما دلف إلى داخلها الرائد هاشم العطا، بكامل زيه العسكري، حيث استقبلته

سيدة المنزل سعاد إبراهيم احمد، الأستاذة الجامعية وعضو اللجنة المركزية للحزب التي كانت، وقتها، تحت الإقامة الجبرية ضمن إجراءات التحفظ الإداري التي طالت عشرات الشيوعيين والديمقراطيين في أعقاب قرارات 16 نوفمبر 1970م التي أقصت هاشم نفسه وزميليه بابكر وفاروق من مجلس الثورة ومن الجيش.

إندهشت سعاد، ولم تكن الإذاعة قد قطعت إرسالها بعد، لمرأى هاشم في ذلك الزى، فسألته بتعجب عما إذا كانت قد تمت اعادته إلى القوات المسلحة مرة أخرى! أخذ هاشم نفساً عميقاً، واتخذ مجلسه على أحد المقاعد بقربها، بعد أن خلع قبعته العسكرية (الكاب)، طالباً منها أن تدير جهاز التلفزيون لأن موضوع السلطة قد جرى حسمه قبل قليل بانقلاب عسكري تحت قيادته! ووسط دهشة سعاد طلب منها هاشم مساعدته في الاتصال بعبد الخالق، مشدداً على أن الوقت في غاية الضيق والحرج! ردت سعاد، وهي تدير مفاتيح الجهاز على عجل، بأنها لا تعرف مكان اختفاء عبد الخالق ولكنها ستحاول مساعدته!

غادر هاشم بعد ذلك، أمام أعين حراس سعاد الذين أدوا التحية العسكرية له عند دخوله وخروجه، والحيرة تعصف بهم، متوجهاً إلى (ميس الهبوب)، حيث يقيم بعض موظفي الخدمة المدنية وأساتذة الجامعة، وفيهم بعض الكادر الشيوعي، عساه يجد من يدله على مكان عبد الخالق أو أىّ من أعضاء المكتب السياسي أو اللجنة المركزية للحزب، علماً بأنه كان قد ذهب، مع بداية انطلاقة التحرك العسكري، يبحث عن الشفيع احمد الشيخ، القائد العمالى،

وأحد قدامى مؤسسي الحزب والحركة النقابية، وعضو اللجنة المركزية والمكتب السياسي، في مقره بالاتحاد العام لنقابات العمال، إلا أنه لم يجده.

إستدعت سعاد، بعد مغادرة هاشم مباشرة، مجموعة الحراسة العسكرية من خارج المنزل لأمر يهمهم! وما أن دخلوا إلى الصالون حتى أشارت إلى جهاز التلفزيون الذي كان قد بدأ في عزف المارشات العسكرية والتنويه (بالبيان الهام) الذي سيلقيه الرائد هاشم العطا.. (بعد لحظات)! وعلى حين كان الجنود يحدقون مذهولين طلبت منهم سعاد الرحيل بهدوء من منزلها وتركها وشأنها، فانصاعوا، بالفعل، وغادروا في صمت، دون أية مناقشة.. فقد رأوا الرائد هاشم، بأم أعينهم، في زيه العسكري (قبل لحظات)، بل وأدوا واجب التحية العسكرية له عند وصوله ومغادرته في سيارته العسكرية!

غيرت سعاد ثيابها على عجل، وخرجت مسرعة إلى المكان الذي كانت تعلم أن عبد الخالق يختفي فيه بمنطقة الخرطوم اثنين. وجدت معه هناك محمد إبراهيم نقد وهما عاكفان على صياغة بيان الحزب الجماهيري الشهير المؤيد للانقلاب، والذي صدر فيما بعد بعنوان (ذهب الزبد جفاءاً)! تداولت القيادية الشيوعية الأمر مع زميليها، وكان مما قاله لها عبد الخالق بنبرة من وجد نفسه أمام الأمر الواقع: "العسكريون يا سعاد يعتقدون بهذا أنهم قد أنجزوا ما عليهم، وأن على الحزب بعد ذلك أن يكمل الباقي!"[1].

---

(1) افادة سعاد للكاتب، سبق ذكرها.

أمام مدخل (ميس الهبوب) وجد هاشم بعض كوادر الحزب كالطيب أبو جديرى وعبد الله صالح وسيد عيسى الذين فوجئوا بوصوله، مثلما كانوا قد فوجئوا، قبل لحظات، بخبر الانقلاب نفسه! ووجد معهم أيضاً بعض أصدقاء الحزب، ومن بينهم غازى سليمان المفتش بوزارة المالية، آنذاك، والمحامى فيما بعد، الذي أظهر حماساً كبيراً لهاشم، وأصبح لصيقاً به، منذ تلك اللحظة وحتى انهيار الانقلاب، حيث هرب إلى أسمرا، ثم إلى موسكو وبراغ، قبل أن ينتهي به المطاف في عدن، ليعود منها، بعد بضع سنوات، إلى الخرطوم، فيكمل دراسة القانون ويفتتح مكتباً خاصاً للمحاماة.

طلب هاشم من أبو جديرى أن يرافقه في البحث عن عبد الخالق، بينما عرض غازى، متطوعاً، أن يسعى في البحث عن أىّ من قادة الحزب الآخرين.

أخذ أبو جديرى هاشم بعربته وانطلقا في بحث مضن عن عبد الخالق[1]. ويبدو أنهما نجحا بالفعل في العثور على مكان اختفائه والذي كان بالفعل متواجداً فيه، لكن صرامة كادر (التأمين) الحزبى، تحت تلك الظروف غير الطبيعية، حالت دون مقابلة العطا له، فاضطرا لمغادرة المكان!

في تلك الأثناء، ولما لم يكن لدى غازى أى علم بأى مكان يمكن أن يجد فيه نقد أو التجانى الطيب أو الجزولى سعيد أو السنجك أو سليمان حامد أو غيرهم، ممن أصبحوا شبه مختفين منذ

---

(1) افادة الطيب أبوجديرى المحامى للكاتب بشقته بمنطقة "ماربليون" بلندن في 2004/8/8.

قرارات 16 نوفمبر 1970م، فقد اتجـه مباشرة إلى منزل الشفيع بمنطقـة برى شرق الخرطوم، حـيث كانت لأسـرة غازى عـلاقات أمدرمـانية وثـيقة وقـديمة بأسـرة زوجة الشـفيع فـاطمة احـمد إبراهيم، عضو اللجنة المركزية للحزب، ورئيسة الأتحاد النسائى.

وصل غازى منزل الشفيع وفاطمـة بين الثالثة والرابعة عصراً، وأبلغ فاطمة التي استقبلته هناك بأنه يريد مقابلة الشفيع لأمر في غـاية الخطورة. استـوضحـته فـاطمة، منزعـجة، عن الموضـوع، فأجابها بأنه مبـعوث من هاشم العطا الذي يرغب في التحدث إلى الشفـيع في أمر عـاجل. طلبت منه فاطمـة الانتظار ريثمـا يخرج الشـفـيع من الحـمـام، ولكن غـازى ألـح في طلبـه وكـان بادى الاضطراب. ذهبت فـاطمة وطرقت باب الحمـام طالبة من الشـفيع الإسراع بالخروج للقـاء غازى بعد أن أوضحت له إلحـاحه. خرج الشفـيع متسـائلاً عن الأمر، فأخطره غـازى بأن هاشم العطا قاد انقلاباً عـسكرياً ناجحـاً بعد الظهـر، واستلم السلطة، وهو يـطلبه لمعاونته في صياغة بيان الانقلاب!

إندهش الشـفـيع، للوهـلة الأولى، وطلب من غـازى أن يعـيـد كلامـه. فأكد له غـازى ما قال. فـبدت دهشة الشـفيع، هذه المرة، مشـوبة بانزعاج واضح، وأخـذ يستـفسر غـازى عن علاقـته هو نفسه بالجيش، وبالانقلاب، وكيف علم به، وكيف استطاع الدخول للقيـادة العامة، وأين التـقى هاشم، وكيف نفذ هاشم انقـلابه قبل تحضـير بيانه، ولماذا اخـتاره هو بالذات، أى غازى، ليـرسله إليه، ولماذا يريده هو بالتحديد، أى الشفيع، لمعاونتـه في صياغة البيان، وما إلى ذلك من الأسئلة.

لكن، ولما لم تكن لدى غازى أية إجابات مقنعة، فقد طلب منه الشفيع بصرامة، وقد تملكته حالة من الغضب، إبلاغ هاشم بأنه، أى هاشم، يعرف، ولا بد، طرقاً أخرى أكثر انضباطاً للاتصال به!

خرج غازى وجلس على مقعد في ساحة المنزل مهموماً، بينما أطرق الشفيع مفكراً للحظات، قبل أن يرفع رأسه إلى فاطمة قائلاً، كمن يحادث نفسه:

ـ "غريبة! هو عارف كويس موقفي الشخصي ضد الانقلاب ده، وعارف كمان إننا دعينا لاجتماع للجنة المركزية الليلة عشان نتخذ قرار حول الموضوع"!،

وما لبث أن ساورته حالة الغضب، فاتجه نحو غازى قائلاً:

ـ "أمشى قول ليهو أنا ما عسكري عندك.. أنا قيادي مسئول في حزب سياسي"! ثم عاد يخاطب فاطمة بعد فترة من الصمت: "معقول يكون عملها من ورا ضهرنا؟! المفروض يكون مشارك في اجتماع اللجنة المركزية الليلة عشان يخت الحزب في الصورة من ناحية العسكريين وتفكيرهم والحاصل وسطهم شنو، لو فعلاً هو ومجموعته تحركوا يكونوا ركبونا في ضهر أسد، لو قعدنا فيهو حياكلنا.. ولو نزلنا منو برضو حياكلنا"! وكان الشفيع قد نقل لزوجته بالفعل في صبيحة ذلك اليوم موضوع اجتماع السابعة مساء، وجدول أعماله، ومشاركة هاشم العطا فيه لوضع اللجنة المركزية في صورة ما يجرى في أوساط العسكريين وتنظيم الضباط الأحرار الذين يضرون على إنجاز عملية عسكرية تصحح أوضاع السلطة في البلاد. وكانت فاطمة قد أعفيت من حضور ذلك الاجتماع لظروف وفاة والدتها وانشغالها بالمعزين الذين

مازالت جموعهم تتقاطر عليها لمواساتها بعدما عادت من رحلة علاج ببلغاريا ولم تكن بالبلاد عند الوفاة.

ما أن خرج غازى حتى وصل الهادى أحد الشيخ شقيق الشفيع وأوضح بأن هناك تحركات غير طبيعية في الشارع، خاصة في منطقة القيادة العامة، مما رجح صحة المعلومات التي نقلها غازى. ولم تمض بضع دقائق حتى بدأت الاذاعة في بث المارشات العسكرية![1].

نجح هاشم، بعد لأى، في الوصول إلى عبد الخالق، وبعد أن أهدر ساعات عزيزة ظل راديو وتلفزيون أم درمان، خلالها، يهيئان المستمعين والمشاهدين للبيان الأول، بينما الجماهير في حيرة من الأمر.. بعضها مسمر أمام الجهازين، وبعضها الآخر اندفع إلى الشوارع عله يجد فيها ما لم يجد فيهما مما من شأنه أن ينهي حيرته وقلقه، خاصة وأن التجول لم يكن محظوراً، على غير المعتاد عقب وقوع الانقلابات!

●●●

- "لماذا تعجلتم"؟!

وجه عبد الخالق هذا السؤال لهاشم غاضباً عندما التقاه.

- "وهل كان مفروضاً أن ننتظر حتى يعتقلوا زملاءنا واحداً واحداً"؟!

---

(1) إفادة فاطمه احمد إبراهيم للكاتب بمكاتب صحيفة (الفجر)بلندن فينوفمبر 1998م.

رد هاشم فوراً، فعلق عبد الخالق بأن مسئولية هاشم ومحجوب (طلقة) أن يقدما "لاجتماع اللجنة المركزية التقديرات والأسباب التي دفعتهم للاستعجال"[1].

لم تستغرق عملية قلب النظام، من الناحية العسكرية الفنية، سوى خمس وأربعين دقيقة، بما في ذلك اعتقال كل أعضاء مجلس قيادة مايو، وعلى رأسهم اللواء جعفر نميري نفسه، إضافة لكل القيادات العسكرية والمدنية الرئيسية للنظام! وقد ذكر الضابط أحمد الحسين في المقابلة التي أجراها معه (بوب) بأنه، ورغم إبعاده من القوات المسلحة، ظل على صلة مع خلايا الحزب في الجيش. وكان الملازم أحمد جبارة هو حلقة الوصل معه وآخرين خارج الخدمة. وكان من المقرر، حسب روايته، أن ينفذ الانقلاب في منتصف يونيو ولكنه تأجل بطلب من أبشيبة الذي أخطر عدداً من الضباط في تنظيم الضباط الأحرار بأن بإمكانهم السفر في بعثات تدريبية كانت مقررة سلفاً. وقد عُقد اجتماعان للتخطيط للانقلاب، الأول في السجانة بمنزل شقيقة عبدالمنعم محمد أحمد (الهاموش)، والاجتماع الثانى هيأ له الملازم عمر وقيع الله في منزل زوج أخته أحمد عبدالجليم، السفير السابق بمصر[2]!

وربما تكفي واقعة احتلال قوات الانقلاب لسلاح المظلات بمعسكر شمبات على الضفة الشرقية لنهر النيل بالخرطوم بحرى لإعطاء فكرة عن الاجواء التي لا تخلو من الارتباك، والتي جرى

(1) الحزب الشيوعي؛ 19 يوليو..، سبق ذكره.
(2) رواية احمد الحسين لبوب، سبق ذكرها.

من خلالها تنـفيذ حركة 19 يوليـو الجريئة. فمـا أن شرع النقيب مـعاوية عـبد الحى، الذي تم تعـيينه بعـد نجاح الانقـلاب عضـواً بمجلس قيادة الثـورة الجديد وأعدم بعد فشل الانقـلاب، في تنفيذ التكليـف الذي أوكل إليـه مع جنوده باحـتـلال ذلك السـلاح ذى السمعة المرعـبة، حتى فوجئ بالرقيب أول محمد عـثمان، وقوتهم قاب قوسين أو أدنى من المعسكر، يفجر له ما لم يكن ليتصوره أو يخطر له على بال، وهم تـقريبـاً على بعـد خطوات معـدودات من بوابة المعسكر:

- "سيادتك في موضوع مهم يمكن يعرقل علينا شويه"!

- "بأى خصوص"؟!

سأله النقيب معاوية وكل حواسه قـد استوفزت وتحفزت. فإذا بالرقيب أول يلقى بقنبلته: لقـد كان معظم جنودهم يحملون بنادق ماركة (أربـعة)، وهي من نوع البنادق الخاصة بطوابيـر الشرف، وأنه في غـمرة التـجهـيزات نـسـى أن يزودهم بالذخيـرة الحيـة، وبالتالى فإنهم يحملون بنادق خالية من الذخيرة!!

حدق النقيب معاوية منزعجـاً في أعين الرقيب أول وقد ألجمته المفاجأة، بينما مبانى معـسكر شمبات على مرمى حجر منهم! لكنه سرعان ما استجمع شـتات تفكيره، وأصدر أمره بمواصلة التحرك لتنفيذ العمليـة بالقلة من البنادق الجاهزة، على أن يستولى الجنود الذين يحملون بنادق خالية من الذخيرة على بنادق جنود المظلات.. إذ لم يكن هناك خيار آخر أو أية فسحة من الوقت!

وقد كان.. فـقد اقتحم جنود النقـيب معاوية، بالفعل، مـعسكر المظلات الرهيب ببنادق أكثرها مجرّد عصى غليظة! ولحسن حظهم

وجدوا جنود المظلات في وقت الاسترخاء وأسلحتهم مركوزة غير بعيد منهم! فما كان من جنود النقيب معاوية إلا أن (عمروا) بنادقهم الفارغة، بالمصطلح العسكري، محدثين قرقعة الاستعداد لإطلاق (النار!)، وفي ذات اللحظة جلجل صوت النقيب معاوية آمراً جنود المظلات بالاستسلام ورفع الأيادى مع التحرك خطوات للأمام! نفذ المظليون الأمر دون أدنى مقاومة! وهنا "أسرع جنود الحرس الجمهورى بإلقاء بنادقهم الخالية من الذخيرة والاستيلاء على أسلحة جنود المظلات من طراز كلاشينكوف"![1].

ويروى الملازم أول، وقتها، عبد العظيم عوض سرور، أحد الضباط الذين لعبوا أهم الأدوار في إنجاح تلك العملية، الطريقة التي جرت بها اعتقالات أعضاء مجلس الثورة بما فيهم نميري قائلاً: "كنت مكلفاً باعتقال كل من الرائدين أبو القاسم محمد إبراهيم ومامون عوض أبوزيد. وعند وصولى منزليهما لم أجد أياً منهما. وبسؤالى لحراس المنزلين علمت أنهما توجها إلى مسكن الرئيس النميري، فأسرعت بقوتى فوراً إلى هناك. وعند دخولى صالون المسكن وجدت أن زميلى الضابط أحمد جبارة الذي كان مكلفاً باعتقال اللواء النميري قد أنجز مهمة اعتقال الجميع، حيث كانوا قد ذهبوا في ذلك الوقت، بالمصادفة، لاستقبال الرائد زين العابدين محمد احمد عبد القادر بمطار الخرطوم لدى عودته من اجتماع بمصر، ثم توجهوا من المطار، مباشرة، إلى داخل غرفة نوم النميري الذي كانت زوجته بثينة خليل في رحلة استشفاء،

---

(1) طارق: 3 أيام.. سبق ذكره، ص42

آنذاك، بلندن. وهكذا ذهب أحـمد جبـارة ليصطاد النميـري وحده، فاصطـاد الجميع! وعنـد وصولي وجدت كـلاً من اللواء النمـيري والرائد أبو الـقـاسم هاشم والرائـد مـامـون أبو زيـد والرائد أبو القاسم محمد إبراهيم والرائد زين العابدين محمد احمد عبد القادر إضافـة إلى الوزير فـاروق أبو عيـسى يقفـون وأياديهم الى أعلى أمام أحمـد جبارة الذي كان يشـهر بندقيته نحـوهم، بينما جنوده يحيطـون بهم من كل جانب. إتفـقنا، أنا وأحمد، أن يتـولى كل منا اصطحاب بعضـهم بقوته. فتـوليت أنا أمر كل من النميري ومامون وزين العـابدين إلى مكان الاعتـقـال الذي تقرر أن يكون بإحـدى غـرف القـصـر الجمـهـوري. وفي الطريق طلـب مني الرائد زين العابدين أن أسمح له بأن ينزل يديه المرفوعتين إلى أعلى، فسمحت له بذلك لأنني لاحظت عليـه أثر الارهاق من السفـر. أما النمـيري فقد ألجـمته المفاجأة في مـا يبدو، فظل صامتـاً وقد بدا مضطرباً يتصـبب منه العرق! وسألني مـامون أبو زيد عمن قـام بالانقلاب فأجبتـه بأنه تنظيم الضباط الأحرار، فسألني بالتـحديد عن التيار المنفذ داخل التنظيم ومـا إذا كان يسارياً أم يمينياً، فنبهـته بقولي: (سعادتك مـن المفترض أنك تعلم أن تنظيم الضبـاط الأحرار ليس فيـه تيار يميني)! وهنا علق مـامون قـائلاً: (الحمد للـه)! بعد ذلك أحسنا معاملة جميع المعـتقلين في حدود القانون. وحدث أن الرائد مامون طلب مني أن أنقل للرائد هاشم رغبته في أن توفر له بعض الأدوية الخاصة (منومات)!، وبالفعل نقلت هذا الطلب للرائد هاشم الذي ابتـسم ولم يعلق بشئ. وفي الواقع فـان الرائد هاشم طاف

على منازل جميع الضباط المعتقلين وطمأن أسرهم وأولادهم على أوضاع ذويهم "[1].

في نفس الصدد يشير الفريق شرطة معاش قسم الخالق إبراهيم، والذي كان قد صدر قرار من قيادة 19 يوليو بتعيينه مديراً عاماً للشرطة، إلى أنه التقى بهاشم العطا بمكتبه يوم 20 يوليو، بعد اجراءات تعيينه مباشرة، حيث اتفقا على أن تؤول المسئولية المباشرة عن جميع المعتقلين السياسيين، عسكريين ومدنيين، إلى وزارة الداخلية، وأن ترفع كل الأجهزة الأخرى يدها عن هذا الأمر[2]، وذلك في وجهة تصحيح أخطاء نظام نميري المنهار.

غير أنه تجدر الإشارة هنا إلى أن السلطة الجديدة لانقلاب 19 يوليو سارعت بإطلاق سراح عضوية الحزب الشيوعي والقوى الديمقراطية المتحالفة معه فقط من سجون النميري، ولم تبادر لإطلاق سراح بقية المعتقلين من الأحزاب والقوى السياسية الأخرى، مما شكك لاحقاً في صدقية برنامج 19 يوليو المعلن حول الحريات العامة، والديمقراطية الكاملة، والغاء القوانين والقرارات السابقة المقيدة للحريات! وعلى الرغم مما أورد د. محمد سعيد القدال حول هذه القضية بالغة الحساسية بأن حركة هاشم العطا لم تعش طويلاً "حتى نحكم على ذلك الموقف ان كان طارئاً أم

(1) افادة الملازم أول معاش عبد العظيم عوض سرور للكاتب، تورنتو، كندا، 2005 .

(2) افادة اللواء معاش قسم الخالق إبراهيم للكاتب، هاتف، أمدرمان، 23ديسمبر 2004.

سياسة ثابتة "[1]، إلا أن التجانى الطيب سكرتير اللجنة المركزية للحزب إنتقد هذا الموقف علناً، في ما بعد، بقوله: "عندما وقع انقلاب 19 يوليو.. أيدنا اطلاق سراح الشيوعيين والديمقراطيين وسكتنا على الابقاء على غيرهم داخل السجون. وكان معنى ذلك أننا لم ندرك أن الديمقراطية لا تتجزأ، وكنا خاضعين للفكرة السائدة آنذاك، والتي رأت في الديمقراطية الليبرالية خطراً على الثورة الاجتماعية ومكتسباتها وأداة في يد الرجعية، وقد انتقدنا أنفسنا على ذلك الفهم القاصر، ومع أن أحزاب الجبهة الوطنية طالبت النظام المايوى بإطلاق سراح معتقليها مع التشديد على ضرورة التنكيل بالشيوعيين، إلا أن الحزب الشيوعي ثابر من بعد على المطالبة محلياً وعالمياً بإطلاق سراح جميع المعتقلين دون استثناء. ورغم أن عدداً من الأحزاب الشيوعية استنكرت ذلك.. لكن الشيوعيين أصروا على موقفهم حتى النهاية".

●●●

أخيراً جداً، وبعد نحو من ست ساعات من الترقب والقلق في أوساط المواطنين، خاصة في الأقاليم النائية عن مركز الأحداث في عاصمة البلاد، وفي ظروف انقطاع الاتصالات الهاتفية واللاسلكية ضمن الإجراءات الاحترازية التي قامت بتا قوات الانقلاب، جاء صوت الرائد هاشم العطا عبر المذياع، كما ظهر على شاشات التلفزيون، بادي الاضطراب، شديد الارهاق، وهو يلقى بيان الانقلاب الأول!

---

(1) القدال؛ كوبر..،سبق ذكره،ص22.

كان أبرز مـا ورد في البيـان نعيـه على السطة (المبـادة) أنها شوهت مضامين ثورة أكتـوبر، والشعارات الديمقراطية، وبدلاً من الحريات السياسية جاءت بالجاسوسية والارهاب، ودفعت بالبلاد على طريق إضاعة الاستقلال والسـيادة الوطنية، كما وأنها جردت الوزراء من صلاحياتهم، وأن رئيس المجلسين أصبح ينفرد باتخاذ أخطر القرارات، مـتأرجحاً من أقـصى اليمين إلى أقصى اليـسار، حتى انحدر الوضع إلى ديكتاتورية سافـرة، وأنها كانت قد وعدت بتوفيـر الفائض اللازم لخطة التنميـة، فاحتمل الشعـب، في سبيل ذلك، ارتفـاع الضـرائب والغـلاء، لكنهـا تنكرت لذلك فـزادت من تكاليف جـهاز أمن الدولة لحمـاية النظام والتمـهيد للديـكتاتورية الرئاسيـة، كما تراجـعت عما كـانت قد أعلنت من إصـلاح للجيش فاعـتمـدت، بدلاً من ذلك، على الشلليـة والمحسـوبية والـترقـيات الاستثنائيـة، بل والأخطر أنها عمدت إلى نشر الفـرقة بين الجيش والشعب. ثم اختتم الرائد هاشم بيـانه مبشراً: "يا أهل السودان.. إستقبلوا أيامكم القادمة بالبشر والفرحة"![1].

كانت أبرز القرارات التي اتخذتها حركة 19 يوليو خلال الأيام الثلاثة القصيرة من عمرهـا إلغاء الأوامر الجمهورية الصادرة عن نظام مايو من الأول إلى الرابـع، وتدشين برنامج الجبهـة الوطنية الديمقراطـية وسلطتهـا بفصـائلها التـاريخيـة مجتـمعـة، وإعادة الشرعية للمنظمات الشعبـية والجماهيرية التي كان النظام السابق قـد أقدم على حلهـا، والتـعهـد بتأسـيس نظام سـياسي يشـرك

(1) موقع sudaneseonline.com

الجماهـير في كل القضايا كـبيرها وصغـيرها، وأن تكون السلطة ممثلة في تـنظيـمـات الجـمـاهيـر، وأن تكون الـديمقـراطيـة هي الديمقراطـية التي يبتـدعهـا الشعب، وإلى ذلك حل جـهازي الأمن القـومي والرقابة العـامة، وتـأكيـد استـقلال القـضـاء، والالتـزام بمراجـعـة كل أخطاء النظام داخل القـوات المسلـحة وخـارجـهـا، والتعـهد بالسيـر على طريق الثورة الصناعـية والزراعيـة وانجاز خطط التنمية.

وفي اجتماعه، لاحقاً، مـع وكلاء الوزارات وكبار رجال الخدمة المدنيـة بمقـر رئاسـة الوزراء، قـدم الرائـد هاشم العطا شـرحـاً للظروف والأسباب التي حدت بتنظيم الضباط الأحرار إلى التحرك لتصحيح الأوضـاع السياسية، فأشـار إلى أن سلطة مايو تحولت إلى ديكتـاتورية، موضحـاً أن "ما تم في 25 مـايو 1969م وجد الدعم الكامل من الشعب.. والجيش نتيجةً لما جاء في البيانات التي أعلنتهـا السلطة في ذلك اليوم، ولكن سرعـان ما بدأ تحريفـه بعد أسـبـوعين فقط.. وفـي مقـدمـة ذلك تنكرت تلك السلـطة لتنظيم الضبـاط الأحرار الذي وجهت اليه أولى ضـرباتها نتيجـة لتدخل بعض العناصر الأجنبية، ومن ثم عزلت.. نفسـها عن العناصر التي كانت لها القدرة على التصـحيح وعلى الحوار والنقد البانى وعلى كشف الأخطاء، ونتيجة لذلك انزلقت تلك السلطة في مهاوى التنكر لمبادئ الثورة، وبدأت فعلاً في تصفية تنظيم الضباط الأحرار، فلم يجد الضباط الأحرار سبيلاً أمامهم لتصحيح الأخطاء ـ وقد أغلقت أمامهم كل المنافذ ـ غيـر الاستيلاء الكامل على السلطة.. ان العزلة التي عـاشت فيـهـا تلك السلطة المبـادة، ثم الاتجاه الاسـتبـدادي

والسلوك الفردي الذي صاحـبها، كانا بداية لديكتـاتورية لا مجال فيها للعمل الديمقراطي.. بل كانت.. ستصبح ديكتاتورية كاملة بعد استكمال التنظيم السياســي الذي كانت تعمل لإنشائه.. ان المقارنة البسيطة الواضحة بين.. البيـانات التي أصدرتها السلطة في أيامها الأولى وبين ما فـعلته توضح القضـايا الأساسيـة.. التي انحرفت عنها، ممـا أدى إلى حالة من الكرب والتـعاسة شـملت كل الناس، وأولى القـضــايا التي أهملتــهـا السلطة الســابقــة كـانت خطة التنمية "[1].

وجد الانقلاب ترحيـباً كبيراً وواضحاً مـن قطاعات واسعة من الجمـاهير المهنية والعـمالية والـفئوية، كـما أيدته معظم القـيادات والوحدات العسكرية بالعاصمة والاقـاليم، والتي تقاطرت برقياتها مهنئـة وداعمة للتـوجه الجديـد، حيث أبرق قائد وضـباط وصف وجنود القيـادة الغربية مـباركين "تعيين الرائد هـاشم العطا قائداً للقوات المسلحة"، وأبرقت حامية يامبيو مؤكدة بقولها: "هكذا كنا نتوقع من الـرجال الأبطال"، وخاطبت حـامية الجـزيرة أبا الرائد هاشم العطا قـائلة: "نبارك خطواتكم الثـورية لانقاذ الـسودان من التخبط"، وكذلك أبرقت كل من (طبنجية) عطبرة وقوات ياى، كما أبرق الملحق العـسكري بالقاهرة، وسـلاح الموسيـقى بأمـدرمان، وقـوات النصر بالشـرق الأوسط التي قـالت في برقيـتهـا للرائد هاشم العطا "الآن حصـحص الحق، واندكت قـلاع الظلم والطغيان والعبث بمصيـر البلاد، حسمتم الأمر بعـد أن أصاب الناس اليأس

---

(1) صحيفة القوات المسلحة، 21 يوليو 1971م.

وظلوا يرغبون في الخلاص"[1]. وحسب الوثائق البريطانية فان السفير الفرنسي الذي كان بجوبا بجنوب السودان عند وقوع الانقلاب عاد بعد يومين وأفاد بأن "الجيش الكبير في الجنوب يبدو قد قبل بالانقلاب كمشيئة من الله، ولايبدو رجاله على طريق اتخاذ أى تدابير لمقاومة الانقلاب، ويبدو أن هاشم العطا على سيطرة كاملة على الامور"[2]. أما القائم بالاعمال في السفارة البريطانية فقد أبرق لوزير خارجيته موضحاً بعض أسباب الانقلاب حسب وجهة نظر القادة الجدد، مشيراً الى أن نميري قد تحول بصورة متزايدة إلى طاغية، وأصبح ينفرد باتخاذ القرارات وحده دون مشورة تنظيم الضباط الأحرار الذين كانوا خلف نجاح 25 مايو نفسها، "وعلى كل حال من النادر أن يكون النظام الجديد أسوأ من القديم. أنا عن نفسى أشعر وأشارك شعور الارتياح، فجميعنا ممن عاشوا هنا (نشعر بأن القادة الجدد) وصلوا بسرعة الى احترام وحب الشعب السوداني، وهم في حاجة لقيادة متماسكة وإدارة واعية، وقد شعرت أن نظاماً شيوعياً واقعياً وموجهاً بذكاء يملك فرصاً أكبر لتحقيق ذلك عن أى بديل في الأفق.. عرفت أن بابكر النور رجل معقول ومتحضر، يبدو من المشروع أن نأمل أن يتطور النظام بمرور الوقت ليحذو الخطوط اليوغسلافية أكثر من اتجاهه ليصبح مستعمرة سوفيتية، أما بالنسبة للعلاقات السودانية ـ البريطانية فقد لا نتفق مع طرق وأهداف النظم الشيوعية، وعلينا أن نكون قادرين

(1) المصدر السابق، أنظر أيضاً 3أيام هزت العالم،ص 46.

(2) حسن ساتى؛ إنقلاب 1971م الشيوعي بالسودان، مجلة المجلة، العدد/ 1232 .

على امتلاك تبادلات صديقة ومعقولة معه "[1].

●●●

عندما كان الرائد هاشم يتلو بيانه في التلفزيون، كان الشفيع جالساً يستمع إليه باهتمام مع زوجته فاطمة وشقيقيه منصور والهادى، في المسكن الذي كان يستأجره الشقيقان بالشارع رقم (1) بمنطقة العمارات بالخرطوم، والذي كان الشفيع قد انتقل إليه بأسرته من منزلهم ببرى بعد مغادرة غازى سليمان مباشرة.

وعندما وصل هاشم إلى الفقرة التي يؤكد فيها أن كل شئ قد تم خلال 45 دقيقة، علق الشفيع قائلاً: ".. شوف ده بيقول شنو! 45 دقيقة كل شئ قد تم.. وبعد ذلك يحملونا مسؤولية العمل الطويل والصعب، 45 سنة ما بنقدر نحل مشاكل البلد "![2].

وبعد نهاية البيان سأله الهادى عن رأيه فيه، فرد الشفيع بقوله: "بصراحة.. بعض التعابير بتاعت عبد الخالق"! وأشار، تحديداً، إلى عبارة (القبض على الهواء)! وعندما خرجا معاً بعربة الهادى، في العاشرة مساء، ليريا ما كان يجرى في الشوارع التي لم يحظر فيها التجوال، قال الشفيع للهادى: "سألنى عبد الخالق مرة عن رأيى في الانقلابات، فقلت له لا إنت ولا أنا ولا اللجنة المركزية نقدر نعمل انقلاب"! ثم ما لبث أن أردف قائلاً: "أنا خايف يكون عبد الخالق حقن هؤلاء الشباب بحقن استعجال"![3].

●●●

---

(1) المصدر السابق.

(2) فاطمة احمد إبراهيم والهادى احمد الشيخ؛ حوار صحفي، جريدة الصحافة 2004م.

(3) المصدر السابق.

في مساء ذلك اليوم، وبعد الاعلان عن الانقلاب مباشرة، شارك عبد الخالق في الاجتماع الطارئ للجنة المركزية، لأول مرة بعد غياب طويل بدأ باعتقاله ثم هروبه واختفائه. تمخض الاجتماع عن إقرار بيان جماهيرى يؤيد الانقلاب، وخطاب داخلى لأعضاء الحزب يوجههم بالتعبئة حول تأييد السلطة الجديدة. ولأن الرائد هاشم طلب المساعدة في صياغة أوامر جمهورية جديدة فقد "كلف عبد الخالق جوزيف قرنق بهذه المهمة، فتساءل جوزيف عن تصور العسكريين لهياكل وأجهزة السلطة وصلاحياتها.. الخ. وكان هاشم قد أوضح أن رأيهم قد استقر على اختيار مجلس الوزراء بالتشاور مع الهيئات والمنظمات الجماهيرية والديمقراطية.. وأنهم قد أعلنوا ذلك للجنود والضباط الذين نفذوا الانقلاب، وكان تكوين مجلس الثورة قد خضع للتشاور معهم"[1].

في تلك الأثناء كان منزل (ص.أ) بالخرطوم/2 قد تحول عملياً إلى ما يشبه خلية النحل، كون اللجنة المركزية اتخذته مقراً لها. فشهد المكان صياغة الأوامر الجمهورية الجديدة بواسطة لجنة مصغرة اقترح جوزيف قرنق، عضو اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، تشكيلها من بعض رجال القانون لمعاونته، حيث عكف على ذلك العمل كل من صلاح حسن، قاضى المحكمة العليا الذي سبق أن أصدر الحكم لصالح الحزب في الطعن الدستورى ضد قرار حله عام 1965م، والطيب أبو جديرى المحامى، إضافة إلى جوزيف نفسه. "وكان عبد الخالق قد اقترح في اجتماع اللجنة

---

(1) الحزب الشيوعي؛ 19 يوليو..، سبق ذكره.

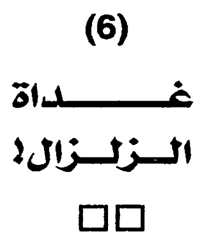
المركزية ترك المسائل العسكرية للتنظيم العسكري.. والتركيز على دور الحزب في الجبهة السياسية والجماهيرية"(1).

وفي أول مساء ذلك اليوم شوهد عبد الخالق بمدينة الخرطوم بحرى، وقد توقف لتحية هاشم بامكار، أحد قيادات البجا والنائب في الجمعية التأسيسية قبل مايو 1969م، عندما صادفه بالقرب من صيدلية الملتقى. واعتذر له بأنه لا يستطيع أن يبقى معه طويلاً، وربما سيعود اليه فيما بعد، لأنه في طريقه لزيارة قريب الله الأنصارى بحى الصافية (كان قريب الله، وقتها، خارج البلاد)! كما توقف أيضاً لتحية صلاح الزملا، أحد الكوادر الشيوعية الشابة التي انقسمت مع مجموعة معاوية سورج وأحمد سليمان!

في العاشرة مساءً التقى عبد الخالق، في منزل الخرطوم/2، بالشفيع ومعه حسن قسم السيد، الكادر القيادى بنقابة موظفي البريد والبرق، ومن هناك توجهوا جميعاً، عند منتصف الليل، إلى منزل منصور والهادى أحمد الشيخ بالعمارات. ورغم أن عبد الخالق كان بادى الاعياء، إلا أنه طلب أن يلتقى بالحاج عبد الرحمن، القيادى العمالى البارز، ونائب الحزب سابقاً بالجمعية التأسيسية عن دائرة عطبرة، وعضو اللجنة المركزية الذي خرج في الانقسام، فتولى د. الهادى مهمة إحضاره، حيث اجتمع به عبد الخالق مطولاً، ومن ثم غادر عبد الخالق إلى منزله بحى الشهداء بأمدرمان في الساعات الأولى من فجر اليوم التالى العشرين من يوليو 1971م.

□□□

(1) المصدر السابق.



(6)

غداة الزلزال!

□□

كان الوقت حوالى الثالثة من فجر اليوم العشرين من يوليو 1971م عندما عرج عبد الخالق، في طريقه إلى أم درمان من منطقة العمارات، على منزل صديقه حامد الأنصارى بالخرطوم/ 1، حيث التقى بالعريف عثمان عبد القادر الذي كان حسن قطان قد أعاده من الدويم، وكانت تلك هي المرة الأولى التي يلتقيان فيها بعد هروبهما معاً من مصنع الذخيرة.

ويروى عثمان عن ذلك اللقاء أن عبد الخالق قال له، بعد التحية والسلام والسؤال عن الأحوال إن ما قمت به سيكسبك أعداء أشد عداوة لك مما تتخيل، ".. وعرض على السفر إلى روسيا لأقرأ هناك، فاعترضت بدعوى أننى أرغب في السفر الى ألمانيا لمواصلة دراستى، خاصة أننى أعرف قليلاً من اللغة الألمانية، ويمكن أن يساعدنى هذا في وقت لا أعرف فيه شيئاً عن اللغة الروسية، فقاطعنى بأن مسألة اللغة هذه مسألة سهلة، ووجه محجوب إبراهيم باستخراج جواز جديد بدل جوازى العسكري لأغادر الى روسيا في أول طائرة متوجهة الى هناك" [1].

●●●

(1) جريدة الصحافة،سبق ذكره.

واضح أن الوضع التـأميني لعـبد الخـالق قد تغـير، نسـبياً، بانتصـار حركة 19 يوليـو وتوليها زمـام الامور في البلاد، فـقد فضل العودة لأمدرمان لمزاولة حياته العادية في بيته، ومع زوجته وطفليه عـمرو ومعـز. وتشير نعـمات مالـك إلى أنه، ورغم ما بدا عليه من نشاط وحيوية وروح مـعنوية عالية، إلا أنها لاحظت عليه أيضاً عـلامات الارهاق والمرض، مما أقلقها على نحـو خاص. لكنه لم يخلد للنوم لأكـثـر من ساعـتين أو ثلاث، حـيث استـيـقظ منذ الصـباح البـاكر ليـسـتقـبل جمـوع المهنئين من أعـضاء الحـزب وأصدقائه ومؤيديه وجيران الأسرة، وحـتى شخصيات لا تربطها أدنى صلة بالحـزب أو فكـره أو خطه السـيـاسـي، بل ربما كـانت تختلف مـعه تماماً، ولكن تربطهـا صداقة إنسـانية بحتة مع عـبد الخالق نفسه الذي عرف دائماً بمثل هذه العلاقات الواسعة.

وثمة طرفـة متداولة بين الشيـوعيين والديموقراطيين وغـيرهم حول هذا الأمر رواها محـمد سعيد القدال، ضـمن ذكرياته بسـجن كوبر، حـيث كان معـهم، ضمن المئات الذين جـرى اعتقـالهم بعد هزيمة 19 يوليو، كـل من حسب الرسول عـرابى وصلاح محـمد نور الدين وادريس المهنـدس، وقد اشـتـهـر ثلاثتـهم (بجمـاعـة القنطرة). أمـا سبب التـسمـيـة فيـعود إلى أنهم، ومع كـونهم لا تربطهم صلة بالحزب أو الانقلاب، أصدقاء حمـيمون لعبد الخالق، وقد سجلوا زيارة لـمنزله صباح اليوم الثالث، 22 يـوليو، حيث أن جـمـوع المهنئين لم تنقطع في الـواقع، لحظة، طوال الأيام الثـلاثة التي هي عمر الانقلاب. لكن الأصدقاء الثلاثة، عندما لم يجدوا عبد الخـالق، "كتـبوا له مـذكـرة قالوا فـيهـا (نحن قنطرناها وأنتـو

شتوها)! أى نحن هيأنا الوضع السياسي لاستلام السلطة وأنتم قطفتم الثمار سهلة. وأمهروا المذكرة بإمضاءاتهم. ولم تكن المذكرة أكثر من دعابة عكست روح حسب الرسول المرحة.. وفي عصر نفس اليوم وقعت الواقعة و إنهزمت حركة هاشم العطا. وعندما قام رجال الأمن بتفتيش منزل عبد الخالق أخذوا كمية من الاوراق منها مذكرة القنطرة وبعد أيام تم اعتقال الفرسان الثلاثة أصحاب (القنطرة) وكانت (القنطرة) الموضوع الأساسى في التحقيق معهم، كما كانت موضوع تندر حتى من حسب الرسول وصاحبيه! " [1].

●●●

على أننا ما نزال في يوم 20 يوليو، وكان عبد الخالق قد طلب في صبيحته مقابلة أركان السفارة العراقية بالخرطوم، وبالفعل تم له ما أراد، حيث حضر اللقاء اللواء معاش سعيد كسباوى مرافقاً لعبد الخالق، وكان مما جاء في الحوار:

" عبدالخالق: أرصدة السودان لاتتجاوز ال 140 ألف دولار، ونحن نحتاج لخمسة ملايين كدعم عاجل لتغطية الاحتياجات الضرورية للبلاد..

العراقيون: ولماذا لاتطلبون ذلك من الاتحاد السوفيتى؟!

عبد الخالق :السوفيت ضدى، وإذا وجدوا طريقة لتصفيتى والتخلص منى لن يترددوا..

العراقيون : ثم؟

---

(1) القدال؛ كوبر، سبق ذكره، ص30.

عبدالخالق: نرجو حضور وفد شعبى ورسمى من العراق للاشتراك في موكب الخميس، إعلاناً للتأييد والمساندة لحركة 19 يوليو التصحيحية..

وثالثاً: نرجو أن توافق القيادة القومية لحزب البعث على تعيين محمد سليمان الخليفة وزيراً للتربية والتعليم في حكومة 19 يوليو" [1].

في ما شككت سعاد إبراهيم احمد في الجزئية المتعلقة بطلب الدعم المالى لخزينة الدولة متسائلة: "وما شأن عبد الخالق بخزينة الدولة حتى يسعى لدعمها بتلك الصورة"؟![2]. لكن محمد إبراهيم نقد أكد، من جانبه، صحة الواقعة بمثل ما وردت ضمن الرواية أعلاه[3].

كانت القيادة العراقية قد بعثت، أصلاً، ببرقية تأييد لانقلاب هاشم العطا بعد نجاحه، وكانت أول دولة في المنطقة تعترف بالوضع الجديد في السودان، بل وقد بادرت بإرسال وفد عالى المستوى من القيادة القومية لحزب البعث العربى الاشتراكى برئاسة محمد سليمان عبدالله التعايشى، عضو القيادة القومية، على طائرة خاصة تمت ترتيبات الاذن لها بالهبوط في مطار

---

(1) شوقى ملاسى: أوراق سودانية، مشاهدات وشهادات، تحرير وتقديم محمد سيد احمد عتيق، دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم 2004م، ص 162- كذلك افادته للكاتب بوايت ليز بمنطقة كوينزويبلندن في 3/4/2004م.

(2) افادة سعاد للكاتب، سبق ذكره.

(3) افادة نقد للكاتب، سبق ذكره.

الخرطوم الذي كان مقفلاً أمام حركة الملاحة الجوية. ولكن تلك الطائرة لم تصل أبداً، حيث سقطت على الأراضى السعودية في صبيحة 22 يوليو، بالقرب من جدة، في ظروف وملابسات ما زال الغموض يكتنفها حتى الآن، وقد لقى جميع ركابها حتفهم، بمن فيهم التعايشى نفسه، ولم ينج منهم سوى راكب واحد هو سمير نجم الذي تم تعيينه فيما بعد سفيراً للعراق بالقاهرة لمرتين!

●●●

أضحى منزل الخرطوم/2 الذي اتخذته اللجنة المركزية مقراً لها، معروفاً، في ما يبدو، ليس فقط لدى الكثيرين من مؤيدى الحركة، بل ولدى غيرهم من المتطفلين وهواة (الخبارات)! كما أضحى، في ما يبدو أيضاً، محل رصد لكثير من الأعين الأمنية (المايوية) المبثوثة، ممن لم يتم التحفظ عليهم بعد (!) كما وللكثير من الأعين الاستخباراتية الأجنبية! وفي ظل ذلك الظرف الذي هو أبعد ما يكون عن اليقظة والحذر اللذين ينبغى أن يسودا عادة في الأيام بل الأشهر الأولى لأى انقلاب عسكرى لم تتوطد دعائم سلطته بعد، بدأت تترى بلاغات عديدة لقادة الانقلاب عن تحركات تتم في الخفاء لتنظيم انقلاب مضاد! بل وما لبثت مجالس الخرطوم أن أخذت تلوك الحديث عن ذلك الانقلاب المضاد لدرجة أنه ما كاد يحل مساء 21 يوليو حتى كانت (كلمة سره)، وهي (العرس)، مشاعة في كل الأفواه![1] لذلك استقر تفكير عبد الخالق

(1) القدال؛ معالم...، سبق ذكره، ص302 .

على الانتقال إلى مكان آخر أكثر أمناً، فبعث، في الحال، يطلب صديقه رجل الاعمال محمد نور السيد.

كان نور قد أطلق سراحه صبيحة ذلك اليوم من سجن كوبر، ضمن العشرات من أعضاء الحزب والديمقراطيين الذين ظلوا رهن الاعتقال هناك منذ 16 نوفمبر 1970م. وفي العاشرة صباحاً جاءه من يبلغه بأن عبد الخالق يريد لقاءه عاجلاً، ولأمر في غاية الأهمية، فخف من فوره إلى منزل (ص.أ)، بصحبة د. مصطفي خوجلى الذي رافقه لتحية عبد الخالق. وفي صالون المنزل وجداه جالساً إلى طاولة يراجع بعض الأوراق، بينما المكان يغص بأعداد من البشر!

وبعد تحايا سريعة، همس عبد الخالق لنور بما يريد. فطلب منه نور أن يوافيه صباح اليوم التالى إلى منزل عمه. وبالفعل كان نور، ومعه المهندس (ع.ح.أ)، في انتظار عبد الخالق في المكان والزمان المحددين، ليأخذاه، حسب الاتفاق، إلى منزل تم ترتيبه له منذ الليلة السابقه بمنطقة ما بالخرطوم. غير أن عبد الخالق تخلف عن الحضور لسبب ما، فذهب نور يبحث عنه في كل مكان! وانتهي به المطاف إلى منزله بأمدرمان، حيث علم أن عبد الخالق خرج قبل دقائق بصحبة كل من الرشيد الطاهر بكر وسر الختم الخليفة![1].

●●●

---

(1) افادة محمد نور السيد للكاتب عن طريق الهاتف من كوبنهاجن في 2002م.

في العاشرة صباحاً قابل عبد الخالق طبيباً سوفيتياً. وبعد إجراء الفحوصات الطبية اللازمة طلب منه الطبيب الروسى اجراء رسم للقلب وموافاته بالنتيجة في أقصر وقت ممكن. فتم تحديد مواعيد له مع د. أبوبكر محمد الامين في التاسعة من مساء نفس اليوم بمستشفي الخرطوم.

كان الاعياء والشحوب قد بدءا يظهران بوضوح على قسمات عبد الخالق. وفي الحقيقة فإن الأطباء من أعضاء الحزب، الذين فحصوا حالته الصحية أثناء فترة اختفائه التي أعقبت هروبه مباشرة من سلاح الذخيرة، كانوا قد نصحوا بضرورة أن يلزم الراحة لبعض الوقت، حيث أن بوادر ذبحة قلبية تلوح وربما ستداهمه على حين غرة!

في المساء أخذه د. الهادى أحمد الشيخ بعربته إلى مواعيد الطبيب بمستشفي الخرطوم. وفي الطريق ذكر عبد الخالق للهادى أنه في واقع الأمر ظلّ يقرأ ويقرأ، طوال حياته، دون أن يعطى نفسه فرصة للتأمل ".. ولكن بحرمانى من القراءة وجدت أننا نصعب الحكاية على أنفسنا جداً في مسألة الحكم.. نظريات وأفكار وقوانين.. ولكنى وجدته أبسط مما نتصور! فإذا كان عبود (الأهبل) حكم السودان 6 سنوات، وكمان نميري الأكثر (هبالة) حكم سنتين، ما الذي يمنع ناس هاشم العطا يحكموا"؟! وبعد أن تم إجراء رسم القلب سأله دكتور أبوبكر عن الانقلاب، فرد عليه عبد الخالق بقوله: "والله الجماعة حاسبنها طلقة.. طلقة!"[1] وحول هذا الأمر تؤكد سعاد إبراهيم احمد أن عبد الخالق كان في

---

(1) فاطمة والهادى، حوار صحفي،سبق ذكره.

تلك الأيام "مهموما بالفعل بوضع الجيش، وكان دائم السؤال عن نسبة انحيازه، وكانت كل الدلائل تشير إلى أن الوضع في القوات المسلحة إيجابى، ولم يدر بخلد أحد خطورة الثغرات المتعددة التي لازمت تنفيذ عملية الانقلاب، وأدت الى ما أدت إليه فيما بعد!" (1).

كان المكتب السياسي للحزب قد أثار للعسكريين، عندما طرحوا فكرة القيام بحركة تصحيحية، عدداً من القضايا، وطلب رأيهم فيها وتقديراتهم حولها، بغرض وضعها أمام اجتماع اللجنة المركزية لكي تتخذ قرارها بشأن القيام بالعملية العسكرية. وكان على رأس تلك القضايا أجهزة الأمن، الاستخبارات، احتمال تدخل دول ميثاق طرابلس (مصر وليبيا)، كاحتمال لا يجوز استبعاده، إحتمال التدخل الأجنبى عن طريق أثيوبيا، الوضع في سلاح المظلات، والذي لا يمكن الاطمئنان إليه، الوضع في البوليس، والذي يحتاج لتقدير دقيق، وكذلك وضع الحرس الوطنى، والقوات الخاصة التي كان مجلس الثورة قد شرع في تنظيمها، وإلى ذلك تقدير الوضع وسط الجنود، وحجم نيران قوات الانقلاب، والقوات المضادة، وهل يبقى بابكر النور وفاروق حمد الله في الخارج، أم يعودان للمشاركة.. الخ!

وقد أبرز الحزب الشيوعي في بيان جماهيرى له بمناسبة مرور ذكرى 19 يوليو عام 1988م عدداً من الثغرات التي أدت الى هزيمة الحركة، موضحاً أن اللجنة المركزية للحزب حينما كانت في الواقع تتعامل مع الانقلاب من خارجه وبعد وقوعه، فان جملة

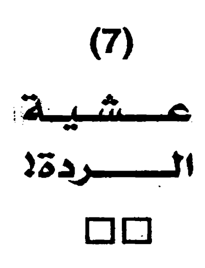
---

(1) افادة سعاد للكاتب، سبق ذكرها.

من الاجراءات الصارمة لحماية الانقلاب لم توضع في مستواها المطلوب سياسياً وعسكرياً، فلم تتكون قيادة عسكرية سياسية أشبه بهيئة الأركان لتتابع ساعة بساعة تطورات الموقف في الشارع والجيش، ومراجعة تنفيذ خطة برنامج عمل محدد بدقة، لتقييم أثر كل خطوة يتم تنفيذها والاعداد للخطوة التي تليها لضمان استقرار الوضع العسكري من جهة وفتح الطريق لاستنهاض حركة الجماهير خلف الشعارات والمطالب والأهداف التي تكمن في وجدانها، وتصحيح الأخطأ والتجاوزات التي كانت تعارضها وترفضها خلال حكم السلطة القديمة، وضرورة التحسب لأى تحرك مضاد عسكرى أو مدنى وتنظيم المقاومة الشعبية والعسكرية، وحشد القوى في مواقع المقاومة المتوقعة والثغرات المحتملة، وقد طُرح التساؤل حول دوافع التعجل في تنفيذ الانقلاب وثلاثة ممن تم اختيارهم في مجلس الثورة في الخارج، فوجودهم في الجيش لم يكن شرفياً، وانما نفوذهم وتجربتهم ودورهم القيادى الذي يحتاجه الانقلاب وهو يقدم سلطته للجيش والشعب، وهو أشد حاجة لجهد كل فرد في قيادته، ثم أشار البيان الى الملاحظات التي أبداها عسكريون ومدنيون حول كثرة تحركات هاشم العطا في الجبهة السياسية والعسكرية![1].

□□□

(1) بيان جماهيرى للحزب الشيوعي السوداني بمناسبة مرور ذكرى 19 يوليو 1988م.


(7)
عشية
الردة!
□□

توجه عبد الخالق عصر اليوم التالى، الحادى والعشرين من يوليو 971م، إلى مطار الخرطوم لوداع صديقه الصحفي المصرى أحمد حمروش، رئيس تحرير مجلة روز اليوسف، والذي كان قد وصل البلاد في الصباح، ضمن وفد صحفي صغير ضم أيضاً أحمد فؤاد، رئيس مجلس ادارة بنك مصر، وقد عُرف كلاهما بصداقته لليسار السوداني، ولعبد الخالق شخصياً.

وعلى حين كان المعلن بشأن الزيارة أنها للوقوف على مجريات الأحداث وتغطيتها، كانت في واقع الامر "بتكليف من الرئيس أنور السادات الذي اتصل بى تلفونياً وأبلغنى أن الاخوة في سوريا وليبيا في حالة قلق لما حدث في السودان.. وطلب منى السفر للاطمئنان على طبيعة العلاقات مع مصر، لأنه كان يعرف صلتى بالشهيد عبد الخالق.. تعود علاقة المعرفة والصداقة بعبد الخالق.. إلى عام 1947عندما كنا معاً في لجنة القاهرة ضمن تنظيم الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى.." (1).

ويرجح كمال الجزولي صحة مضمون هذه الرواية بقوله: "في أو حوالى بدايات خريف عام 1971م، وكنت ما زلت وقتها

---

(1) افادة احمد حمروش للكاتب عن طريق الفاكس من القاهرة في 2002م.

طالباً بالاتحـاد السوفيتي، حـضر إلى موسكو مسـتشفياً القائد الشيوعي المـصرى زكى مراد، الذي لقى مصرعـه بعد سنوات من ذلك في حادث مرورى غـامض بميدان التحرير بالقـاهرة، والتقينا به في شقـة المرحوم جيلى عـبد الرحمن، حـيث روى لنا كيف أن بعض عناصـر المخابرات المصـرية جاءوا إلى شـقته في الـقاهرة بسيارة رئاسية مساء يوم 20 يوليو، وطلبوا منه مرافقتهم لمقابلة السادات لأمـر عاجل! وعند وصوله المسكـن الرئاسى وجد بعض اليسـاريين المصريين ممن جـرى إحضارهم بالمثـل، وفيهم أحـمد حـمـروش ولطفي الخـولى وآخرون، جـالسين في الحـديقـة إلى السادات الذي كـان يرتدى جلباباً صعـيدياً ويدخن غليـونه بتوتر ملحوظ! سألهم السادات عن تقديراتهم للانقلاب في السودان لأن (الواد المغامر ده)، على حد تعبيره في إشارة للقذافي، كان يضغط عليـه، وقتـها، بدعم سـورى، للتـدخل لدحر الانقـلاب تحت مظلة مـيـثاق طرابلـس. وقال مـراد إنهم عـملوا على تذكـيـره بمواقف الشيـوعيين السـودانيين الايجابيـة من ثورة 23 يوليو، وإقـناعه، بالتـالى، بأنه ليس من مـصلحة مـصـر أن تستـجـيب لضغـوط القيادتين الليبية والسورية، وذلك من منطلق معرفتهم ببعض قادة الانقـلاب وببعض الرمـوز اليسـارية والشـيوعـية التي رشـحت معلومـات عن علاقتهم به! وقـال إن رأى السادات قد استـقر على إرسـال وفد صـباح اليـوم التـالى لتقـصى الحـقائق في مـوقع الأحداث، وهو نفس الوفـد الصغـير الذي وصل الخرطوم صـباح اليوم التالى " [1].

---

(1) افادة كمال الجزولى الأديـب والمحامى والكادر الشيوعي للكاتب عن طريق الانترنت في 2002م.

غيـر أن محمد حـسنين هيكل يروى الأمر بطريقـة أخرى، في مقاله المنشور (بالأهرام) بتاريخ الجمعة 30 يوليو 1971م، قائلاً: "بعد انقلاب هاشم العطا مباشرة أرسلت الحكومة المصرية طائرة خاصة بهـا مبعوث الحكومـة أحمد حمروش لينقـل رسالة لهاشم العطا حول قلق مـصر على سلامـة نميري". وأردف هيكل ".. أن هاشم العطا قد أخـبر حمروش أن نميـري سوف يُقدم للمحـاكمة، وطلب العطا من المبعوث أن تقوم مصـر بتسليم اللواء خالد حسن عباس وبابكر عوض الله للحكومة السـودانية فأجاب حمروش أن كليهـما في بلغـراد وبرلين الشرقـية ولا يمكن للحكومـة المصرية اعتقالهما في تلك العواصم"![1].

●●●

بعد أن التقى، فور وصوله، بهاشم العطا وأعضاء مجلس قيادة الثورة الجدد، توجه حمروش إلى منزل عبد الخالق، إذ أبلغه هاشم بأنه، أى عبد الخالق، حر طليق! لكن حـمروش لم يجد عبد الخالق بالمنزل، فـترك له رسالة. وبـالفعل ذهب إليـه عبد الخـالق بفندق السودان، ووجـده يتأهب للعودة سـريعاً إلى القاهرة عـصر نفس اليوم بعد انتهـاء مأموريته، لرغبته كمـا قال "في توضيح الأمور لأنور السادات ولتثبيت الصلة بين البلدين الشقيقين"[2].

حـرص عبـد الخـالق على مرافـقـة حمـروش لوداعـه بمطار الخرطـوم. وفي الطريق قال له إن نزوع جـعفـر نميري للانفـراد

---

(1) طارق؛ 3 أيام..،سبق ذكره، ص85.

(2) إفادة حمروش للكاتب، سبق ذكرها.

بالأمر دون تنظيم الضباط الاحرار هو السبب المباشر في وقوع الانقلاب. ويلاحظ حمروش أنه لم يلمس، ساعتها، في حديث عبد الخالق أية علامة لعدم الارتياح لما جرى، بل كان يتحدث بثقة عن أن الامور قد تغيرت وأن كل شئ سيستقر. كما يلاحظ أيضاً أن حوارهما لم يتطرق مطلقاً إلى حجم التآمر الذي يمكن أن يواجه النظام الجديد إقليمياً ودولياً. وطلب عبد الخالق أن تساعد مصر النظام الجديد معنوياً، وأن تؤسس معه علاقات طيبة. وأشار حمروش، عموماً، إلى أن الانطباع الذي خرج به من تلك الزيارة هو أن حركة هاشم العطا في طريقها للاستقرار، خاصة بعد أن شاهد هاشم يصافح ضباط المدرعات التي كانت رابضة في شوارع الخرطوم، ولمس بنفسه كيف "أن شخصية الرجل كانت موضع احترام وتقدير من زملائه الضباط حيث اشتهر باستقامته ووعيه" (1).

تم إبلاغ الملازم خالد الكد بوصول الضيف المصرى إلى مطار الخرطوم برفقة عبد الخالق، فهبط من مقره في برج المراقبة ليكون في استقبالهما. وتربط بين عبد الخالق والملازم خالد صلة قرابة اتهم بسببها الحزب الشيوعي بتدبير الانقلاب الفاشل الذي كان قد قاده خالد ضد حكومة الصادق المهدى عام 1966م. على أن ذلك الاتهام لم يثبت، فانتهي الأمر بالحكم على خالد بالفصل من الجيش والسجن لمدة عشر سنوات. لكنه ما لبث أن أطلق سراحه وأعيد للخدمة في إثر انقلاب 25 مايو 1969م، ليعاد

---

(1) المصدر السابق.

فصله مجدداً ضمن إجراءات 16 نوفمبر 1970م. ثم ما أن سمع المذياع يقطع برامجه المعتادة، عصر 19 يوليو، ويبدأ في بث المارشات العسكرية والاعلان عن بيان هاشم العطا، حتى هب يرتدى ملابسه العسكرية لأول مرة منذ ثمانية أشهر، وخف لمقابلة هاشم، حيث سأله معاتباً عن إهمالهم له في أمر كهذا! فرد هاشم بأن الوقت ليس وقت عتاب، وأمره بأن يأخذ قوة عسكرية ويتولى حراسة المطار. وهكذا التحق خالد بالانقلاب، قبل صدور القرار في اليوم التالى بإعادته إلى الخدمة ضمن آخرين ممن شاركوا في الانقلاب رغم أنهم كانوا وقتها مفصولين منذ إجراءات 16 نوفمبر 1970م.

وكان حمروش قد كتب مقالاً في بعض الصحف المصرية، عقب انقلاب خالد الفاشل ذاك، وصف فيه الانقلاب بأنه محض فبركة قصد منها الكيد للحزب، كما وصف خالداً نفسه بأنه مجرد (صنيعة) للصادق المهدى في تلك الفبركة!

أمر الملازم خالد بفتح قاعة كبار الزوار، ومضى يسلم على عبد الخالق وضيفه. وما كاد عبد الخالق يُعرف الرجلين ببعضهما البعض حتى تذكر خالد ذلك المقال فانفجر كالاعصار في وجه حمروش، لكن عبد الخالق زجره، فتراجع حباً واحتراماً له.

بقى عبد الخالق مع حمروش حتى موعد إقلاع الطائرة، وكان آخر من ودعه، قبل أن يقفل راجعاً، وفي معيته، الملازم خالد، إلى حيث أوقف عربته. في الطريق انتهز خالد الفرصة وسأل عبد الخالق عن رأيه في الانقلاب وتقييمه له، ففوجئ به يرد، على الفور، قائلاً: "جنازة بحر! ولو تمكنتم من المحافظة عليه أسبوعاً

أو اسبوعين، فقد نستطيع أن نساعدكم شيئاً"! كما وصفه بأنه "رمة و.. ورطة أدخلنا فيها العسكر"![1].

وربما لأن خالداً قد بوغت بذلك التقييم، فإنه لم يعد يذكر مما دار بينهما بعد ذلك سوى أنه ذكر، عرضاً، لعبد الخالق أن الخاتم عدلان، الطالب الشيوعي المعروف آنذاك بجامعة الخرطوم، والذي كان قد غادر سجن كوبر ضمن المعتقلين الشيوعيين والديموقراطيين الذين أطلق سراحهم صبيحة اليوم السابق، موجود معه في برج المراقبة! وفوجئ خالد بعبد الخالق يتوقف عن السير، ويحدق فيه بعينين مكدودتين، ثم يقول له بصرامة تشوبها مسحة من الغضب: "أبلغه بأن يسرع لمغادرة المكان فوراً وألا يعود إلى هنا مرة أخرى"، ففعل! لقد

"أبدى غضبه من وجود الخاتم عدلان معي مما يجعل الشبهة أقوى"[2].

●●●

ولكن، هل بعث أنور السادات، فعلاً، بأحمد حمروش بهدف "الاطمئنان على طبيعة العلاقات مع مصر"؟!

لقد راجت، في سياق تداعيات الصعود والانكسار السريعين لحركة 19 يوليو، شائعات كثيرة، خاصة وسط العسكريين، تقول أن إمداداً لوجستياً مصرياً هو الذي ساهم، بصورة حاسمة، في

---

(1) حوار مع خالد الكد بجريدة الخرطوم، العدد/448، القاهرة في12/12/1993.

(2) المصدر السابق.

هزيمتها، إضافة لانتقال اللواء خالد حسن عباس، وزير دفاع مايو، من بلغراد التي كان يزورها على رأس وفد رسمى، إلى مصر، وقتها، على متن طائرة (تايني رولاند) النفاثة الخاصة التي وضعها تحت خدمته بالكامل، وبقيادة طياره الشخصي (ويلهلم ويلمنغ). وفي مصر تمكن خالد من الاتصال بالقوة السودانية التي كانت ترابض وقتها في السويس. كما وأن (تايني رولاند) قد نسق مع المخابرات البريطانية لمنع وصول طائرة الخطوط الجوية البريطانية التي كانت تقل كلاً من بابكر النور وفاروق حمد الله من الوصول إلى الخرطوم. ورولاند هو رجل الأعمال البريطاني الذي يملك ويدير شركة (لونرو) ذات الارتباطات المشبوهة عالمياً، والتي كان جعفر نميري قد منحها الكثير من التسهيلات في عدة مشروعات اقتصادية بالسودان[1]. ويبدو أن تلك الشركة المشبوهة ملمة بكل شاردة وواردة فيما يتعلق بهزيمة انقلاب 19 يوليو، لدرجة أنها كانت تقوم بمهمة (الاعلام) الطازج عن الموضوع للدوائر المهتمة! فها هي وثيقة بريطانية تكشف عن رسالة لموظف بالخارجية البريطانية جاء فيها "لدى نبأ سار أو وجبة شهية من دانلوب بشركة لونرو حصلت عليه هذا الصباح. أخبرني أن اللواء خالد حسن عباس قد سجل رسالة إذاعية لقواته حينما كان بالقاهرة وأذيعت من راديو طرابلس يوم الأربعاء. ربما كان لها أثر بارز في الانقلاب المضاد"![2]. من ناحية أخرى فإن

---

(1) حسن ساتي؛ إنقلاب... (7 ـ 10)، مجلة المجلة، العدد/ 1235 في 18 أكتوبر 2003.

(2) المصدر نفسه؛ (4-10)، العدد/1232 في 27 سبتمبر2003.

وثيقة بريطانية، ربما تعد من أخطر الوثائق، تشير بشكل واضح لا لبس فيه إلى ضلوع دوائر غربية، بما فيها شركة لونرو المشبوهة، في الخلافات التي نشبت بين نظام نميري والحزب الشيوعي السوداني، والترتيبات لإبعاده وتصفية وجوده، وأن النميري قد أحاط تلك الدوائر علماً بهذه الترتيبات! ففي رسالة من القائم بالأعمال البريطاني بتاريخ 6 يونيو 1971م إلى ادارة شمال أفريقيا بالخارجية البريطانية - أى قبل انقلاب 19 يوليو بفترة وجيزة - جاء فيها أن النميري أحاط مستر رولاند المدير التنفيذى لشركة لونرو أن 200 من السودانيين تم اعتقالهم، وأن معظمهم قيادات حزبية وعمالية. وأشارت الرسالة إلى أن كل أعضاء اللجنة المركزية للحزب ضمن هؤلاء الذين تم اعتقالهم وأن عدداً من المنظمات الجماهيرية والديمقراطية قد تم حلها، وأن قياداتها كانت من الشيوعيين. ومضى القائم بالأعمال يقول: ".. ويبدو النميري، مما قال لرولاند، شغوفاً بالتأكيد للغرب أنه يعنى ما يقول في ما يخص التعامل مع الشيوعيين"![1].

من جهة أخرى كان انقلابيو 19 يوليو قد بادروا إلى تجريد (القوات الخاصة) من أسلحتها، وأمروها بالبقاء في عنابرها السكنية بالقيادة العامة للجيش، باعتبار أنها مناصرة لنميري، فأضمرت حقداً على الحركة. كما جردوا الدبابات السوفيتية من طراز (تى 55) التابعة للواء الثانى بسلاح المدرعات بمنطقة

---

(1) حسن ساتى؛ في الذكرى 32 لاندحاره بتدخل خارجى، (1-10) السودان:بانوراما الانقلاب الشيوعي من الوثائق السرية البريطانية، مجلة المجلة، العدد/1229 في 6 سبتمبر 2003م.

الشجـرة من (الإبر) التي لا يمكنها أن تعمل بدونهـا، ومنعوا، إلى ذلك، بعض ضـبـاط وصف ضـبـاط تلك الوحـدة العـسكرية من الدخول إليها من لحـظة وقوع الانقلاب لشكهم في ولائهم. لكنهم اكتفوا بـذلك الاجراء فقط ولم يقبضوا عليـهم! وسوف تتمكن تلك الوحـدات من التنسيق في مـا بينها خـلال تلك الأيام، والتـحرك، عصر 22 يوليو، للاجهاز على الحركة من محورين: دبابات اللواء الثاني، من جهة، والتي جـاءت من الشجرة جنوب الخرطوم وهي تطلق قذائفـها الثقـيلة على القصر الجـمهورى، حيث كـان نميري وضباطه قيد الاعتقال (!)، و(القوات الخاصة)، من الجهة الأخرى، والتي تسللت على الأقـدام، في ذات التـوقيت، مـن مواقـعهـا في القيادة الـعامة، حسب اتفاق مـسبق (!)، واتخذت طريقـها بشارع النيل، من تحت جسـر القوات المسلحـة، باتجاه القصـر، وانقضت على جنود الحرس الجمهورى من المستجدين غير مكتملى التدريب الذين كانـوا يؤدون خدمتـهم في الناحيـة الشمـالية من القـصر، فانتـزعت منهم رشاشـاتهم وسط حالة الارتباك والـفوضى التي أصابتهم جراء دوى قـذائف الدبابات من الجنوب والهجوم المباغت للقوات الخاصة من الشمال!

وهكذا قرنـت الشائعات التي انـطلقت عقب فشـل الانقلاب بين زيارة اللواء خـالد حـسن عـبـاس إلى مـصـر وبين زيارة الوفـد المصـرى إلى السـودان، لتـؤكـد أن (إبر) الـدبابات المنزوعـة قـد استجلبت من مـصر، التي كانت تعتمـد هي الأخرى على التسليح السوفيتى آنذاك، وسلمت، بصـورة أو أخرى، للعناصر العسكرية من صف الضباط الموالين لجعفر نميري، والذين تمكنوا من التسلل،

بعد ظهر 22 يوليو، إلى حظيـرة اللواء الثانى مدرعات، في الوقت الذي كان الضـابط المسئول من جـانب الانقلابيين مـستغـرقاً في محادثة هاتفية مطولة مع بعض ذويه الذين غاب عنهم طوال الأيام الثلاثة الماضية!

وقـد أشار المقـدم معـاش محـمد محـجوب عـثمـان إلى تلك الشـائعات بقـوله: ".. قيل بـعد هزيمة 19 يوليـو.. (أن) الطائرة المصرية التي أقلـت.. حمروش.. حمـلت أيضا عناصر من أجـهزة الأمن أمـدوا.. الـلواء الثـانى (بإبر الـدبابات) التي تم تعطيـلهـا.. للتحرك لاجهاض حركة 19 يوليو"![1].

المؤكد، على أية حـال، أن قادة الانقلاب وقعـوا في عدة أخطاء، بالغفلة أو بحسن النية، مما عـجّل بدحر الانقلاب. وفي هذا الصدد يشير شوقى ملاسى المحامى، وأحد قدامى القياديين بحزب البعث العربى الاشتـراكى بالسودان، إلى أن معلومات قـد توفرت لديهم بأن قدوم أحـمد حمـروش إلى السودان بوفد يضم أحـد عناصر المخابرات المصرية ينذر بشؤم محدق، مما حدا به لمحاولة الاتصال بعبـد الخالق لوضعه في الصـورة بعد أن فشل في مـقابلة الرائد هاشم العطا بالقـيادة العامـة. ولما لم يجد عـبد الخـالق تحدث مع محمد إبراهيم نقد حول ".. أمـر الوفد المصرى وعدم انتباه هاشم العطا لما يجرى لدرجة الاجتماع مع أحـمد حمروش لأكثر من 10 ساعات متواصلة في مـثل هذه الظروف، إضافة الى معلوماتنا عن العـمل المضـاد الذي يجـرى وأن كلمـة السـر فيـه: (عـائد عـائد

(1) محمد محجوب؛ الجيش..، سبق ذكره، ص72 .

يانميري)! ويورد ملاسى الحوار الذي دار بينه وبين نقد حول تلك المسألة على النحو التالي: "وماذا تقترح؟! سأل نقد.. قلت: أقترح تقديم رأس النظام (نميري) لمحاكمة شعبية عاجلة ومفتوحة ينقلها التلفزيون، وتنفيذ ما يصدر من حكم فوراً وعلناً حتى لو كان إعداماً..

نقد: أنتم بعثيون فاشيون.. نحن نحتفظ بجعفر نميري لنفدى به بابكر النور وفاروق حمد الله، وقد أكد لنا الاتحاد السوفيتى العظيم أن السادات لا يستطيع تحريك طائرة واحدة من مصر دون موافقتهم. أما القذافي فهو رجل (هايف) لا شئ لديه"![1].

وعلى الرغم من نبرة المبالغة التي لا تخفي بالطبع في هذه الرواية، و(التحشير) الواضح لبعض الألفاظ التي لا ترد عادة في مثل هذه الأحاديث الخاصة، وإن كانت ترد أحياناً في سياق الكتابة أو الخطب الاحتفالية، مثل (الاتحاد السوفيتى العظيم!).. الخ، إلا أن ما يهمنا هنا، بوجه خاص، هو طرح التساؤل عما إن كان مقبولاً أو معقولاً، على أى نحو، ألا يكون عبد الخالق قد وضع في اعتباره، ناهيك عن ألا يكون قد تطرق مطلقاً في حديثه مع حمروش إلى احتمال المهددات التي يمكن أن تحيط بالحركة الوليدة، وهو السياسي الذي عرف عنه عمق الانتباه دائماً للمتغيرات الدولية المحيطة بالمنطقة، إضافة للتقديرات والتحليلات التي توصلت إليها لجنة حزبه المركزية في دوراتها المنعقدة بعد إجراءات 16 نوفمبر، وهو القائد الفكرى والسياسي للحزب!!

---

(1) ملاسى؛ أوراق، سبق ذكره،ص151-152.

وعلى أية حال فقد عبر السادات بصورة بليغة عن مكامن الخطر الذي لم يكن تهديده للسلطة الوليدة خافياً أصلاً، عندما قال عبارته الشهيرة لاحقاً: "ميثاق طرابلس أسنانه بانت في السودان"!

وتتضمن الوثائق البريطانية التي تم الكشف عنها مؤخراً في لندن وثيقة تشير إلى أن "الاشاعات تدور في القاهرة حول أنه لم تكن وحدها القوات السودانية الموجودة على خط قناة السويس هي التي نقلت للسودان للمساعدة في إجهاض انقلاب هاشم العطا، وانما صحبت بفرقة من المظليين المصريين، وقد أوردت صحيفة لوموند الفرنسية رواية مشابهة قالت فيها إن المصريين عززوا قوات بعينها من قواتهم الموجودة سلفاً بشمال السودان، وأنه إذا لم يكن لهذه القوات أن تدعم نميري، فما كان للانقلاب المضاد أن يتم على ذلك الوجه من السرعة"(1).

من جهته كان القذافي قد أشار أيضاً لتدخل كل من مصر وليبيا وسوريا لإجهاض الانقلاب وإعادة النميري إلى السلطة عندما قال: "حينما وقع الانقلاب في السودان اتصلنا نحن في ليبيا ومصر وسوريا مع بعضنا البعض وقررنا ضرورة اعادة نميري ومجلس قيادة الثورة للسلطة. وفي اليوم التالى ذهب اللواء خالد حسن عباس وزير الدفاع السوداني، والذي كان موجوداً خارج بلاده برفقة الوزير محمد عبد الحليم، إلى القاهرة. وفي اليوم التالى.. أتيا إلى طرابلس برفقة وزير الحربية المصرى اللواء

---

(1) حسن ساتى؛ إنقلاب..، (7-10)، مجلة المجلة، العدد/1235في 18 أكتوبر 2003م.

محمد صادق، وكانوا مخولين من الرئيس السادات للاتفاق معنا على الخطة التي يمكن بها إعادة الثورة السودانية وتحطيم الانقلاب الشيوعي. جلسنا مع بعضنا البعض وأحضرنا الخرائط العسكرية السودانية وقمنا بتحضير القوات التي يمكن أن تدخل السودان، وقررنا أن ندخل السودان خلال 7 أيام"[1].

هذا بالاضافة، طبعاً، لأسلوب القرصنة الجوية الذي لجأ إليه القذافي باختطافه طائرة الخطوط الجوية البريطانية التي كانت تقل كلاً من بابكر النور وفاروق حمد الله إلى السودان عبر الأجواء الليبية، والتي تشير بعض المعلومات إلى تورط المخابرات البريطانية نفسها فيها! ومما يعزز ذلك أن الحكومة البريطانية صرفت نظرها لاحقاً عن مساءلة ليبيا حول الأمر، بعد أن كانت قد تحمست لهذا الاجراء، وعادت بعد أيام معدودات تتحدث عن صفقات تجارية مع ليبيا! فها هو السفير البريطاني المعتمد لدى طرابلس يبرق في 10 أغسطس 1971م إدارة شمال أفريقيا بوزارة الخارجية البريطانية قائلاً: "لا أرى أن لدينا ما نفقده.. بعد أن يهدأ غبار طائرة ال VC10.. لبدء مناقشات حول صفقة تسوية. وإذا كان الليبيون يريدون حقيقة شبكة رادار ومشروع دفاع جوى فلا بد أن يكون عرضنا جذاباً، وسيعرفون الآن أنهم لا يستطيعون مجرد الأمل لجهة الحصول على دفاعات تقارن بعرضنا بسرعة وبسعر رخيص من أى جهة أخرى"![2].

---

(1) المصدر السابق.

(2) سابق.

وفي واقع الأمر فإن دوائر الخارجية البريطانية بدأت في توجيه دفة البحث عن مصالحها منذ رسالة وزير خارجيتها دوغلاس هيوم في 29 يوليو 1971م إلى سفيره بالقاهرة، والتي يوجهه فيها بصورة واضحة بأن "عليك أن تتبع خطاً في الحديث إلى جهة أننا قد بذلنا كل ما في وسعنا لتسوية خلافاتنا مع الليبيين، ولتأسيس علاقات جيدة معهم، ولكن لاتوجد حكومة تحترم نفسها تستطيع أن تتجاهل إجبار طائرة تابعة لها وانزال ركاب من على ظهرها. ولذلك فالموقف الذي تتخذه هو رد فعل صرف تجاه الواقعة، فيما يصبح آخر شئ نريده هو مواجهة غير ضرورية مع ليبيا"! [(1)].

وهكذا بلور السفير البريطاني المسئول (رد الفعل الصرف تجاه الواقعة) وأوضحه لوزارته في رسالة يقول فيها: "بدأت بالتركيز حول الرؤية الخطيرة التي اتخذتها حكومة جلالة الملكة حول حادثة الطائرة VC10، وعبرت عن الاهتمام والاندهاش تجاه أن الحكومة الليبية لم تمتلك، إلى الآن على الأقل، اللباقة للرد على مذكرات مستر جودبر. وقلت أنها ليست وحدها الحكومة البريطانية التي تولى الأمر اهتماماً، انما البرلمان البريطاني والشعب البريطاني والصحافة، جميعهم غاضبون تجاه فعل القرصنة الفاضح الذي ارتكبه الليبيون بإجبار الطائرة على الهبوط. ومضيت أتحدث وفق خطوط برقيتك رقم 885"![(2)].

---

(1) المصدر نفسه، (الأخيرة)، العدد/ 1238 في 8/11/2003.

(2) المصدر نفسه، (7-10)، العدد/ 1235 في 18 أكتوبر2003.

وهكذا تناست الحكومة البريطانية ما قامت به ليبيا رغماً عن غضب (البرلمان البريطانى والشعب البريطانى والصحافة)!

لكل ما سبق ذكره نستطيع حصر العوامل الخارجية لبعض دول الجوار والدوائر العالمية الأخرى في التدخل الذي ساهم بشكل مباشر أو غير مباشر في إجهاض انقلاب 19 يوليو في الآتى:

1 ـ إستخدام الطائرة المصرية المدنية التي كانت تقل الوفد المصرى في تزويد للواء الثانى دبابات اللواء الثانى بقطع الغيار (الإبر).

2 ـ سماح النظامين المصرى والليبى لخالد حسن عباس لتسجيل رساله الى أفراد الجيش السوداني في القاهرة لتبثها الاذاعة الليبية.

3 ـ المساعدة اللوجستية التي قدمها (تاينى رولاند)، مالك شركة (لونرو) ذات العلاقات المشبوهة، إلى اللواء خالد حسن عباس وزير دفاع نظام النميري، آنذاك، بوضع طائرة (رولاند) الشخصية تحت تصرف الوزير السوداني للانتقال بها من بلغراد إلى القاهرة وطرابلس.

4 ـ الشبهة التي لازمت سقوط طائرة الوفد العراقى على الأراضى السعودية قبل وصولها السودان.

5 ـ تخطيط دول الاتحاد الثلاثى (مصر ـ ليبيا ـ سوريا) لغزو السودان خلال 7 أيام لإعادة النميري إلى الحكم.

6 ـ تسهيل مصر لاشتراك القوات السودانية الموجودة بقناة السويس في تعزيز عودة النميري للسلطة.

7 ـ إختطاف ليبيا لطائرة الخطوط البريطانية، وعلى متنها بابكر النور وفاروق حمد الله، وتسليمهما إلى النميري بعد عودته ليعدمهما رمياً بالرصاص.

8 ـ شبهة ضلوع المخابرات البريطانية في تلك العملية، وتجاهل السلطات البريطانية فيما بعد لحادث اختطاف طائرتها المدنية من قبل دولة أخرى , وعدم قيامها في أى وقت بأى اجراء ضد ليبيا إزاء تلك القرصنة.



(8)

الــــــــردة!

□□

كان أكثر ما حير محمد نور السيد هو عدم حضور عبد الخالق في الموعد الذي اتفقا عليه بشأن المنزل الذي أعده له بمنطقة ما بالخرطوم، والذي كان من المفترض أن يأخذه إليه منذ صباح الأمس حسب طلبه. وقد بحث عنه، وبرفقته المهندس (ع.ح.أ)، في كل مكان، حتى أبلغتهما أسرته في أم درمان بأنه خرج بصحبة الرشيد الطاهر وسر الختم الخليفه، رئيس الوزراء الأسبق في أول حكومه مدنية بعد سقوط الحكم الديكتاتورى العسكري في أكتوبر عام 1964م، فعادا لينتظرا اتصالاً منه، طوال مساء البارحة، بلا جدوى.

صباح اليوم التالى، 22 يوليو، عاود نور البحث عن عبد الخالق بمنزل صديقه ميرغنى محجوب. ولما لم يجده هناك توجه للسؤال عنه مجدداً بمنزله بأمدرمان، حيث أخبروه بأنه خرج قبل دقائق معدودة بصحبة صديقه محمد توفيق، القطب الاتحادى المعروف الذي سيصبح، بعد سنوات طوال من ذلك، وزيراً للثقافة والاعلام ثم وزيراً للخارجية خلال الديموقراطية الثالثة (1986م ـ 1989م).

وعلى حين كان نور يتخذ طريقه من أم درمان إلى الخرطوم، كانت الطلائع الأولى للموكب الذي رتبت النقابات والاتحادات

والمنظمات الجماهيرية لخروجه في ذلك اليوم لتأييد حركة هشم العطا، قد بدأت في التجمع بساحة الشهداء أمام الواجهة الجنوبية للقصر الجمهورى. وبالقرب من المبنى القديم لوزارة الخارجية إلتقى نور بالباقر عبد المتعال الذي نقل إليه خبر اختطاف السلطات الليبية لطائره الخطوط البريطانية التي كانت قادمة، في ذلك الوقت، من لندن في طريقها إلى الخرطوم، وعلى متنها رئيس مجلس الثوره الجديد المقدم بابكر النور عثمان، وعضو المجلس الرائد فاروق عثمان حمدالله. والواقع أن نور ما كاد يدلف إلى منطقة الموكب حتى وجد الخبر متناقلاً بين الألسن!

بحث نور عن عبد الخالق طويلاً، بين الجموع الحاشدة. ولما لم يعثر عليه، توجه إلى منزل حامد الانصارى وسعاد إبراهيم أحمد، حيث علم أنه كان موجوداً هناك بالفعل، ولكنه خرج، قبل دقائق، ليتحدث مطولاً مع د. عبد الحليم محمد، عضو مجلس السيادة الأسبق، تحت ظل شجرة خارج المنزل، وبعد ذلك غادرا معاً، وبصحبتهما محمد توفيق، إلى منطقة الموكب الجماهيرى[1].

كان عبد الخالق قد بذل، خلال تلك الأيام، جهداً كبيراً في أوساط أصدقائه من قيادات الاحزاب والشخصيات الوطنية المستقلة لتوسيع قاعدة التأييد لحركة 19 يوليو، الأمر الذي يرجح الفرضية القائلة بأنه لم يكن يهدف لإقامة سلطة عسكرية، بل كان يسعى لإشراك أوسع قطاعات القوى السياسية المختلفة في الحكم ".. توسيعاً ديمقراطياً لقاعدة السلطة وفق المفاهيم التي

(1) افادة محمد نور للكاتب،سبق ذكرها.

كانت ممكنة تاريخياً في تلك اللحظة، وبحكم العلاقات التي كانت سائدة بين القوى السياسية في ذلك الزمان. وقد أدار حوارات واسعة مع البعثيين والاشتراكيين بمجموعاتهم المختلفة، والمستقلين والشخصيات الوطنية، ومع بعض العناصر من الاحزاب التقليدية، ومع النقابات والمنظمات الجماهيرية، بغرض الاشتراك في الحكومة "[1] وفي هذا الصدد أشارت سعاد إبراهيم أحمد إلى أن الاتجاه لم يكن مطلقاً تشكيل وزارة من الشيوعيين فحسب، بل تكوين حكومة قومية. ونفت الفهم الخاطئ الذي ترتب على عملية الاجتزاء الانتقائي المتعمد من بعض القصاصات، والذي أشاعه إعلام مايو بعد عودة نميري إلى السلطة، بأن د. مصطفي خوجلى كان المرشح الوحيد لتولى رئاسة الوزارة[2]. ولعل ما يؤكد خطل ذلك الفهم لقاءات عبد الخالق المتعددة مع كل من عبدالله عبد الرحمن نقد الله وعبد الحليم محمد من حزب الأمة، ومحمد توفيق والرشيد الطاهر ويحيى الكوارتى من الاتحاديين، وسرالختم الخليفة وجمال محمد أحمد من المستقلين، وغيرهم، حتى أن محمد توفيق ذكر، في لقاء صحفي أجرى معه بعد سنوات طوال من ذلك، أنه، بالفعل، قد اقتنع بالبرنامج السياسي ل 19 يوليو، وأيده، وتحمل تبعات ذلك بالاعتقال الذي تعرض له، والتحقيق الذي أجرى معه، بعد عودة النميري!

●●●

---

(1) الخاتم عدلان؛ مداخلة، موقع com.sudaneseonline.

(2) افادة سعاد للكاتب، سبق ذكرها.

شوهد عبد الخالق، بعد ذلك، في منطقة الموكب، وقد حياه بعض رفاقه ومعارفه، وتحدث قليلاً إلى البعض الآخر، ومنهم حسن شمت، الكادر القيادى بمنظمة الحزب في مديرية الخرطوم، وخليل الياس، رئيس اتحاد الشباب السوداني وقتها.

كان الموكب ضخماً وحاشداً بمشاركة واسعة من أعداد غفيرة من المنظمات الجماهيرية، وخصوصاً النقابات العمالية، والاتحادات المهنية، والروابط الفئوية. ورغم تعدد ألوان اللافتات التي رفرفت فوقه، إلا أن اللون الطاغى كان هو.. الأحمر! كما وأن الهتافات الأعلى كانت من كوادر وأعضاء وأصدقاء الحزب الشيوعي، تمجد نضال الطبقة العاملة والحزب والشعب السوداني وما إلى ذلك. وكان أكثر هذه الهتافات ترديداً: (سايرين سايرين.. في طريق لينين)، على الرغم من التوجيهات التي كانت قد أصدرتها قيادة الحزب لعضويتها وجماهيرها ضمن بيان التأييد للانقلاب "بمحاربة أى تعجل يسارى أو شعارات يسارية انعزالية"[1]. وهكذا فقد تأكد للقوى اليمينية بما لايدع مجالاً لأى شك بأنه اذا كان انقلاب فجر الخامس والعشرين من مايو قد وقع بالوكالة عن الشيوعيين افتراضاً، فان انقلاب عصر التاسع عشر من يوليو قد أنجزه الحزب الشيوعي بالأصالة عن نفسه!

خاطب الموكب الرائد هاشم العطا الذي كان يقف إلى جانبه كل من المقدم محجوب إبراهيم نمر (طلقة) القيادى في تنظيم الضباط الأحرار والنقيب معاوية عبد الحى، عضو مجلس الثورة الجديد.

---

(1) القدال: معالم... سبق ذكره، ص300.

وقد أعـاد هاشم التشديد في حـديثه على أهم النقـاط التي حواها البـيان الأول، وأعلن أن النمـيري وأعـضـاء مجلس قـيادة مـايو والمسئـولين السابقين سيُـقدمون إلى مـحاكمـات عادلة، ولكنه لم يعلن بوضـوح عن خبـر طائرة الخطوط الجـوية البريطانيـة التي أجبرت بواسطة سلاح الجو الليبى على تغـيير مسارها لتهبط في مطار بنينة ببنغازى في ليبيا!

وكان هاشم قـد حرص على التـوجه شخـصياً، عند السـابعة والنصف من صباح هذا اليوم، برفقـة عدد من القيادات العسكرية الجديدة، إلى مطار الخرطوم لاسـتقبال بابكر النور وفـاروق حمد الله اللذين كان من المفترض وصولهما على متن الطائرة البريطانية القادمة من لندن. وقد جرى الترتيب لأن يدشن بابكر النور جدول أعماله كـرئيس جديد للبلاد بمخاطـبة الموكب الذي نظمته الهـيئات النقابية والجـماهيرية تأييداً للانقلاب في العاشـرة من صباح هذا اليوم.

غـير أن العطا، بعـد أن مكث بصـالة كـبار الزوار مـدة نصف ساعة، شوهد وهو يغادر المطار على عـجل مع مرافقيه، ويبدو أن تلك كـانت هي اللحظة التي تلقى فـيهـا نبأ اخـتطاف الطائرة في ليبيا!

●●●

كان برنامج بابكر وفاروق في العاصـمة البريطانية قد ازدحم، فـجأة، خـلال اليـومين الماضيين، ومنـذ لحظة الاعلان عن وقـوع الانقـلاب، بسلسلة لا تـكاد تنقطع من الاجـتـمـاعـات واللقـاءات

والمؤتمرات الصحفية العالمية. ومع ذلك فقد حرصا، وسط كل تلك المشاغل، على أن يحملا بنفسيهما باقة كبيرة من الزهور لزيارة السيدة بثينة خليل، زوجة النميري، التي كانت تستشفي آنذاك بلندن. وبعد أن سكنا بلبالها، وهدءا من روعها، وطمأناها على سلامة زوجها وأنه لن يصيبه مكروه، وأن ما وقع بينهم لا يعدو كونه مجرد خلاف سياسى لن ينال من علاقاتهم الانسانية، أمرا سلطات السفارة بمواصلة الاشراف على علاجها على نفقة الدولة.

وما أن ربطا حزاميهما، وأقلعت طائرة الخطوط البريطانية من مطار هيثرو، حتى أخذهما الارهاق إلى نوم عميق لم يستيقظا منه إلا على حركة الهبوط في مدرج مطار روما، حيث توقفت الطائرة لفترة قصيرة، عادا بعدها للنوم العميق عندما استأنفت الطائرة رحلتها عابرة البحر الأبيض المتوسط.

بعد حوالى أقل من ساعة أحس المقدم بابكر بكف تربت على كتفه برفق. فتح عينيه بتثاقل ليجد أمامه أحد مساعدى الكابتن ستيوارت يدعوه بتهذيب لمقابلة الكابتن لأمر عاجل. أيقظت الحركة الرائد فاروق أيضاً، كما أيقظت بعض الركاب السودانيين والاجانب الذين كانوا يعرفون وزن الشخصيتين اللتين تشاركانهم الرحلة، فاعتدلوا في مقاعدهم بينما كان بابكر يعبر الممر إلى داخل كابينة القيادة. مرت حوالى ربع ساعة أخرى قبل أن يعود بابكر، والمستيقظون يسرحون عيونهم الغاصة بالتساؤل في قسمات وجهه المحتشد بالارهاق، لينقل إلى رفيقه بهدوء قلق، وهو ينحنى بقامته المديدة ليزيح الستارة عن النافذة البيضاوية الصغيرة

ويتطلع عبرها إلى السماء الليبية الممتدة خارج الطائرة، أن المتاعب، في ما يبدو، قد ابتدأت:

- "يقول إنــه يتعرض لـتهديد من طـائرتين حربيـتين ليبـيتين تطاردان طائرتـه، وتطالبـانه بالهـبـوط في مـطار بنغـازى، وأنه يخشى، إذا رفض الاذعـان، أن تتعرض الطائرة للنسف حـسب ما فهم من التهـديد، وأنه سيتصل الآن بوزارة الخارجيـة البريطانية لمعرفة كيفية التصرف"!

قبل أن يعلق فاروق عاود الكابتن دعوة بابكر إلى الكابينة:

- "وزارة الخارجية البريطانية طلبت منى الاستجابة بالهبوط، وأن أعود فوراً إلى لندن في حالة ما إذا احتجزت السلطات هنا أياً من الركاب"!

وأوضح بابكر لرفـيـقه على مـسـمع من الكثـير من الركـاب، السودانيين بالذات، الذين كانوا قد تحلقوا، هذه المرة، حول مقعدى الرجلين، أن الكابتن قال له إنه يـخشى على مصيـر بعض الأطفال الذين كانوا بالطائرة، وأنه سأله: أيهبط أم لا، فـما كان أمام بابكر سوى أن يطلب منه الهبوط!

بعـد أقل من خـمس دقـائق من هبـوط الطائرة طلب مـسـتـر ستيـوارت من بابكر مقابلة بعض المسؤولين الليـبيين الذين كانوا، في تلك الأثنـاء، قد صـعدوا سلـم الطائرة. فذهب بابكر وتحـادث معـهم مدة عشـر دقائق عاد بعدهـا لينقل أنهم أبلغوه بأن العقـيد معمر القذافي يطلب منهما، بابكر وفاروق، الهبوط من الطائرة لأنه (قرر) أن (يـستـضيـفهـما) بليـبيـا لبعض الوقت، حـيث أن لديه

معلومات مؤكدة بأن أحداثاً خطيرة على وشك أن تقع في الخرطوم، وأن حالة من الفوضى ستسود هناك، وأنه يريد المحافظة على حياتهما إلى أن يزول الخطر!

- "أوضحت لهؤلاء المسئولين أننا، فاروق وأنا، لا نرغب في قبول هذا العرض مطلقاً، وأنه يشرفنا أن نكون في السودان لنعايش تلك الأزمة التي يزعمونها مع الناس هناك مباشرة. ولما لمست إصرار المسئولين الليبيين على تنفيذ تعليمات القذافي، أعلنت لهم بصرامة أننا نرفض الذهاب معهم إلا مكرهين، وطلبت منهم نقل قرارنا هذا إلى القذافي، وأن يخطروه بأننا نريد منه إجابة واضحة على سؤال محدد عما إذا كنا مختطفين أم أن الأمر بخلاف ذلك"!

بعد زهاء عشر دقائق أخرى شاهد الركاب عبر النوافذ مجموعة من الضباط الليبيين بالزى المدنى ينتشرون حول الطائرة. ثم ما لبث أن صعد إليها ضابط ليبى أصدر (أمره) بفظاظة إلى الركاب ليسلموه جوازاتهم، فجمعها وهبط بها! وبعد حوالى نصف الساعة عاد الضابط وأصر، بعيون تقدح لؤماً، وبتوتر لم يعد يهتم بإخفائه كما كان يفعل، على اصطحاب الرجلين إلى خارج الطائرة، وأضحى واضحاً أنه على أهبة الاستعداد لتنفيذ ذلك بالقوة إذا لزم الأمر!

ويروى شاهد عيان:

- "عند ذلك الحد طلب بابكر من الركاب السودانيين، بصوت هادئ ونبرات قاطعة، أن يبلغوا الرائد هاشم، عند وصولهم إلى

الخرطوم، بألا يساوم النظام الليبى مطلقاً في أمر إطلاق سراحهما، وأنهما على استعداد لمواجهة الموقف إلى حد الموت، كما أوصى، في حالة عودة الطائرة إلى لندن، بإبلاغ نفس الرسالة إلى عابدين اسماعيل سفير السودان ببريطانيا. ثم قاما بوداعنا، وكانت روحهما المعنوية عالية، ونزلا مع الضابط الليبى من الطائرة. وبعد حوالى ربع ساعة أعيدت كل جوازاتنا التي كانت قد انتزعت منا، وما لبثت محركات الطائرة أن دارت لتغادر متجهة إلى.. لندن" [1].

بعد فترة قصيرة إتصل أحد موظفي السفارة البريطانية بالخرطوم بسعاد إبراهيم أحمد ليخطرها إليها بالأمر.

- "بعدها اجتمع محجوب (طلقة) بنا، أنا ومحمد إبراهيم نقد، ليؤكد لنا الخبر. فاقترحت إعلانه فوراً عبر أجهزة الاعلام مع التركيز على أن اختطاف رئيس دولة بواسطة دولة أخرى يعنى الاستهداف المباشر لدولة الرئيس المختطف نفسها، وإعلان الحرب عليها، كما اقترحت البدء في الاستنفار العام للجماهير وإشراكها في حماية المرافق والمنشئات. لكن نقد لم يشاطرني ذلك الرأى" [2]!

●●●

عند الثانية بعد الظهر تقريبا، بعد نهاية الموكب دون الاعلان عن اختطاف طائرة بابكر وفاروق (!) تناول عبد الخالق طعام

---

(1) جريدة الفجر اللندنية، العدد/56 في 7 يونيو 1998م.

(2) افادة سعاد للكاتب،سبق ذكرها.

الغداء بمنزل حامد وسعاد بالخرطوم/1 مع مجموعة من مختلف التيارات السياسية، من بينهم عضو الحزب، المؤرخ والكاتب والأستاذ الجامعي المعروف محمد سعيد القدال، وكان ذلك أول لقاء بينهما منذ نوفمبر 1970م، كما كان أيضاً آخر لقاءاتهما، حسب القدال نفسه الذي روى أن عبد الخالق ".. سألني عن رأيي في الموكب. فقلت له: كان موكباً حاشداً وموحداً في هتافاته وشعاراته. فقال: ألا تعتقد أنه كان يسارياً لحد كبير مما يسبب لنا أضراراً ومتاعب؟! وصفعني ذلك التعليق حتى أفقت من حدته كالملسوع! ورغم أنه كان تعليقاً قصيراً الا أنه عميق، وبعيد النظر، وبقي عالقاً بذهني طوال تلك السنوات"، ويضيف القدال: ".. كان عبد الخالق منزعجاً لحد كبير من خبر الطائرة"[1].

وبالنظر لكل هذه المعطيات تثور جملة أسئلة تحتاج لإجابات مقنعة. فعلى سبيل المثال: ماذا كان رأي الحزب الرسمي في ما يتصل بالموقف الذي كان ينبغي اتخاذه من مسألة اختطاف الطائرة؟! ولماذا انحصر التداول حول الأمر على رأيي نقد وسعاد؟! وما هو رأي عبد الخالق الذي كان، بحسب القدال، ".. منزعجاً لحد كبير من الخبر"؟! بل لماذا لم يتصل به قادة الانقلاب، أو يتصل بهم هو، في هذا الشأن، وقد كان موجوداً، بعلم أولئك القادة ولا بد، في منزل حامد وسعاد، كما كان مشاركاً قبلها في الموكب، علماً بأن الاتصال بينه وبين قادة الضباط الأحرار كان ميسوراً في ظروف أصعب عندما كان معتقلاً قيد

(1) القدال: كوبر...،سبق ذكره، ص23.

الحراسة المشددة بسلاح الذخيرة بمنطقة الشجرة، وعلماً أيضاً بأن قيادة الحزب كانت قد حذرت محجوب إبراهيم نمر (طلقة) من احتمال "إقدام القذافي على اختطاف أى طائرة يعود على متنها بابكر وفاروق ومحمد محجوب وضرورة الاحتياط لهذه الخطوة"![1].

□□□

---

(1) موقع sudaneseonline.com

(9)

يوم ضـــاقت
أمــدرمـــان!

□□

حوالى الثالثة بعد ظهر يوم 22 يوليو 1971م كان عبد الخالق بمنزل حامد وسعاد بمنطقة الخرطوم/1، فطلب من الطيب ابو جديرى المحامى، والذي كان موجوداً أيضاً هناك، أن يقوم بتوصيله إلى منزله بحى الشهداء بأم درمان، حيث كان الطيب يهم، هو الآخر، بالعودة إلى منزله بمدينة الثورة شمال أم درمان مروراً بحى الشهداء. لكن ثمة روايتان مختلفتان في هذا الشأن:

الأولى: هي رواية الطيب أبو جديرى نفسه، ومفادها أنهما، عبد الخالق والطيب، سمعا، في طريق جسر النيل الأبيض، أصوات طلقات كلاشينكوف وبعض دانات الدبابات تأتى من جهة وسط الخرطوم. لكن، ولأنهما كانا قد تركا تلك المنطقة هادئة، قبل لحظات، بعد انفضاض الموكب، فقد غلبا، للوهلة الأولى، أن لذلك علاقة بالاجراءات الأمنية التي كانت تشهدها البلاد في ذلك الوقت، فواصلا سيرهما، حيث قام الطيب بتوصيل عبد الخالق إلى منزله بحى الشهداء بأم درمان![1].

الثانية: طلبت مصادرها الأساسية عدم ذكر أسمائها، وقد سبق أن ألمحنا إليها، عرضاً، ضمن الفصل بعنوان (ثقوب في

---

(1) افادة الطيب أبو جديريللكاتب،سبق ذكرها.

جدار التأمين). فعندما فاجأت بداية الانقلاب المضاد كلاً من عبد الخالق وأبو جديرى، وهما في الطريق إلى جسر النيل الأبيض، طلب عبد الخالق من أبو جديرى أن يوصله لمنزل قريبه (...) بمنطقة الخرطوم غرب، وكان يشغل، حتى وقوع انقلاب العطا، منصباً كبيراً في نظام النميري. لكن عبد الخالق ما كاد يستقر في بيت قريبه هذا للحظات، حتى قرر، فجأة، أن يتوجه، قبل معاودة الاختفاء، إلى منزله بأم درمان، رغم أن أم درمان لم تكن، في أى وقت، ضمن الخيارات الحزبية التأمينية بالنسبة لعبد الخالق، حيث أن شخصيته مألوفة للناس في جميع أحيائها، رجالاً ونساءً، كباراً وصغاراً!

لم يكن (...) عضواً بالحزب لكى يكون لديه نظر (تنظيمى) في ما يتعلق (بتأمين) عبد الخالق. وكل ما كان يربطه به هو علاقة العشيرة، بالاضافة إلى جمايل متبادلة بينه وبين الحزب في فترات مختلفة! لذلك فقد طرح أمامه، بتقديرات (مهنية) خاصة، قدراً كبيراً من المحاذير والمخاوف التي قد تترتب على تلك الخطوة المرعبة! لكنه، في النهاية، وتحت إصرار عبد الخالق، قام بتوصيله بعربته (الحكومية!) إلى منزله بحى الشهداء بأم درمان، عابراً به جسر النيل الأبيض الخاضع للتفتيش، والشوارع المكتظة بجنود الانقلاب المضاد، وهو يرفع يده، بين الفينة والأخرى، ليرد (تحية) عناصر (أمن نميري) الذين كانوا قد خفوا لمزاولة عملهم، بينما كان النميري نفسه يخف مسرعاً، في تلك اللحظات، إلى أجهزة الراديو والتلفزيون، ليبث هديره الموتور يحرض على ملاحقة

الشيـوعيين وزعـيمـهم وقادتهم الآخـرين، متوعـداً إياهم بالويل والثبور وعظائم الأمور!

أياً كانت الرواية الصحـيحة، فمنذ تلك اللحظة التي انتقل فـيها عبد الخـالق من الخرطوم، مكمن تأمينه، إلى أم درمـان، بدأ الثقب المأسـاوى في جدار تأمـينه في الاتسـاع، وذلك وفقـاً لتقـديرات مسئولين مختصين بهـذا المجال في قيادة الحزب، مما أدى، نهائياً، إلى فقدانه الاتصال المؤسسى بالجهة الحزبية المسئولة عن تأمينه، وبالتالى إلى كارثة اعتقاله ومحاكمته وإعدامه!

●●●

عند وصوله لمنزله أمسى واضحاً لعبد الخالق أن محاولة كسر شوكـة 19 يوليو وإعادة نميري إلى السـلطة تقترب من فصـولها الأخيـرة. فوسط قصف الرشاشـات ودوى المدافع قطعت اذاعة أم درمان برنامجاً للاذاعى ذو النون بشرى كان يسـتضيف فيه كلاً من الفنان مـحمد وردى والشـاعر محـجوب شريف، وبـثت بياناً باسم الرائد هاشم العطا بصوت الاذاعى عـبدالرحمن أحمـد يشير إلى أول أنبـاء ترد حول قـتال يدور وتـدخل أجنبى يقع! ثم بدأت الاذاعة، من تلك اللحـظة، تردد النداءات تباعاً لجـماهير (أكـتوبر) للخروج لحماية الثورة، وفيـما بعد أضاف العطا الى بيانه السابق "ان قواتنا تقف الآن بصلابة في مواجـهة التدخل الأجنبى وإننى أناشـدكم ـ أيهـا المواطنون ـ للخـروج للدفـاع مـع قـواتكم عن ثورتكم".

ـ "إذا خرج نميري حيـاً من وسط هذا القصف، وعاد للسلطة، فسوف ينكل بالشيوعيين"! همس عبد الخالق لزوجته نعمات.

وما كـاد يكمل عبارته حتى تلقـى اتصالاً من هاشم العطا نقل إليه، من خلاله، أن معارك عنيفة تدور، وأن ثمة محاولة انقلابية مضادة تهـدف لإعادة نميري للسلطة، بل الأدهي أن نميـري نفسه قد هرب، وسط تلك الملابسات، من معتقله!

دقائق أخـرى وعاود كل من هـاشم والمقدم مـحجوب (طلـقة) الاتصال ليؤكـدا هروب نميري، فتمنى لهـما عبد الخـالق التوفيق، قائلاً: "شدوا حيلكم لآخر لحظة"[1]. ولعل ذلك كان آخر اتصال بينهما.. وللأبد!

وفي مذكراته يشير شوقى مـلاسى إلى واقعة ذات دلالة مهمة في هذا الصدد، مفادها أن الكاتبة والأديبة خديجة صفوت، شقيقة زوجـته، تمكنت، في تلـك اللحظات، من التقـاط مـحادثة سـارعت لتـسجـيلها على شـريط كـاسيت، وكـانت تدور بين الرائد هاشم العطا، من مكتب القائد الـعام، وبين الطيار الحربي وعـضو تنظيم الضبـاط الأحرار صبرى أرباب، مـن قاعدة وادى سيـدنا الجوية بشمال أمـدرمان. حدث ذلك بمحض الصدفة عندما كـانت خديجة تحاول الاتصال هاتفياً بالقيادة العامة للوقوف على جلية ما يجرى من بعض مـعارفـها هناك. وكـأن مما جاء في تلك المحـادثة، وفق ملاسى:

- "صبـرى أرباب: يمكننى إصدار الأوامر لطائرات الهـيلكوبتر بقصف الدبابات المعادية وإخراجها من المعركة في لحظات.

---

(1) إفادة نعمات للكاتب، سبق ذكرها.

- هاشم العطا: لا.. مهما حدث ويحدث فأنا ضد وقوع مجزرة دموية في الخرطوم قد تطال المدنيين" ![1].

●●●

لم يعد ثمة متسع من الوقت. وقد بدا جلياً، في تلك اللحظات، أن عبد الخالق كان قد أخذ يستشعر تزايد احتمالات الخطر على المستويين العام والخاص، فقال لزوجته:

- "عودة نميري يا نعمات تعنى تهديداً مباشراً ليس للحزب فقط، وإنما لحياتى شخصياً، بل ولحياتك أنت والطفلين أيضاً. غير أننى أريدك أن تعلمى أنه، ومهما تكن فداحة ما يمكن أن يحدث لى خلال الأيام القليلة القادمة، فهذا هو بالضبط ما ظللت أتوقع حدوثه طوال حياتى السياسية منذ أن وضعت أقدامى على أولى عتبات هذا الطريق الذي اخترته وسلكته باقتناع تام".

وأردف قائلاً إنه يحتاج أن يختلى بنفسه "لخمسة أيام فقط"، فثمة أشياء لا بد من تسجيلها كتابة قبل أن يختفي، تحسباً لأى احتمال للقبض عليه، كما طلب منها أن تختفي هي والطفلين أيضاً لبعض الوقت[2].

بعد ذلك شرعا، هو ونعمات، في جمع الأوراق والوثائق الأكثر أهمية وخطورة لتمزيق بعضها وإحراق بعضها الآخر. وفي أثناء ذلك ناقشا على عجل أمر اختفائه، فاتفقا على أن ظروف المباغته وضيق الوقت ربما لن تمكن رفاق الحزب من الاتصال به لتدبير

---

(1) شوقي ملاسي؛ أوراق...، ص153، سبق ذكرها.

(2) إفادة نعمات للكاتب،سبق ذكرها.

هذا الأمر بالسرعة اللازمة، ولذلك فإنه سوف يتعين عليهما القيام بالمهمة وحدهما!

ورداً على سؤالي حول فقدان الحزب الاتصال بعبد الخالق لتأمين حمايته قال لي التجاني الطيب، أحد قدامى مؤسسي الحزب وسكرتير لجنته المركزية:

- "وأين كان الحزب نفسه حتى يفقد الاتصال؟! لقد بلغت الحالة التنظيمية للحزب أدنى مستوياتها في تلك الأيام الصعبة. كان بالفعل قوة معنوية هائلة تلهم الذين بقوا أحياءً وخارج الاعتقال، ولكن.. بلا تنظيم! كنا معاً، الجزولي سعيد وأنا ومعنا بعض الزملاء، ثلاثة أو أربعة، من مواقع متفرقة. كان الهم الأول هو المحافظة على كل من يُعثر عليه، ومواصلة البحث عمن يكون قد أفلت من بين مخالب الردة. كانت عملية البحث شاقة ومحفوفة بالمخاطر في كل لحظة. ولكن بالتدريج، وإن كان ببطء شديد، أخذت عملية البحث تؤتي ثمارها. ظهر فاروق زكريا وسليمان حامد ويوسف حسين ونقد وأنور زاهر ومحمد محمود السنجك وغيرهم، واتضح أنهم هم أنفسهم كانوا، من جهتهم، يبحثون عنا. وهكذا كان علينا الانتظار حتى أواخر أغسطس وأوائل سبتمبر 1971م كي يتوفر لنا الحد الأدنى من إمكانية التنظيم. وفي سبتمبر، بالتحديد، أمكن للجنة المركزية عقد أول اجتماع أعطى العمل المنظم دفعة كبيرة"[1].

من جهته، وفي ذات المعنى تقريباً، يفند الخاتم عدلان، الكادر الشيوعي السابق الذي غادر صفوف الحزب الشيوعي في

---

(1) إفادة التجاني للكاتب، سبق ذكرها.

منتصف تسعينات القرن الماضى، الأقاويل التي انطلقت تروج، لاحقاً، لمؤامرة ما دبرت بليل لنحر عبد الخالق بغرض التخلص منه كسكرتير سياسى للجنة المركزية للحزب! ولأن إفادة الخاتم صدرت بعد مفاصلته مع الحزب، فإنها تكتسى، في رأينا، أهمية خاصة، ولذلك نجتزئ منها الفقرة المطولة الآتية: "كان من المفروض بمجرد ظهور إرهاصات الهزيمة أن يأتى جهاز الحزب السرى ويؤمن عبد الخالق ويضعه بعيداً عن المخاطر، وهو ما لم يحدث بالطبع.. ليس لأن هناك مؤامرة دبرت في تلك اللحظات الحالكة للتضحية بعبد الخالق، فالحزب لم يكن قادراً وقتها حتى على التآمر. أقول هذا فقط لاستخدام الظروف السائدة وقتها في البرهان على مقولتى، وليس لأن هناك من كان يفكر في تلك المؤامرة ولم يستطع تنفيذها. أى أنه حتى اذا كان هناك من يريد التضحية بعبد الخالق لأى سبب خاص به، فانه لم يكن يملك أن يجتمع بالجهاز السرى في تلك اللحظات ليبلغه بمثل هذا القرار! المسألة اذن لا تتعلق بقرار حزبى أو تآمر فردى أو جماعى على حياة عبد الخالق. ولكنها ببساطة إنهيار الأجهزة الحزبية في تلك اللحظات بما فيها الجهاز السرى المسؤول عن تأمين القيادة. ونسبة لأنى على معرفة ما بهذا الجهاز، فأرجو أن أقول كلمات قليلة تكفي للبرهان على ما أقول دون أن تضير أحداً من قريب أو بعيد. النقطة الأولى هي أن هذا الجهاز، مثله مثل بقية الأجهزة، ليس بالكمال الذي يظنه فيه البعض، سواء من قبيل الجهل بالشئ أو حسن النية في الحزب. وأعلم تماماً أن قادة الحزب الآخرين، وتحديداً الأساتذة محمد إبراهيم نقد والتجانى الطيب بابكر

والجزولى سعيد وسليمان حامد، إختفي كل منهم بطريقته الخاصة، واجتمعوا فيما بعد، من فرط ضيق الامكانيات، في غرفة واحدة أقاموا فيها عدة أشهر، في منزل لا يمكن أن يقال عنه بأية حال من الأحوال أنه منزل (سرى)، وفي وضع بالغ الهشاشة كان يرشحهم فرادى ومجتمعين للوقوع في يد السلطة، وربما الانتهاء إلى نفس المصير الذي انتهي إليه عبد الخالق محجوب. وهذه مسائل تاريخية فوق الكيد والمكائد، فقد لعب هؤلاء الرجال في تلك اللحظات أدواراً بطولية بالفعل. ويجب ألا تدفع الخلافات اللاحقة معهم أى شخص إلى التخلى عن المصداقية في وصف حالهم وأدوارهم، لأن من يفعل ذلك يكون هو الخاسر وليس هم"[1].

ومع كل تلك الظروف التي أوضحها التجانى والخاتم فإن عبد القادر الرفاعى، الكادر القيادى بالحزب، يؤكد أن الكثير من أعضاء الحزب أسهموا في الجهود التي بذلها 19 رجلاً وامرأة لإخفاء عبد الخالق. فبتكليف من قيادة الحزب أكملتُ "في يونيو 1973م.. كتابة التفاصيل التي أحاطت باعتقال المرحوم عبد الخالق في حى أبى روف.. بعد مقابلة كل الذين شاركوا في عملية إخفاء عبد الخالق وعددهم 16 من 19، إذ تعذر على مقابلة سيدة ورجلين لم تسمح ظروف التأمين باللقاء بهم ـ الرجال كانوا في مواقع حساسة أمنية ووزارية ـ وسلمت التقرير الذي جاء في قرابة الخمسين صفحة، وهذا التقرير موجود ضمن أرشيف الحزب ويفيد كثيراً نشره لفائدته وللحقيقة والتاريخ كذلك"[2].

---

(1) الخاتم عدلان؛موقعsudaneseonline.com

(2) د. عبد القادر الرفاعى؛ "الفصل الأخير في حياة عبد الخالق محجوب"، مقال من حلقتين بصحيفة الايام، السودانية، العدد/ 7458، الخرطوم في 12/9/2002.

غيـر أن لأحد الكوادر السابقـة في الحزب الشيـوعي رأى آخر حول مصيـر التقرير نفسه الذي أشار اليـه الرفاعى أعلاه، حيث يقـول: "إن نشر التـقرير (غـير منتج) و(يسـتحـيل عمليـاً) لأنه وببساطة فإن ذلك التقـرير، وقبل مناقشة السكرتارية المركزية له، تم إعدامـه حرقاً عن طريق عضـو الحزب (ك.ك)، حيث اسـتأمنه المناضل المرحـوم الجزولى سـعيد عليـه، لكنه قام بالخـلاص منه حرقاً (حرق ك نصفه) وحرق (القشاش) النصف الآخر! وقد كان (حريق التقرير) سبباً ضـمن أسباب أخرى تقرر بها فصل (ك.ك) من الحـزب. لكن بعد انتـفاضـة 1985م (لم يستـعص على ك.ك الأمر) وعاد نجماً ساطعاً في سماء الحزب، على الرغم من أن فرع السكن رفض بالاجماع استعادته للعضوية تلك"![1].

أمـا اللافت للنظر حـقـاً فـهـو أن سكرتاريـة اللجنة المركـزية للحـزب، في معـرض تقيـيمهـا لانقلاب 19 يولـيو الصـادر عام 1996م، لم تشر مطلقاً إلى ذلك التقرير وما حواه!

ويتضـمن مقـال الرفاعى المشـار إليه إفادة عـثمان مـصطفي، عضو فرع الحزب بأب روف، بأنه تلقى اتصالاً هاتفياً من المرحوم طه الكد وآخر، حـيث طلبا إليه المشاركـة معهمـا في توفير مخـبأ للمرحوم عبد الخالق، فنصحهما بأهمية اللقاء المباشر لعدم سلامة الحديث فـي مثل ذلك الأمر عـبر الهـاتف، ثم سعى بعـد ذلك في إعداد منزل عـمه. كمـا تؤكد فائـزة أبو بكر، عضوة فـرع الحزب بأبروف، أن "الزملاء.. بذلوا قصارى جهـدهم لتأمين الزميل عبد

(1) محـمد على خوجلى: "الفـصل الأخير في حـياة القائد الوطنى عـبد الخالق محجوب" (1-3)، صحيفة الأيام.

الخالق، خاصة الجهود التي بذلهـا كل من عثمان مصطفي والطيب محمـد الفضل، بل إن العديد من سكان الحى أبدوا أسـفهم بعد أن عرفوا بأن عبد الخالق كان مـختبئاً بالحى، وأكدوا بأنهم لو كانوا يعلمون ذلك لما تمكنت السلطة من الوصول اليـه، خاصة الصحفي الراحل بشير محمد سعـيد الذي وجه اللوم لأعضاء الحزب بالحى لأنهم لم يضـعوه فـي الصورة. وللتـاريخ أشـير الى أن الزمـيل السـابق (ب.م.أ) قد تحـفظ، فعندمـا ذهبت إليه بهـذا الخصـوص رفض المشاركة في الجهد المبذول لإخفاء عبد الخالق، بل طلب منى عدم الاتصال به مرة أخرى، وقد اتضح فيـما بعد أنه اتخذ موقفاً ضمن المنقسمين عن الحزب وخرج منه"[1]!. كذلك يشير الرفاعى في مقاله المهم إلى تحسر طه الكد فيما بعد قائلاً: "لو علمت يومها أن منزل المسـتشار بمنظـمة اليونسـكو والذي يعمل خـارج البلاد خالياً لما ظفر القتلة بهذا القائد العظيم ولتبدل الحال تبدلاً ظافراً".

كذلك أسهم أصـدقاء الحزب ببسالة في ذلك الجهـد. فقد أورد الرفاعى أيـضاً إفادة المرحـوم بكرى السمـانى له، وكان صـديقاً للحزب، بأنه سمع، في حوالى الساعة الواحـدة من صباح الجمعة 23 يوليو 1971م، طرقـاً على الباب، فخـرج وصهره لاستـجلاء الأمر، ليجد المرحوم طه الكد الذي طلب إليهما المشاركة في تجهيز مخبأ لإخفاء عبد الخالق مـحجوب لفترة أقصاها ثلاثة أيام، ريثما يرتب أحواله، فوافقا على الفور.

---

(1) افادة فائزة أبوبكر للكاتب، مسجلة بأمدرمان في 18/1/2005م.

من جهة أخرى فإن محمد إبراهيم نقد، الذي صادف اللحظات الأولى للانقلاب المضاد بمنزل حامد الانصارى وسعاد إبراهيم احمد بالخرطوم/1، كان قد استشعر خطورة الوضع المعقد الذي سيواجهه عبد الخالق بانتقاله لأم درمان، فوجه فوراً بعض أعضاء الحزب الذين كانوا موجودين هناك أيضاً، ومن بينهم صدقى كبلو ومحمد الجاك الطويل، "للاسراع في السعى لمعرفة مكان عبد الخالق وتأمينه وحمايته بإعادته لأى من المواقع المعدة أصلاً لاختفائه بالخرطوم"[1]. وبالفعل بذل هؤلاء كل ما يمكن بذله من جهد في سبيل الوصول إلى عبد الخالق، تحت ذلك الظرف الدقيق، لكن الوقت كان قد فات. فعندما تم التأكد من أنه موجود بمنزله بحى الشهداء بأمدرمان كانت جميع جسور العاصمة قد أغلقت بواسطة قوات الانقلاب المضاد التي كانت قد شارفت على إتمام عملية إعادة النميري الى السلطة، وأصبحت إعادة عبد الخالق للخرطوم غير ممكنة عملياً!

وفي مستوى العلاقات الانسانية انخرط المرحوم عبد الله عبد الرحمن نقد الله، صديق عبد الخالق والقيادى البارز، وقتها، في حزب الأمة، هو وأفراد من أسرته، في بحث مضن عن عبد الخالق لإنقاذ حياته، طوال تلك الأيام الكالحة، ولكن بلا جدوى، خاصة وأن الوضع كان قد تعقد أكثر بمغادرة عبد الخالق منزله إلى جهة غير معلومة، إذ لم يكن بإمكانه، بطبيعة الحال، البقاء فيه لوقت أطول!

●●●

---

(1) افادة د. صدقى كبلو للكاتب بوايت سيتى بلندن عام 2004م.

وثمة (شائعة) قوية سرت في أوساط الشيوعيين، لاحقاً، ربما تحت وطأة الاحساس المبرر بمزيج من الغبن والغضب والحزن وخيبة الأمل، مضافاً إلى ذلك كله حالة الحيرة والارتباك التي تملكت القواعد بإزاء السرعة غير العادية التي تلاحقت بها الأحداث، وعدم القدرة، بالتالي، على معرفة كيف جرى ما جرى، ولماذا! فحوى (الشائعة) أن الحزب كان قد سعى، خلال تلك الأيام، لإخراج عبد الخالق من السودان، وأن شاحنة (لوري) كانت قد جهزت، فعلاً، لترحيله عبر حدود السودان الشرقية إلى أثيوبيا، لولا أن زميلين استقلا تلك الشاحنة، لعدم إلمامهما بالخطة أو لتقديرات خاطئه، إلى المناطق الحدودية الواقعة تحت سيطرة الثوار الارتريين! ولكن التجاني الطيب وسعاد إبراهيم احمد نفيا لي، في مناسبتين مختلفتين، تلك (الشائعة) نفياً قاطعاً.

أما في ما يتعلق بمسألة سفر عبد الخالق إلى خارج البلاد بعد نجاح تهريبه من معتقل سلاح الذخيرة، فقد تم بحثه، بالفعل، في المكتب السياسي للحزب عندما أبلغه هاشم العطا بأن السلطة تخطط لاغتيال عبد الخالق، وتقرر "إصدار بيان يكشف الأمر للشعب وللرأى العام العالمي، كما طرحت عدة مقترحات، منها انذار أعضاء مجلس الثورة من أى مساس بحياة عبد الخالق، ومنها البحث في تهريبه لخارج البلاد"[1]. لكن محمد محجوب عثمان يتساءل: "هل يعني خروج عبد الخالق من البلاد خروجاً من مأزق المواجهة المحتدمة بين السلطة والحزب، واختزالها مبتدأ

---

(1) محمد محجوب؛ الجيش... سبق ذكره، ص62.

وخاتمةً في شخص سكرتير الحزب؟! هل أن محاولات سكرتير الحزب لكسر قيده تمركزت في بحثه عن سلامة شخصية، أم كان نضالاً من جانبه للالتحام بالحزب، وهو المسئول الأول في ظروف غاية الدقة والتعقيد تحتاج إلى إسهامه؟! ثم من أين للمكتب السياسي أن يعلم أن سكرتير الحزب سيوافق على اقتراح كهذا يقضى بإبعاده خارج البلاد بما ينطوى عليه هذا من اهانة؟! أيتفرق مصير ذلك الرجل بين قرارات إبعاد من السلطة تارة، ومن قيادة الحزب تارة أخرى"؟![1].

كما تحفظ محمد محجوب، ابتداءً، على كلمة (هروب) التي استخدمتها قيادة الحزب في وثيقتها حول تقييم الانقلاب في أكثر من موضع، مشيراً إلى أن كلمة (تحرير) هي الأنسب. وقال إن صفة (الهروب) فيها ".. مجافاة لواقع رجل كسر قيده ليكون في موقعه الحزبى في تلك الأوقات الحرجة من حياة الحزب. إستعمال لفظ هروب كريه"![2].

على كل حال فإن عبد الخالق نفسه، بعد نجاحه في الهروب من سلاح الذخيرة، رفض، في ما يبدو، مبدأ التفكير في تدبير أمر تسلله خارج البلاد، وأصر على البقاء بالداخل لتصريف مهامه كسكرتير للحزب!

●●●

ما أن فرغ عبد الخالق ونعمات من احراق الوثائق والمستندات الخطيرة في منزلهما بحى الشهداء، حتى انتقلا مع الطفلين بعربة

---

(1) المصدرالسابق، ص61.

(2) المصدر نفسه.

أجرة إلى منزل أسرة نعمات بحى العرضة بأم درمان. وهناك حانت لحظة الفراق الذي سرعان ما سيكون.. نهائياً وأبدياً!

إرتدى عبد الخالق جلباباً أبيض وعمامة، ثم قبل طفليه، وعانق زوجته، وشدّ على يدها مودعاً. أصر المرحوم أحمد مالك والد نعمات إصراراً شديداً على توصيله بعربته إلى حيث يشاء، فركب عبد الخالق العربة التي أسرعت تعبر به الشوارع المكتظة بالناس وهم يتابعون مجريات الاحداث المرعبة، بينما زخات الرصاص تشق عنان السماء، والشائعات تتراكض وتتقافز من فم إلى آخر في الازقة والحارات والأسواق.

وصل أحمد مالك بزوج إبنته إلى مدينة الثورة شمال أمدرمان، وتوقف، حسب طلبه، أمام منزل أحد معارف عبد الخالق من غير الشيوعيين بالحارة الأولى، حيث ودعه وانطلق مبتعداً بعد أن طلب منه عبد الخالق ذلك.

●●●

طرق سكرتير الحزب الشيوعي الباب، ففتح له ودخل. كان عبد الخالق قد تعرف على صاحب المنزل ونشأت بينهما صداقة إنسانية عميقة قبل سنوات من ذلك، إبان مشروع تأسيس (الحزب الاشتراكى). وقد ترسخت صلاتهما الانسانية حتى بعد صرف النظر عن المشروع. ويبدو أن عبد الخالق كان يدخره لمثل تلك الملمات، فاحتفظ بعلاقتهما بعيداً عن دوائر أنشطة وعلاقات الحزب. لكنه ما كاد يتخذ مجلسه على أحد مقاعد الصالون، حتى لاحظ إمارات القلق والحرج بادية بوضوح على وجه مضيفه

وتصـرفـاته، فـالمذياع والتلفـاز يهـدران (بدحـر) انقـلاب العطا، وبعـودة نميـري (المظفـرة)، وبطلـب القـبض على الشـيـوعـيين وزعيمهم. وإذن فـها هو الخطر قد بدأ يدنو أكثر فأكـثر. وما كان للضعف الانسانى الذي غالباً ما يعـترى الكثير من البشر في مثل تلك اللحظات أن يفـوت على فطنة وحـساسـيـة قائد جـماهيـرى تاريخى كعبد الخالق! فـاتخذ قراره فوراً، ودون أدنى تردد، حيث انتهز أول فرصة ليغافل مضيفه، ويفتح الباب الخارجى، ثم يغادر دون أن يلحظ ذلك أحد من أهل الدار![1].

كانت عقارب الساعة تشـير إلى ما بعد منتصف الليل، وصوت الرصـاص يلعلع من شتى المـواقع والجهـات، بينما عـبد الخـالق يتسلل على قدميه، عبر أزقة الثورة وحاراتها المعتمة، ميمماً ناحية الجنوب الشـرقى. وعلى حين كان يعـبر مـتعـثراً بين القـبور في مدافن (أحـمد شـرفي)، تحت جنح الظلام المخيم على المديـنة مثل رخ هائل، كـان يبصـر المصـابيح الشاحـبة تـلوح على البعـد من أمدرمان القديمة. ولم يكن يعلم، وهو يغز السير، لحظتها، عبر تلك

---

(1) امتنـعت إحدى مصـادرى، والتي كانـت قد قدمت أيـاد بيضاء لـهذا التوثيق في مناسـبات أخرى، عن كشف اسم المضـيف، مستعـصمة بأن (المجـالس بأماناتهـا)، حسب المثل السـائر! وفيـما بعـد، وأثناء البـحث المضنى عن الوقائـع، وجدت من أفـصح لى عن اسـم الرجل، لكنه اشـترط على أيضـاً عدم الاشـارة إليه "في الوقت الحـالى على الأقل" كما قال! وإذ أعترف للمصدرين بهذا الحق، لا بد لى أيضاً من تسجيل تحفظى على مثل هذا الضـرب من القيم (الأخلاقيـة) السالبة التي تعـوق تدوين وتوثيق الكثيـر من تاريخنا، بل وتعين على إهدار أهـم دروسه!

المقابر، أن واحدة منها سوف تضم، بعد ساعات قلائل، جسد واحد من أندر ضباط يوليو إخلاصاً وشجاعة، بعد أن يكون قد استبسل في مقاومة الانقلاب المضاد، محتضناً سلاحه داخل مباني القيادة العامة، رافضا التسليم بالأمر أو الاستسلام للأوامر.. المقدم محمد احمد الريح!(1).

●●●

وإذن فقد عاد النميري بكامل نظامه. وقبل ذلك كانت العاصمة قد شهدت مواجهات عسكرية عنيفة بين قوات هاشم العطا من جهة وقوات الانقلاب المضاد من الجهة الأخرى، خاصة في منطقة القصر الجمهورى وسلاح المدرعات بالشجرة. ووقعت، ضمن تلك المواجهات، تصفيات جسدية لم يكن السودان قد شهد مثلها حتى ذلك الوقت، وقد راح ضحيتها عدد كبير من الضباط الذين كانوا رهن الاعتقال ببيت الضيافة الملحق بالقصر قبل تحرك الانقلاب المضاد. فسارع نظام نميري، في التو، وقبل إجراء أى تحقيق، لاتهام قوات هاشم العطا والحزب الشيوعي بتدبير تلك المذبحة، واتخاذها مبرراً إضافياً لنصب مذبحة مضادة بالمقابل! وفي هذا

---

(1) ضمن إفادته لى كشف العميد معاش منير حمد العضو الثانى في محاكمة عبد الخالق محجوب عن المكان الذي دفن فيه المقدم محمد أحمد الريح عضو مجلس قيادة الثورة في انقلاب 19 يوليو والذي رفض الاستسلام وتخندق بمكتبه بالقيادة العامة وظل يقاوم ببسالة نادرة حتى اضطرت قوات نميري لهدم مكتبه عليه (بدانة) أودت بحياته، وقد أكد العميد منير حمد بأنه هو والعقيد الرشيد نور الدين قد أشرفا ليلة 22 يوليو على دفن جثمانه بمقابر أحمد شرفي بأمدرمان.

الصـــدد يشيــر أحد ضــباط 19 يوليــو من المشــاركين في تنفيـذ الانقلاب والمقاومة إلى بعض الحيثيـات الأخرى، بخصوص حقيقة ما تم في بيت الضــيافة، قــائلاً: " ان الكثيــر من الأدلة والبراهين تثبـت أنه لم يكن للحزب عــلاقة بما حــدث في بيت الضيـافة وأنه حــتى التنظيم الذي نفـذ الانقــلاب لم يكن في حــساباتــه مســألة التـصفـيات الجــسدية أو اراقة أى دمــاء، وان ما حــدث في بيت الضيــافة كان تصرفــاً فردياً يستــوجب الشجب والادانة (...) ان جهة آمــرة في التنظـيم أصدرت أمراً فــردياً بتنفيذها وقام ضـابط أو اثنان مع جنودهما بتنفيذ جزء من المجزرة "![1].

كان من بين ضباط يوليو الذين وجه اليــهما الاتهام بالمشاركة في تلك المذبحــة بشكل مــباشــر كل من الضــابطين أحمــد جبــارة مختار وأحمــد عثمان الحردلو اللذين جرى اعدامهما بعـد محاكمة عسكرية مــتعجلة. وقد يكون مــن المفيد أن أنقل هنا ما لمســه أحد المعتــقلين الضباط، والذي لازم أحمــد جبارة أثناء اعتــقاله في تلك الأيام، وسجل مشــاعره وحدسه الانسانــى الفطرى تجاه شخص متهم بتلك التهمة الشنيــعة، قال: عندما أدخل علينا "كان أول شئ فعله.. وضـع مــسند تحت رأسه، واستسـلم لنوم عميق مصــحوباً بشخيــر.. نوم لا يزور من قتل نفســاً.. كانت صورة أحمــد جبارة وهو في نومــتــه تلك تلوح أمــامي كلمــا تحــدثوا عن اتهــامــه هو وصديقه الحردلو ذلك الضابط النبيل ود الناس الذي رموه بالفعل

(1) عــبـدالعظيم عـوض ســرور: "حــول تقــيــيم الحــزب لحــركـة 19 يوليــو1971م". م/ قــضـايا ســودانيــة، أوراق حــوار غيــر دورية، العدد/ 14، أكتوبر 2000م، ص36.

زوراً.. لا زال هناك أحياء ممن نجوا من بيت الضيافة لماذا لا تستنطقوهم ليقولوا حقيقة ما جرى بعد أن استعجلوا إعدام الحردلو وأحمد جبارة"![1].

اذن فإن جدلاً ولغطاً كبيرين دارا، وما زالا يدوران، حول أصل وفصل تلك التصفيات الدموية، وحول ذلك الانقلاب المضاد نفسه الذي أعاد النميري إلى السلطة، وحول تركيبة قواته، وطبيعة توجهات الجنود وضباط الصف الذين حركوه، وما اذا كانت نواياهم قد اتجهت بالفعل لإعادة نميري إلى السلطة، أم أنهم تحركوا في إطار انقلاب آخر مستقل عن الطرفين، بل واستهدف إبادة الطرفين!

لقد ظلت تلك الأسئلة وغيرها بلا إجابة حاسمة حتى الآن، بسبب العجلة و(الكلفتة) والدموية التي تعامل بها نظام النميري، منذ الوهلة الأولى. ورغم أنه شكل بنفسه، في وقت لاحق، لجنة برئاسة القاضي حسن علوب للتحقيق في مجزرة بيت الضيافة، إلا أنه عاد، بعد أن أنجزت اللجنة مهمتها ورفعت تقريرها النهائي، فضرب ستاراً من التكتم على ذلك التقرير، مما يشي بأنه جاء بالمخالفة للاتهامات التي كالها النظام للحزب ولقادة انقلاب يوليو! ولعل مما يعضد هذه الفرضية بعض الشهادات الأمينة التي أدلى بها بعض الكتاب والصحفيين بعد إقصاء النميري من السلطة في إثر الانتفاضة الشعبية التي أطاحت بنظامه في مارس/أبريل عام 1985م.

---

(1) أحمد طه،موقع sudaneseonline.com.

من تلك الشهادات ما سطره قلم الصحفي المخضرم محمود ادريس الذي لا تستطيع أية جهة أن تربطه بالحزب بأية رابطة فكرية أو سياسية، حيث استبعد تماماً مسئولية الحزب أو قادة 19 يوليو عن مجزرة بيت الضيافة، فقد كتب يقول ضمن سلسلة من المقالات: ".. وهي شهادة صحفي تتبع أحداث ذلك اليوم وما بعده، ولم يعرف عنه حب للشيوعيين، بل ربما تأذى منهم يوماً ما.. كنت في أعوام 1975م و 1976م قد نقلت للعمل سكرتيراً للتحرير بجريدة الصحافة.. وبهذه الصفة كنت أطلع على الأخبار قبل نشرها بطبيعة الحال.. وأثناء محاكمات عطبرة (إنقلاب حسن حسين وصحبه) تلقيت ما دار في جلسة أحد الأيام.. وكان مضمونها أن أقوال الرائد المرحوم شامبى أفادت بأن انقلاب 22 يوليو الذي أعاد نميري في 1971م بعد حركة المرحوم هاشم العطا لم يكن من أجل إعادة نميري للسلطة، وإنما كان من أجل القضاء على جماعة هاشم العطا وجماعة النميري على السواء.. إتصل بى مسؤول بالاتحاد الاشتراكى وطلب منى في نبرة أمر عدم نشر ما دار في محاكمات عطبرة في اليوم المذكور، ولما كنت ناقلاً لكفر فقط ولست بكافر، فقد أذعنت للأمر"![1].

ويعضد من إفادة محمود إدريس تلك ما حدثنى به كمال الجزولى، بعد سنوات، من أنه التقى، خلال رمضان عام 1992م، في بيت الأشباح المجاور لعمارة (سيتى بنك) بالخرطوم، حيث

---

(1) ضمن د. عبدالله على إبراهيم؛ "شهادات وأخبار في رثاء عبد الخالق محجوب"، مقال بجريدة الفجر اللندنية، العدد رقم63، يوليو 1998م.

كان يقضى فترة اعتقال سرى هناك، بالرقيب السابق بسلاح المظلات والقوات الخاصة الفكى كنو الفكى الذي كان قد اعتقل أيضاً ضمن مجموعة ضخمة من أبناء جبال النوبا، عسكريين ومدنيين، في ملابسات حركة مسلحة اتهموا بأنهم كانوا يخططون لها ضد نظام البشير. وأن الفكى روى لكمال أنه شارك في انقلاب جعفر نميري عام 1969م، ونال وسام (نجمة مايو) بعد نجاح الانقلاب واستلام السلطة. وأن ما دفعه، هو وبعض زملائه ضباط الصف من أبناء الجبال في مختلف الوحدات بالجيش، للمشاركة في تنفيذ إنقلاب مايو، الطرح الأخلاقى العالى والصادق عن الفساد وغيره الذي اعتمده من تولوا تنويرهم بأهداف ذلك الانقلاب في ليلته بمنطقة خور عمر العسكرية. ولكنهم سرعان ما فجعوا في نميري وكثير من أعضاء مجلسه حين لمسوا بأنفسهم مظاهر الفساد الشخصى الذي غرقوا فيه بعد أن تولوا السلطة، ولم يكونوا يتورعون عن ممارسته علناً! ثم مضى الفكى يروى لكمال كيف أنهم ظلوا يناقشون الأمر في ما بينهم، ويتحينون الفرص للاطاحة بتلك المجموعة التي خدعتهم واستغلتهم في إنجاز انقلابها وتثبيت سلطتها! وقال: عندما وقع انقلاب هاشم العطا، بعد ظهر 19 يوليو 1971م، كنا في حالة تدريب في القيادة العامة على بعض مهارات القوات الخاصة. ففوجئنا بهاشم يحضر إلينا في ثلة من ضباطه وجنوده، وفي كامل زيه العسكري، رغم أنه كان مبعداً من مجلس الثورة ومن الجيش. ووجه كلاماً مراً للنقيب المسئول عن تدريبنا، والملقب (بالقذافي)، وكان من المعروفين بولائهم للنميري وزمرته، ولكننا اعتبرنا ذلك الكلام

إهانة لقائدنا المباشر لم نقبلها، جرياً على تقاليد العسكرية وأعرافها. وزاد الطين بلة أن هاشم أمر جنوده بالاشراف على وضعنا في العنابر، بلا أعباء، ومجردين من السلاح، إلى حين صدور أوامر أخرى بشأننا، وتلك قمة الاهانة لأى جندى، ناهيك عن أن يكون مظلياً وفي القوات الخاصة! وأردف الفكى بقوله: لو ان هاشم لم يستفزنا وطلب منا الانضمام إليه لكان كسبنا وأمن جانبنا بالتأكيد!

ثم مضى يقول: بدأنا من تلك اللحظة نتآمر لتنفيذ فكرتنا القديمة بالاستيلاء على السلطة، خاصة وأن الفرصة قد سنحت لنا للقضاء على جماعة نميري وجماعة هاشم في آن واحد، لوجود أغلبهم معاً في مكان واحد بمنطقة القصر الجمهورى، كانقلابيين من جهة، وكمعتقلين من الجهة الأخرى! وكانت حركة هاشم غافلة عن الاتصالات السرية التي كانت تجرى بيننا وبين إخوتنا من صف الضباط في اللواء الثانى مدرعات بالشجرة، كما كانت غافلة أيضاً عن الضابط الكبير (ص. ع. م) الذي كان قد سعى لهاشم فضمه لانقلابه بعد وقوعه بسبب علاقة صداقة قديمة نشأت بينهما على أيام عملهما وسكنهما معاً في الجنوب! وكان (ص.ع.م) يتحرك خلال تلك الأيام الثلاثة كما لو كان مخلصاً لهاشم، في حين أنه كان القائد الفعلى لتحركنا المضاد!

ومضى الفكى في روايته قائلاً: كان من بين ضباطنا الرائد شامبى وآخرون. وقد حددنا ساعة الصفر بعد ظهر يوم 22 يوليو. وكان دورنا نحن في القوات الخاصة أن نتسلل بطريق النيل من تحت جسر القوات المسلحة حتى نصل ونكمن في منطقة

الشجيرات الكثيفة المحاذية لشاطئ النيل الأزرق بالقرب من الواجهة الشمالية للقصر. وعندما نسمع أصوات دانات الدبابات القادمة من الشجرة تقصف جهة القصر وبيت الضيافة من الناحية الجنوبية، نسارع بالانقضاض على جنود هاشم الموجودين في الناحية الشمالية لننتزع منهم أسلحتهم، خاصة وأن المعلومات قد توفرت لدينا بأنهم مجرد مستجدين حديثي عهد بالعسكرية! ثم نشرع بعد ذلك في استكمال حركتنا تحت ظرف الارتباك الذي لا بد أن هجومنا المباغت سوف يحدثه في صفوف قوات هاشم.

وأكد الفكي أن خطتهم تلك كادت أن تطبق بنجاح حتى إذاعة البيان الأول، لولا المفاجأة التي لم تكن في الحسبان، والتي حدثت بسبب تمكن النميري من الهروب من القصر عن طريق الحائط الشرقي، والاندغام في بعض التجمعات التي حملته على الاكتاف، ثم على ظهر دبابة، إلى مبنى التلفزيون. ووسط تلك (الزفة) أصاب الخوف والارتباك قائدنا (ص.ع.م)، فاضطر لتغيير الخطة سريعاً، وركوب الموجة التي لم يكن يتوقعها، فشاهده الناس في التلفزيون كما لو كان موالياً لنميري، في حين أن نميري لو كان قد أدخل يده، في تلك اللحظة، في جيب (ص.ع.م) ذاك، لأخرج بياننا الأول!

واستطرد الفكي قائلاً: تعيَّن علينا بعد ذلك أن ننتظر سانحة أخرى، وأن نتكتم حتى ذلك الحين على أمرنا الذي لم يفتضح بسبب حالة الفوضى التي لم تتح لأحد أن ينتبه لحقيقة ما كان يجري! وبعد أربع سنوات من ذلك أقدمنا في 5 سبتمبر عام

1975م على تنفيذ انقلابنا المؤجل، وكان هذه المرة بقيادة المقدم حسن حسين. ولكنه لم ينجح إلا لساعات، حيث تم القضاء عليه، واعتقلنا، وقدمنا للمحاكمة التي انعقدت بوادى الحمار بمنطقة عطبرة. وفي تلك المحاكمة كشف البعض لأول مرة، ومن بينهم الرائد شامبى وآخرون، عن سر الانقلاب المضاد لانقلاب هاشم العطا بعد ظهر يوم 22 يوليو عام 1971م[1]!

أما الحقيقة في مسألة الضابط (ص.ع.م)، فإن الملازم أول السابق عبد العظيم سرور، أحد ضباط يوليو الذين صدر الحكم عليهم بالاعدام ثم خفض إلى السجن لمدة عشرين سنة، قد رواها للكاتب قائلاً إنه، وبعد إعادة اعتقاله للمرة الثانية بسلاح المهندسين بأمدرمان، حدث أن زار كل من اللواء خالد حسن عباس والرائد مامون عوض أبوزيد السلاح، والتقيا بالمعتقلين، وقد تعرف مامون على الملازم عبدالعظيم، فما أن وقعت عيناه عليه حتى صاح كالملدوغ وهو يقول له: إنت مندسى هنا وانحنا قالبين عليك الدنيا؟! وروى لى عبد العظيم الضغوط المكثفة التي مارسها عليه الرائد مامون، ترغيباً وترهيباً، منذ تلك اللحظة، ولفترة طويلة، حيث كان يريد معرفة أشياء محددة من أهمها خطة الحركة، وطريقة تنفيذها، وبرنامجها، وخصوصاً علاقة بعض الضباط من ذوى الرتب العليا بالانقلاب، وركز بالأخص على دور (ص.ع.م)! وطلب مامون من عبد العظيم المساعدة في كشف وفضح هذا الضابط الكبير الذي قال إنه متأكد من أنه كان ضمن

---

(1) افادة كمال الجزولي للكاتب عن طريق الهاتف من الخرطوم بحرى عام 2003م.

الانقـلابيين، ووعد مـامون، مـقابل ذلك، أن يضـمن لعبـد العظيم تخفـيض حكم الاعدام الذي سيـصدر ضده إلى حكم مـخفف، ثم وظيفة محترمة بعد فصله من القوات المسلحة! وأعطاه ورقة وقلماً لكى يكتب كل ذلك في شكل اعـتراف يقدمـه صباح اليـوم التالى.
ويستـرسل عبد العظيم قـائلاً إن مامون عندمـا عاد صبـاح اليوم التـالى واكتـشف أن عبـدالعظيم لم يكتب شيـئاً له أهـميـة سوى اعتـرافه بالمشاركـة في الانقلاب، وعضـويته في تنظيم الضـباط الاحرار، وأنه لا يعـرف من عضوية التنظيم سـوى أعضاء خليـته وهـم: أبشيبة ومـعاوية عبد الحى وأحمد جبـارة الذين كان قد نفذ فيهم حكـم الاعدام، حاول أن يطمئنه مرة أخـرى بأن الوعود التي قدمهـا له يضمن تنفيذها النميـري شخصياً. وللمزيد من التـأكيد إصطحبـه في عربتـه من سلاح المهندسين إلى مـعسكر الشـجرة بالخرطوم لمقابلة النميـري. وكان طوال الطريق يحاول أن يزين له المكاسب التي يمـكن أن يجنيـهـا من الاعـتـراف والشــهـادة على المشـتــركين، وعلى (ص.ع.م) بالذات. وعنـد لقـاء عـبـدالـعظيم بالنمـيري أكد له الأخـير بالفـعل حقـيقة وعـود مامـون قائلاً له: "أنحنا لسع ماعارفين وسط الجوطة دى منو المشارك من الضباط ومنو البريئ وعايزنك تساعـدنا في الموضـوع ده"! لكن عبد العظيم أصر على مـوقفه، فـخرج النميـري عن طوره وهدد سرور بشـكل مبـاشر، وأمهله فرصـة أخيرة حـتى صباح الغد للاعـتراف، وإلا فعليه أن يحضــر نفسه للدروة حسب تعبير النميـري! ويقول عبد العظيم إنه التقى في معسكر الشــجرة بالملازم أحمد الحسين الذي كان معتقلاً هناك منذ اليـوم الأول، وقد روى له أخبار المحاكمات،

والاعدامات، وكيف أن زملاءهم استقبلوا الموت وهم يهتفون بحياة الشعب ونضال الحزب، وكانت آخر وصاياهم لهم ألا يأتوا في التحقيقات والمحاكمات على ذكر أى شخص. وروى له بالأخص عن المقدم محجوب إبراهيم (طلقة) الذي أحضر اليهم وهو يرتدى جلباباً فوق زيه العسكري بعد محاكمته التي قضت بإعدامه، وكيف أنه جلس هادئاً يكرر وصيته للضباط المعتقلين بعدم إيراد اسم أى شخص سوى الذين أعدموا مهما بلغ الترهيب أو الترغيب (الجوه جوه والبره بره)، وأن يتمسكوا في أقوالهم بأن أوامر التحرك قد صدرت اليهم من هاشم العطا وعثمان أبشيبة وعبدالمنعم الهاموش ـ وكان ثلاثتهم قد أعدموا ـ بالاضافة لمحجوب نفسه الذي كان يتأهب لحظتها للتوجه الى الدروة! وقال ود الحسين لعبد العظيم إن بقاء (طلقة) معهم لم يدم، بالفعل، سوى فترة قصيرة، حيث ما لبث الحراس أن جاءوا لأخذه إلى (الدروة)، فنهض وأخرج علبة سيجاير ماركة (بنسون) جديدة كانت بجيبه، أخذ منها سيجارة واحدة وأعطى البقية للضباط المعتقلين قائلاً إن سيجارة واحدة تكفيه حتى الوصول إلى الدروة، ثم ودع الجميع وانصرف، رابط الجأش، ثابت الجنان. وإن هي إلا دقائق حتى سمعوا هتافه للوطن والشعب والحزب يعلو على زخات الرصاص الكثيفة التي انطلقت تمزق جسده أشلاء! وواصل عبد العظيم روايته لى قائلاً إن ذلك الحديث أعطاه دفعة قوية للمزيد من التماسك، خاصة تلك الوصية الغالية بعدم ذكر أى اسم تحت أى ظرف، حتى أولئك الضباط الدخلاء علينا والذين كانوا يتآمرون ضدنا وتكشفت خيانتهم لنا بمجرد أن لاحت الهزيمة في

الأفق من أمــثــال (ص.ع.م)! ولهذا الـسبب، يقـول عــبـد العظيم، "تمسكت لآخر لحظة بما قلتـه، وهو ما أكدته أيضاً في محــاكمتي التي قضت بطردي من الخدمة العـسكرية بعد تجريدي من رتبتي والحكم علي بالاعدام قبل تخفيضه إلى عشرين سنة سجناً".

أما مامـؤن عوض أبوزيد الذي فشل في إقناع النميـري بتآمر (ص.ع.م) عن طريق تحـويل عبـد العظيم سرور إلى شــاهد ملك ضده، فـقد تفتق ذهنه عن حـيلة أخرى! وهكذا، مثلمـا يحدث في الاحاجي تمـاماً، إتفق مـامون والنمـيري على إخـضـاع (ص.ع.م) لاختــبار ظن مامــون أنه سيكون قاسـياً عليــه، وهو أن توكل إليه محاكمة رمـز كبير من رموز حركة يوليو تربطه بـه علاقة وثيقة، فـإنْ تردد أو أبدى أدنى تعاطف مـعه فـإن نميري قـد وافق على اعتبار ذلك دليلاً على تآمره! أما إذا أنزل به أقصى عقوبة فإن على مامون أن يستسلم ويكف عن ملاحقة الرجل!

ورغم غرابة (الاخـتبار) و(لامنطقـيته)، إلا أنه مـا أن انقضت لحظات من بداية تلك المحــاكمة (الاخــتبــار)، حتى أنزل (ص.ع.م) بالرجل حكم.. الاعـدام، دون أن يطرف له جفن، فـخســر مامــون الرهان![1].

□□□

---

(1) افادة الرائد (م) عبدالعظيم عـوض سرور للكاتب بتورنتو بكندا في 2005م.

(10)

في علايل
ابروف؟

□□

ظل عبد الخالق يتـتبع الأزقة المظلمة الخالية، والأمـاكن المعتمة غيـر المطروقـة، حتى عـبر، بسـلام، حى القمـاير وحى الكبجـاب الكائنين في الجـزء الشمالى الشـرقى من أمدرمـان القديمة، ومن هناك دلف إلى حى أب روف من جهته الشمالية الغربية. كان حظر التجول قد أعلن، وكان عبـد الخالق يتسمع، في ذلك الوقت المتأخر من الليل، أثناء سـيـره وسط الأزقـة الضـيـقة، أجـهـزة الراديو والتلفزيـون تردد من داخل البيوت المتـقاربة نداءات جـهاز الأمن ووزارة الداخلية للمواطنين بمساعدتها في القبض على قادة الحزب الشيوعي، وتهديد كل من يأوى أحداً منهم!

في العتمة طرق منزل أحد معـارفه من الشيوعيين. فتح الرجل الباب، ولم يتردد في الترحيـب بعبد الخالق، رغم الأسى الذي كان يلوح في نظراته، ووقف يتحدث إليه في تلك العـتمة همساً. شرح له أنه، وبحكم موقعه الجماهيرى في العمل السياسي خلال الأيام الثـلاثة الماضيـة، أضحى (مكشـوفـاً) لرجال الأمن الذين يتـوقع وصولهم، بين كل لحظـة وأخرى، لاعتقـاله وربما لتفـتيش المنزل أيضـاً، ولذلك فليس من الحكمة أن يورط عـبد الخـالق بإيوائه أو حتى بالاقتراب منه في مثل ذلك الظرف. تفهم عبد الخالق عقلانية الرجل، فشكره ومضى في طريقه.

في غضون ذلك كانت أرتال الدبابات والمصفحات العسكرية تجوب شوارع العاصمة وتنشر الرعب في النفوس. وكان جنود السلطة العائدة يجوسون بين الأزقة، ويداهمون المنازل، مدججين بالبنادق الرشاشة، وكل أنواع الأسلحة الخفيفة، بحثاً عن المطلوبين. وقد نشط كل من جهاز الأمن القومى حينها واقسام وزارة الداخليه في تعقب الشيوعيين ومن شايعهم، وامتدت الملاحقات إلى كل أنحاء العاصمة والاقاليم، حتى بلغ عدد المعتقلين، خلال بضعة أيام، آلاف المواطنين والمواطنات من 83 مدينة وقرية.

●●●

حى أب روف يقع في الجزء الشرقى من مدينة أمدرمان، على الشاطئ الغربى لنهر النيل. يحده من الشمال حى الكبجاب وحى القماير، وتتداخل معه من الغرب عدة أحياء كالهجرة وسوق الشجرة والخنادقة وود البنا وود أرو، أما من ناحية الجنوب فيتداخل مع حى بيت المال تداخلاً شديداً. ويعد حى أب روف من أعرق أحياء المدينة، فقد تأسس في أعقاب انتصار الثورة المهدية، ومع بدايات نشوء أمدرمان نفسها، متخذاً اسمه من اسم الأمير أب روف، أحد قادة الثورة المهدية. ومن أقدم وأشهر الشخصيات التي سكنته رابحة الكنانية التي عاشت حتى منتصف الخمسينات، وكانت قد اكتشفت، على أيام الثورة المهدية خلال الربع الأخير من القرن 19، تدبير الإدارة الاستعمارية التيركية لمباغتة جيش المهدى في قدير، فتسللت في نفس الليلة مشياً على الأقدام لمدة 12 ساعة

كى تبلغ المهدى بأمر الهجوم العسكري الوشيك، وبهذا أنقذت الثوار من ابادة محققة[1].

ويُعد حى أب روف، ضمن جملة أحياء أخرى بأمدرمان القديمة، رصيداً تقليدياً للحزب الشيوعي بما لديه فيها من وجود مميز، وهي الأحياء التي شكلت خارطة (الدائرة 22 أمدرمان الجنوبية)، حيث فاز عبد الخالق، عام 1968م، على منافسه أحمد زين العابدين مرشح الحزب الوطنى الاتحادى محرزاً 7665 صوتاً بينما نال الآخير 7122 صوتاً. وكانت تلك الدائرة تضم، بالاضافة إلى أب روف، الأحياء التي تقع على طول الشريط الحدودى الموازى لنهر النيل والذي يضم أحياء بيت المال والملازمين والموردة حتى مدينة الفتيحاب، وإلى ذلك أحياء بانت والعباسية وحى الضباط وأب عنجة وغيرها. وقد نافح أعضاء الحزب وأصدقاؤه في تلك الأحياء، ومن بينها أب روف وبيت المال، عن دار الحزب الكائنة داخل بيت المال، متصدين، ببسالة نادرة وتضحية جمة، للهجوم الذي شنته عام 1965م، على الدار وعلى الشيوعيين بالسلاح الأبيض، القوى والجماعات المعادية للحزب، آنذاك، بقيادة الأخوان المسلمين وحزب الأمة، والتي سعت لحل الحزب، وحظر نشاطه، وطرد نوابه من الجمعية التأسيسية، وذلك في أعقاب حادثة معهد المعلمين العالى الشهيرة التي تعرض فيها أحد الطلاب في ندوة سياسية لبيت النبوة، فسارعت تلك القوى والجماعات تنسبه في لهوجة مفضوحة للحزب الشيوعي.

(1) شوقي بدرى؛ مخطوطه قيد النشر عن حى أبي روف بأمدرمان.

وهو الحادث الذي وصفه عبد الخالق، أوان ذاك، (بعنف البادية)[1]!

●●●

كان حسين أحمد عثمان الكد، وشقيقه التوأم حسن، من أبكار خريجى كلية غردون التذكارية، ومن المثقفين اليساريين، بمعايير ثلاثينات القرن الماضى، الذين أسسوا جمعية أب روف للقراءة،

---

(1) وقعت الحادثة في 9 نوفمبر عام 1965حينما نظمت مساء ذلك اليوم جبهة الميثاق الاسلامى حينها ندوة سياسية بمعهد المعلمين العالى بامدرمان (لاحقاً كلية التربية جامعة الخرطوم)، فوقف طالب يدعى شوقى محمد على في تلك الندوة وأعلن أنه ماركسى ثم خاض في حديث الافك وسب آل الرسول، فتفجرت مشاعر الطلاب الغاضبة، وصدرت البيانات التي تدين حديث الطالب كما اوضحت رابطة الطلاب الشيوعيين في بيان لها أن الطالب ليس عضواً بالحزب الشيوعي بدليل أنه يصدر صحيفة حائطية يهاجم فيها الشيوعين، فاستغلت جماعة الاخوان المسلمين تلك المشاعر وحولت المعركة ضد الحزب الشيوعي وأصرت على ادعاء أن الطالب عضو بالحزب الشيوعي الذي اتهموه بأنه يدعو للكفر والالحاد، فتطور الأمر بالمظاهرات التينظمتها جماعة الاخوان التي انضمت اليها أحزاب الأمة والوطنى الاتحادى. وفي الجمعية التأسيسيةاستطاعت تلك القوى بالعددية الميكانيكية تعديل مواد الدستور ليطرد نواب الحزب الشيوعي منها ولبحظر نشاط الحزب الذي لجأ الى المحكمة الدستورية طاعناً في قرارات تلك الجمعية، فاصدرت المحكمة العليا قرارها الشهير بعدم قانونية تلك القرارات، فلم تذعن السلطة التنفيذية لذلك القرار واعتبرته غير ملزم لها، ما حدى بكل من رئيس القضاء وقاضى المحكمة العليا لتقديم إستقالتيهما. (للمزيد من التفصيل أنظر: د. محمد سعيد القدال؛ معالم في تاريخ الحزب الشيوعي السوداني).

وتأثروا بفكر الفابيين FABIANSفي بريطانيا. وكان حسين حتى وفاته في منتصف ستينات القرن الماضي صديقاً لعدد من الماركسيين، من بينهم قريبه وسكرتير الحزب الشيوعي السوداني عبد الخالق محجوب، والصحفي وعضو لجنة الحزب المركزية محجوب عثمان، وآخرون.

ومنذ ما بعد ظهيرة يوم 22 يوليو كانت أسرة حسين الكد بحي أب روف، على مقربة من شاطئ النيل، تواجه ظرفاً عصيباً. فقد ادلهمت الخطوب عليها دفعة واحدة، حيث كان ابنها الضابط خالد حسين الكد قد أعيد إلى الخدمة بالقوات المسلحة السودانية بقرار من القيادة الجديدة عقب نجاح انقلاب 19 يوليو مباشرة، وبذلك تم إلغاء قرار تسريحه السابق، الأمر الذي كان مصدر سعادة للأسرة. لكن ها هي الأنباء ترد إليها، وإن كانت غير مؤكدة، بأن خالد قد قتل أثناء المعارك الشرسة التي ظلت دائرة منذ عصر ذلك اليوم، 22 يوليو. فهناك من يقول إنه قتل بكبرى شمبات! وآخرون يؤكدون إصابته قرب إحدى محطات الوقود!

من جهة أخرى تضاربت الأخبار أيضاً حول مصير ابن الأسرة الآخر والشقيق الأصغر لعبد الخالق، الرائد محمد محجوب عثمان، والذي تم تعيينه عضواً بمجلس قيادة الثورة في انقلاب 19 يوليو أثناء وجوده خارج البلاد. وكان من المفترض أن يطير من برلين الشرقية إلى لندن، ليكون برفقة بابكر النور وفاروق حمد الله في طريق العودة إلى الخرطوم على متن نفس طائرة الخطوط البريطانية التي اختطفتها سلطات القذافي وأجبرتها على الهبوط بمطار بنغازى ليعتقلا هناك تمهيداً لتسليمهما للنميري عقب عودته

لينكل بهما! وسوف يتضح في ما بعد أن محمد محجوب لم يتمكن، لأسباب فنية، من اللحاق بتلك السفرية المشئومة!

أما من الجهة الثالثة فها هو عبد الخالق أيضاً تهدر الدبابات والشاحنات في أثره، ويضج المذياع والتلفزيون بنداءات جلاديه إلى المواطنين ليساعدوهم في القبض عليه!

●●●

في تلك الساعة المتأخرة من الليل كان الأديب المعروف طه الكد، الشقيق الأكبر لخالد، يجلس مهموماً مغموماً على كرسي بفناء منزل الأسرة، وذهنه مشغول بأفكار مبعثره ولا يكاد يقوى على التركيز. كان برفقته صهراه مجذوب يحى وعمر أحمد المصطفي وابن خاله يحى العادل، يحاولون تسقط الأخبار من راديو ترانزيستور صغير، وغير بعيد من مجلسهم ذاك كان يستلقى محمد التجاني خال طه على سريره، ومسبحته تكر بين أصابعه، بينما شفتاه تنثران الأدعية، وعيناه معلقتان بالسماء البعيدة.

في الجزء الداخلى من البيت كانت الهموم تجثم على صدور نساء الأسرة بعد أن رأين، أول المساء، وجه النميري يطل من شاشة التلفزيون، بعينين تقدحان شرراً، وحنجرة ترغى وتزبد كالثور الهائج، وتتوعد الانقلابيين والشيوعيين، وتطالب بالقبض عليهم "واحداً واحداً"، لافظاً بطريقة غريبة إسم ابن الأسرة "خالد الكد و.. Something"، على حد تعبيره!

كانت زخات الرصاص وانفجارات الدانات ما تزال، آنذاك، تأتى متقطعة يحمل صداها نيل أمدرمان، الصامت الحزين هو الآخر،

طوال مساء وليل ذلك اليوم. كان الظلام دامساً، وحركة الشارع قد خبت تماماً مع حظر التجوال والوقت المتأخر من الليل.

وكان لحوش آل حسين الكد، على عادة بيوت أمدرمان العتيقه في إشهار كرم الضيافة، باب مفتوح في كل الأوقات، ولا يغلق حتى الهزيع الأخير. وعبر هذا الباب الغارق في العتمة انتبه طه فجأة إلى حركة آتية، في تلك الساعة، من جهة الشارع الغارق، هو الآخر، في العتمة، فوضع جانباً جهاز الترانزيستور الذي كان ما يزال يكرر، بشكل رتيب، نداءات وزارة الداخليه وجهاز الأمن للمساعدة في القبض على عبد الخالق ومجموعته، ونهض ليستجلى مصدر تلك الحركة قرب الباب المفتوح، فلاحظ طيف شخص يدلف إلى داخل الفناء. ظل طه واقفاً يحاول بصعوبة أن يتبين ملامح ذلك القادم كلما اقترب رويداً رويداً من الهالة الشاحبة التي ينثرها، بالكاد، على جزء من الفناء ضوء المصباح الخافت في الفيراندا العتيقة. ولما اقترب القادم أكثر رأى طه فيه رجلاً يرتدى جلباباً أبيض ويضع عمامة تخفي جزءاً كبيراً من رأسه ووجهه!

كان الخال محمد التجانى ما يزال مستلقياً على سريره، متشاغلاً بمسبحته، غير منتبه للقادم حتى بعد أن ألقى بالتحية. وعندما لم يعد يفصل بين طه وبين القادم سوى خطوة أو خطوتين ظهرت بوضوح ملامح عبد الخالق لطه الذي ألجمته المفاجأة لبرهة بددها فوراً بأن اندفع نحو ابن خاله معانقاً له في صمت، وجسده يهتز من شدة الانفعال لفترة طالت، حتى انتبه محمد التجانى فنهض هو الآخر، ونهض الآخرون جميعاً يعانقون القادم بتأثر

شديد، ثم ما لبثوا أن دلفوا من فورهم عبر الفيراندا إلى داخل الديوان.

●●●

لم يكن طه الكد في الواقع منتميا للحزب أو حتى مناصراً لأيدولوجيته، بل يمكن القول بأنه كان مناوئاً للماركسية، انطلاقا من قناعاته الفكرية، ونشأته المحافظة، وحماسه للثقافة العربية الاسلامية، إضافة الى أنه لم يكن لديه في الأصل أى ميل إلى السياسة ومعتركاتها، بل كان منصرفاً عنها بكلياته إلى الأدب العربى الكلاسيكى، وبخاصة الشعر العربى بأغراضه وعروضه وأوزانه وقوافيه القديمة التي ظل شغوفاً بها، منافحاً عنها، ومعتزاً بذلك. ومع هذا فقد كانت له، في المستوى الانسانى، علاقاته الحميمة بكثير من الشعراء والأدباء الشيوعيين، كما كانت تربطه بابن خاله عبد الخالق وشائج من المودة والاحترام. وربما يعود ذلك إلى قدرات عبد الخالق المشهودة، وإحاطته الموسوعية بالثقافة العربية الاسلامية منذ بواكير صباه، من جهة، وما عرف عنه من شجاعة وبسالة وصمود، من الجهة الأخرى، وإعجاب طه واحتفائه، أصلاً، بمثل هذه الملكات والخصائص الشخصية، من الجهة الثالثة، فضلاً عن صلة الرحم، من الجهة الرابعة، والتي كان طه يعتز بها أيما اعتزاز، بغض النظر عن الاختلاف في الرأى والفوارق في الأفكار.

وثمة عامل إضافي لا يقل أهمية بالنسبة لطه، فقد كان عبد الخالق على علاقة حميمة ووثيقة بحسين أفندى الكد أوان حياته. ولا غرو، فقد كان والد طه، كما سبق أن أشرنا، من كبار المثقفين في زمانه، وأحد أبرز مؤسسى (مدرسة أب روف) اليسارية،

بمعايير ثلاثينات القرن الماضى، والتي انتمى إليها أيضاً توأمه حسن الكد وحماد توفيق وخضر حمد وإبراهيم يوسف سليمان ومكاوى سليمان أكرت وغيرهم. وكان عبد الخالق ".. كثيراً ما يقضى أوقاتاً طويلة مع والد طه كلما زار حوش أبناء عمته بابى روف، حتى أنه خلال فترات اختفائه في سنوات سابقة، كان يحرص على زيارة حسين أفندى الكد، حيث يقضى معه فترة طويلة ثم يغادر عند منتصف الليل "[1].

وإذن فقد كان لدى طه ألف سبب وسبب في محبته لعبد الخالق!

●●●

- "لو كنت أعرف مكاناً آخر في هذا الظرف لما اضطررت للحضور إليكم وأنا أعلم وضعكم حالياً"! قال عبد الخالق لطه.

فرد طه بصوت مزيج من الانفعال والحزم:

- "ثق يا عبد الخالق.. والله لن أتخلى عنك أبداً حتى لو قطعونى إرباً إرباً"![2].

ثم أضاف قائلاً له:

- "هذا بيتك ياعبد الخالق.. الله الله!! ولكن يجب أن نبحث عن سلامتك"[3].

---

(1) افادة أحد أصدقاء أسرة آل الكد للكاتب.

(2) افادة السيدة ملكة الكد شقيقة المرحوم طه والمرحوم خالد للكاتب بشقتها بمدينة قلاسقو باسكتلندا عام 2004م.

(3) الخاتم عدلان: موقع... سبق ذكره.

ولكن للخاتم عدلان رأى لا نتفق فيه معه حول أن لجوء عبد الخالق إلى طه الكد هو لجوء "لرابطة الدم بعد أن لم تسعفه رابطة الانتماء الحزبى عند بعض الرفاق الذين كانوا يستجدونه استجداءً لزيارتهم في منازلهم في ليال غير تلك الليلاء. ولم يكن عبد الخالق ليذهب إلى طه، ثم يبقى ثلاثة أيام في منزل قريبه ذى المنصب الحكومى الكبير، وبعلم ذلك المسؤول الكبير، لولا أن تلك الأبواب قد أغلقت في وجهه"!(1).

وأخشى أن هناك تناقضاً في هذا الكلام. فمن ناحية، وبعد أن يؤمن الخاتم نفسه على أن ذلك السلوك بدر من (بعض الرفاق)، يعود ليعممه على مجموع الحزب، وهذا غير منطقى! أما من الناحية الأخرى فإن أحداً ممن لامسوا عبد الخالق عن قرب في تلك الأيام لم يقل إنه أشار لشئ من ذلك أو أنهم أحسوا بأنه ينطوى على مثل هذا الشعور. ضف إلى ذلك أن المصادر المشار إليها أثبتت مشاركة شيوعيين آخرين، قدر معرفتهم واستطاعتهم، في الجهود التي بذلت لإيواء عبد الخالق وحمايته. وبالتالى، فإن حق لنا الاحتكام لوقائع الافادات التي وردت وسترد لاحقاً في هذا الخصوص، والتي اجتهدنا قدر استطاعتنا للحصول عليها وإخضاعها للفحص والمضاهاة، فإنها لا تشير قط إلى أن ثمة شبهة في تردد أبداه أى من أعضاء الحزب الذين لامسوا الحدث تجاه قيم المروءة والشهامة والبسالة في الخف للذود عن سكرتيرهم وقائدهم الفكرى، وحماية حياته، وبالتالى فإننا نخشى أن يكون ما أبرزه الخاتم هو تفسيره الوحيد لما حدث!

●●●

---

(1) المصدر السابق.

أوضح عبد الخالق لطه حاجته للبقاء في أب روف لثلاثة أيام على الأقل، ريثما يتمكن من إعادة ترتيب الاوضاع في ظروف التطورات الخطيرة التي كانت تجتازها البلاد آنذاك، ".. وأنه في حاجة للقاء أحد أعضاء الحزب ممن يقطنون بالحى حتى ينسق معه ومع طه ما يستوجب عمله، وأن الأمر يحتاج لكثير من العجلة، واستطرد بالانجليزية: "Things are moving very fast"[1].

وثمة رواية أخرى لملكة الكد، الشقيقة الصغرى لطه وخالد، تؤكد "أن عبد الخالق.. لم يطلب من طه سوى أن يوفر له بأقصى سرعة مركباً ينقله الى الطرف الاخر من نهر النيل عند الخرطوم بحرى! فطمأنه طه بتدبير الأمر مع بعض (مراكبية أب روف) صباح اليوم التالى"[2].

وإذا تركنا مؤقتاً رواية الرفاعى، وتعاملنا مع رواية ملكة، فمن خلال قرائن الأحوال ومنطق الأحداث نجد أن هناك احتمالين لرغبة عبد الخالق في الانتقال إلى الضفه الأخرى من النهر: الأول أنه كان يريد الوصول إلى حلة خوجلى، حيث الخليفه النور، أحد خلفاء السيد على الميرغنى ووالد زوجة فاروق عثمان حمد الله، والذي قيل إن علاقة وثيقة كانت تربط بينه وبين عبد الخالق. ولكن أفراداً من أسرة الخليفه ينفون هذا الأمر. ورغم ذلك يظل الاحتمال قائماً، حيث أن في أسرة عبد الخالق من يؤكد تلك العلاقة! أما الاحتمال الثانى فهو أن عبد الخالق كان يريد الوصول إلى بيت صديقه محمد نور السيد الذي رأينا، في ما تقدم، أنه كان

---

(1) الرفاعى: الفصل الآخير، سبق ذكره.

(2) افادة ملكة الكد للكاتب، سبق ذكرها.

قد أسند اليه مهمة البحث له عن منزل بديل لمنزل (ص.أ) بالخرطوم/2، والذي كان قد أصبح قبلة للناس، مما أعاق أداءه لمهامه. وهكذا فإن من المحتمل أن يكون عبد الخالق قد قصد الاتصال بصديقه القديم لينقله إلى

ذلك المنزل الآخر، واثقاً من قدراته المجربة!

●●●

قضى عبد الخالق بعض ليلته تلك في فناء منزل حسين الكد، بينما استلقى بقربه كل من طه ومجذوب وعمر ويحى والخال محمد التجانى، فكأن ثلتهم تلك "في جفن الردى وهو نائم"!

وقبيل فجر الجمعة 23 يوليو انتقل عبد الخالق إلى داخل (الديوان) لبعض الوقت. وهنالك ظل رابط الجأش، يتابع الأحداث، في صمت، من خلال جهاز الراديو. وكان، كما نقل عنه طه، "هادئ النبرات، ثابت الجنان، تشى قسمات وجهه بصرامة وحزن عميقين"[1].

ولأنه لم تكن لتخفي عليه فداحة الاخطار التي كانت تحيط بمنزل يُتوقع أن يقتحمه عسكر السلطة في أى وقت بحثاً، على الأقل، عن خالد، ضمن من انطلقوا يبحثون عنهم منذ أول المساء، فقد ناقش الأمر مع طه الذي اقترح، في البداية، الانتقال إلى منزل خالهما محمد التجانى، الكائن على تخوم منطقتى القماير والكباجاب شمال حى أب روف. "ولكن محمد التجانى أبدى كثيراً من التردد رغم العاطفة التي يكنها لعبد الخالق!"[2]، وبإزاء ذلك

---

(1) الرفاعى؛ مقال..، سبق ذكره.

(2) افادة نعمات للكاتب، رسالة بالانترنت عام 2005م.

اقترح طه الانتقال إلى حوش عـمه حسن الكد، فمع كونه يقع على مرمى حـجر في الجـوار، إلا أن المنصب الخطير الذي يشـغله ابن عـمه كـمال في أجـهزة النمـيـري الأمنية ربما.. ربما تعـصم ذلك الحوش بالذات من التفتيش!

و.. هكذا بدت الخيارات، ساعتئذ، ضيقة إلى ذلك الحد!

●●●

ما لبث عبد الخـالق أن تسلل مع طه، قبل شروق الشمس، إلى منزل حـسن الكد. وهو المنزل الذي سـيسـمع فـيه، عـبـر جهـاز الترانزيستور، نبأ إعدام هاشم العطا وعثـمان أبو شيبة ومحجوب (طلقة) وعـبد المنعم الهامـوش وغيرهم من الضـباط الشيـوعيين والديموقراطيين رميـاً بالرصاص، والذي سترد إليه فيـه معلومات غير مؤكـدة عن إقدام النميري على تنفيذ حكم الاعـدام شنقاً حتى الموت، بسجن كـوبر جنوب شرق الخـرطوم بحرى، على الشـفيع أحمـد الشـيخ، الرجل الثانى في الحـزب وعضـو لجنته المركـزية وسكرتير إتحاد عام نقابات عـمال السودان ونائب رئيس الاتحاد العالمى لنقابات عمال العـالم والحائز على وسام النيلين من حكومة السودان ووسام لينين من الاتحاد السوفـيتى قبل ما لا يزيد على العام فقط من ذلك، بالاضافة إلى جوزيف قرنق، عضو سكرتارية اللجنة المركزية. ومما زاد من احتمالات صحة تلك المعلومات القرار الذي صدر وتم بثـه عبر الاذاعة والتلفـزيون بتجريد الشـفيع من وسام النيلين!

وسيبدى عبد الخالق غضبه الشديد من تلك الأخبار، خصوصاً إعدام الشـفيع وجوزيف، وذلك لـمعرفتـه الأكيده بأن أية مـحكمة،

بأدنى قدر من العدالة والانصاف، ما كانت لتنزل بهما مثل هذه العقوبة الفظيعة، وسيظل يردد أنهما لا صلة لهما بما جرى، وأنه إذا قدر له أن يعيش فإنه لن يترك ما فعله النميري ونظامه يمر بدون عقاب!

وكان عبد الخالق، عندما يرى قريباته ينتحبن جزعات على مصيره ومصير خالد ومحمد، يعمد إلى تجاهل حزنه هو الرابض في جوفه كالجبل، ويروح ينهمك في ملاطفتهن وممازحتهن ليبدد عنهن رهق الأحزان الجاثمة على صدورهن. وما أن يهدأن قليلاً حتى يعود إلى ارتشاف قهوته ومتابعة إذاعة أم درمان التي كانت تنقل أخبار المحاكم العسكرية الميدانية التي تشكلت على عجل لتطال بأحكامها غير العادلة العديد من قادة ورموز يوليو، عسكريين ومدنيين، بينما سحابة من الحزن العميق لا تخطئها العين تلوح على محياه، وترتسم على تقاطيع وجهه، علاوة على تعب كل تلك الأيام.

كما وسيستطرد عبد الخالق قائلاً لطه، في ذلك المنزل، إنه ليست لديه ولا للحزب أدنى علاقة بتدبير الانقلاب، و"أنا لن أنكر مسئوليتي.. لأنهم سوف يقولون إن عبد الخالق خاف وأنكر، سوف أدافع دفاعاً سياسياً إذا قبضوا علي، ولكني أحملك أمانة أن تقول عني حين تكون في مأمن أنني رفضت فكرة الانقلاب، وأنني سمعت به في الراديو كأي مواطن" [1].

●●●

---

(1) الكد: مقال..، سبق ذكره.

وبهذا الصدد فإن ثمة حديثاً ظل متداولاً في أروقة الحزب بصورة غير رسمية عما يسمى (بوصية عبد الخالق)، وفحواه أن عبد الخالق كتب بعض الملاحظات في كراسة قام طه الكد، في وقت لاحق، بتسليمها لمحمد إبراهيم نقد الذي انتخب سكرتيراً للحزب بعد إعدام عبد الخالق، وذلك حين التقاه طه في مخبئه لأجل هذا الغرض. غير أنه لم يصدر عن قيادة الحزب ما يشير لهذه الكراسة. بل لقد أبدى كل من استفسرته عنها من القياديين دهشته نافياً نفياً قاطعاً معرفته أو حتى سماعه بها! فقد أشار التجانى الطيب إلى أنه لا علم له "بأية وصية مكتوبة من عبد الخالق سلمت بصورة أو بأخرى لمركز الحزب"[1]. كما نفي يوسف حسين، عضو السكرتارية المركزية، علمه بأية وصية من عبد الخالق، سواء كانت كتابة أو شفاهة[2].

على أن للخاتم عدلان، أيضاً، إفادة مغايرة يؤكد من خلالها أن عبد الخالق سلم أوراقاً لطه طالباً منه ألا يقرأها "وعندما سألته بعد ذلك بسنوات: هل قرأتها يا طه؟ قال لى: أنا أبوك يا حسين! أنا أحنث بالقسم؟! أنا أخون الأمانة"[3]؟! ويضيف الخاتم أن طه قام بالفعل، بعد فترة من الأحداث، بتسليم تلك الأوراق إلى نقد وهو مختفي، و".. سألته شخصياً عنها فأكد لى أنها موجودة معه"![4].

---

(1) إفادة التجانى للكاتب، سبق ذكرها.

(2) إفادة يوسف حسين، سكرتير اللجنة المركزية للحزب،للكاتب ببودابست بهنغاريا في 1996م.

(3) الخاتم؛ موقع..،سبق ذكره.

(4) المصدر السابق. كذلك افادة الخاتم للكاتب، لندن عام 2002م.

لكن محمد إبراهيم نقد، السكرتير العام للحزب، ينفي "قصة الوصية" جملة وتفصيلاً، بل ويؤكد أنها "محض أسطورة.. عبد الخالق لم يكتب شيئاً ولم يكلف طه بحمل أية رسالة إلى قيادة الحزب، كتابةً أو شفاهة، وربما اختلط الأمر لدى البعض، فطه قد سلمنا بالفعل كراسة.. ولكنها الكراسة التي تحتوى على إفادته هو نفسه، أى طه، عن الأيام التي لازم خلالها عبد الخالق بأب روف"!(1).

ومن جانبه يفيد كمال الجزولى الذي ربطت بينه وبين طه علاقة صداقة خلال السنوات التي أعقبت عودة كمال من الاتحاد السوفيتى في أغسطس عام 1973م وحتى وفاة طه في ديسمبر عام 1977م، قائلاً: "لا أستطيع بالطبع أن أنفي أو أؤكد، فأنا لم أكن حاضراً تلك الأحداث. لكن طه حدثنى كثيراً، وفي مناسبات مختلفة، عن وقائع تلك الأيام. وأذكر أن أطول تلك الأحاديث، وأكثرها استفاضة وتفصيلاً، كانت بعد يومين تقريباً من هزيمة حركة الثانى من يوليو عام 1976م بقيادة محمد نور سعد. وكنا عدنا سوياً، في الظهيرة، إلى أم درمان بعد أن قضينا بعض الوقت مع بعض الأصدقاء في زيارة اجتماعية إلى منزل الكاتبة خديجة صفوت بمنطقة العمارات بالخرطوم، فعرج معى إلى منزلنا بحى بانت جنوب أم درمان، حيث تناولنا الغداء، وأمضينا الساعات التالية، حتى أول المساء، وهو يحدثنى عن أدق تفاصيل تلك الفترة التي كان خلالها لصيقاً بعبد الخالق بأب روف. وأخبرنى في

---

(1) افادة نقد للكاتب، سبق ذكرها.

النهاية بأنه قد ضمن كل ذلك في (كراسة) سلمها للحزب في وقت لاحق. لكنه، على كثرة التفاصيل والاستطرادات التي أوردها في حديثه، والزمن الطويل نسبياً الذي استغرقته مؤانستنا، لم يذكر لي أى شئ عن (كراسة) أو وصية أو رسالة أو مذكرة طلب إليه عبد الخالق تسليمها للحزب "[1].

أما سعاد إبراهيم احمد، عضو اللجنة المركزية، فتقول إنها لم تطلع على وصية من عبد الخالق، وإن أحداً لم يثر أمرها معها وسط الضغوط والمهام التي كانت تواجه الكادر القيادى في تلك الفترة! إلا أنها تشير إلى أن عبد الخالق ".. ربما يكون قد رتب بعض الأمور التنظيمية ومن بينها مسألة القيادة، فقد كان يكن احتراماً عميقاً وثقةً في شخصية قاسم أمين، ومن الممكن أن يكون قد أشار إلى ذلك في تلك الرسالة "![2].

ومع أن سعاد لم تؤكد أو تنف وجود تلك الوصية، إلا أن إفادتها تضمنت (إيحاءً) في غاية الخطورة، ومن شأنه أن يثير جدلاً واسعاً وأسئلة مقلقة. فهل الحزب قائم، من حيث بنيته الفكرية والتنظيمية، على المؤسسية أم على شئ آخر؟! وهل يعقل أن عبد الخالق الذي وهب عمره لقضية التغيير الاجتماعى التي تعتبر في مضمونها من أوثق القضايا بمفاهيم الحداثة، يمكن أن يكون قد (أوصى) بأن تؤول القيادة من بعده لشخص محدد؟!

أما فائزة أبوبكر عضو فرع الحزب بأبروف فإنها تؤكد، ضمن إفاداتها للكاتب، بأن عبد الخالق، وقبل انتقاله للمنزل الثالث

---

(1) افادة كمال الجزولى للكاتب، هاتف الخرطوم 2003م.

(2) افادة سعاد للكاتب، سبق ذكرها.

والأخير الذي تم اعـتقاله منه، قد أودع لديهـا قصاصات صـغيرة الحجم تشير فائزة إلى أنها ربما تكون ملاحظات مهمة حرص عبد الخالق على تسـجيلهـا في فترة اخـتفائه بأبـروف (وللأمانة فلم أطلع عليها، وبعد فـترة من تلك الأحداث قمت بتسليمـها للمرحوم طه الكد)![1].

وبإفـادة فائزة تلك فـإن قصـة (وصـية عـبد الخـالق) تزداد غموضاً ضمن مجمل أحداث تلك الفـترة على ماهي عليه من تعقيد وإرباك! فبـينما يشيـر الخاتم عدلان إلى أن طه الكد قـد أكد له أن عبد الخالق سلمه كراسة طالبـاً منه ألا يطلع عليها، وأنه قد سلمها نقد فيما بعد حسب رغبة عبد الخالق، فها هي فائزة أبو بكر تشير إلى أن أوراقاً أخرى كانت بحوزة عبد الخـالق قامت هي فيما بعد بتسلـيمهـا لطه الكد! والسؤال هو: إذا افـترضنا صـحة رواية طه للخاتم بأنه استلم كـراسة (يداً بيد) من عبد الخـالق وأودعها لدى نقد، فهل تكون القصاصات التي سلمتها فائزة لطه فيما بعد ضمن تلك الكراسة؟! ولماذا لم يشر طه إلى ذلك في حـديثه للخاتم؟! وإذا لم يكن الأمـر كذلك، فـماهو إذن مـصـير تلك القـصاصـات التي سلمتهـا فائزة إلى طه حسب إفادتها؟! خـاصة إذا أضفنا إلى ذلك تلك الافادة التي وردت في مقال نشره محمد علي خوجلي، الكادر السابق بالحزب، حيث أشار إلى أنه وأحـمد الحسين، أحد الضباط الذين شـاركوا فـي تنفيـذ انقـلاب 19 يوليو، وبـشرى الصـائم مصطفي قد بذلوا جهوداً لتقصي وجمع الحقائق حول الفترة التي قضاها عـبد الخالق محجوب في أبروف، مـشيراً الى أن (م.ي.م)

(1) افادة فائزة للكاتب، سبق ذكرها.

وهو أحد الشهود القلائل الذين التقوا عبد الخالق خلال فترة وجوده بحوش آل الكد "هو الذي أفادنا بأن المرحوم عبد الخالق محجوب ظل يكتب طيلة الوقت وقام بتسليم ما كتبه للمرحوم طه الكد مع وصايا.. وسمعنا بذلك (أى كتابات عبد الخالق) واهتماماً بالتفاصيل تابعنا البحث حتى عثرنا على الشاهد! وتأكدنا أن السيدة المحترمة والشيوعية (ث.أ) هي التي قامت بتسليم ما كتبه عبد الخالق للسيد محمد إبراهيم نقد"![1].

ولكن (ث.أ) إستنكرت بشدة، في إفادتها للكاتب، المزاعم المنسوبة إليها في المقال أعلاه. هذه السيدة هي (ثريا الشيخ) زوجة محمد محجوب الشقيق الأصغر لعبد الخالق، والتي كانت ضمن القلة من الناس الذين قابلوه خلال تلك الأيام. وقد نفت نفياً قاطعاً أن تكون قد سلمت نقد أو أى شخص آخر أوراقاً من عبد الخالق ".. وماعارفة من وين تحصل محمد على خوجلى على معلومة زى دى؟! وأنا في زيارتى الأخيرة للسودان قريت المقال وزعلت شديد وسألت مجذوب يحيى باعتبار إسمه ورد اختصاراً (م.ى.م)، وهو زوج سعدية شقيقتى وصديق للحزب، وقال لى بالحرف أن محمد على خوجلى أشار لأحاديث كتيرة أنا ما قلتها بالطريقة دى وهو أضاف حاجات من عنده"[2].

من جانبه أيضاً عزز مجذوب يحيى للكاتب ما ورد في حديث ثريا الشيخ، مؤكداً أنه لم يحدث أن ذكر مثل هذا الحديث لمحمد على خوجلى ".. قريت كلامو الكتبو وهو كلام كتير كتبو من

---

(1) محمد على خوجلي؛ الفصل الآخير (1-3)، سبق ذكره.

(2) افادة ثريا الشيخ للكاتب عن طريق الهاتف من مالمو بالسويد في 2005/5/23

راسو ساكت، أنا فعلاً قابلت المرحوم عبد الخالق في أيام وجوده في أبروف وطلب مني ومن المرحوم طه الاتصال بشخصين من أعضاء الحزب الشيوعي في أبروف وفعلاً اتصلنا بهما، وعبد الخالق في حديثه مع طه كان يتحدث معه حول مواضيع ووصايا أسرية بحته، ولا علم لي بوصايا مكتوبة أو خلافه أعطاها عبد الخالق لطه ليقوم بتوصيلها للحزب الشيوعي "[1].

من جهة أخرى، وفي إفادته للكاتب بخصوص (رسالة) عبد الخالق، أوضح شقيقه الأصغر محمد محجوب أن ".. عبدالمجيد شكاك حضر إلى براغ بعد إطلاق سراحه من الاعتقال الأول عام 1974م، والتقيت به في منزل المرحوم إبراهيم زكريا، حيث حدثني بأن عبد الخالق ترك لي رسالة شخصية داخل مظروف مقفول، وأن قيادة الحزب تستأذنني في أن تطلع عليها، فوافقت. وفيما بعد، ونتيجة للمشغوليات لم أسأل عن مضمونها، ولم يحدثني أحد عنها. أما فيما عدا ذلك فلا علم لي بوصية أو رسالة من عبد الخالق لقيادة الحزب، خاصة وأنني لم أكن موجوداً بالسودان في تلك الفترة "![2].

●●●

عندما دلف عبد الخالق وطه من الباب الخارجي إلى فناء منزل عم الأخير كان الفتى بابكر حاج الشيخ، الشقيق الأصغر لزوجة

---

(1) إفادة مجذوب يحيى للكاتب عن طريق الهاتف من أمدرمان، السودان في 4/8/2005.

(2) إفادة د. محمد محجوب عثمان للكاتب عن طريق الهاتف منمالمو، السويد في 23/5/2005.

عم طه، ينام بحوش المنزل، فـأيقظه طه هامساً لـه أن برفقته عـبد الخـالق الذي ينبـغى أن يقـضى بعض الوقت هناك، طالبـاً منه أن يتكتم على الأمر. وعلى حين ربض عبد الخالق غير بعيد في الجزء المعـتم من الحوش، رأى طه كـيف أن الفتى شـد قامـته، وشـمخ برأسه، قبل أن يؤكـد له بعزم أنه لم يعد يافعاً حـتى يثرثر بأمور كهذه!

والواقع أن طه الذي كان قد أخذ يحـتاط، خلال تلك الأيام، لكل شئ، قـام في وقت لاحق بصرف خـدم المنزل، كـما حـرص على تجنب الضيوف بقدر الامكان!

لم يكن هناك إذن من كان يعلم بأمـر عبد الخالـق سوى أفراد الأسـرة القلائل من أقـربائه. فبـالاضافـة الى طه وخاله مـحمـد التـيجـانى وبابكر حاج الشـيخ كانت هناك شـقيـقات طه: بـتول وصـفيـة وملكة. لكن، في ما بـعد، وضع طه، بطلب عـبد الخـالق وتوجيهـه، قلة من عضوية فرع الحـزب بأب روف في صورة ما يجرى. وقبـل ذلك كانت ثريا الشيخ، زوجة مـحمد محـجوب، قد زارته لبعض الوقت، وكان عبد الخالق يصـبرها مشجعاً ويذكرها ببعض الآيات القرآنية "قل لن يصـيبنا إلا ما كتب الله لنا"، وذلك عندما كانت تنتحب ولا تستطيع كتمان جزعها[1].

ظل الفتى بابكر يقوم على خدمة عبد الخالق طيلة فترة وجوده في ذلك المنزل. ولم يكن بابكر في واقع الأمر عـضواً بالحزب، إلا

(1) إفـادة بابكر حـاج الشـيخ للكـاتب عن طريق هاتف من أمـدرمـان، السودان عام 2004م.

أنه كان، على المستوى الانسانى، معجباً بشخصية وثقافة وبسالة عبد الخالق. ومن ذلك المدخل تعاطف مع الحزب كأغلبية شباب تلك المنطقة من أم درمان القديمة الذين حملوا عبد الخالق إلى مقاعد الجمعية التأسيسية عام 1968م. هكذا، ورغم فارق السن، نشأت علاقة حميمة بين بابكر وبين عبد الخالق في تلك المدة الوجيزة بصالون حوش حسن الكد، وتحت ظروف ذلك الكرب، ورهق الساعات بل الدقائق التي كانت تمر ثقيلة متباطئة، والمصير المفزع الذي كان يدنو من عبد الخالق رويداً رويداً! ومن جانبه أيضاً عمل عبد الخالق على إزاحة حاجز الهيبة والرهبة من نفس الفتى تجاهه، ورفع غطاء الكلفة عن علاقتهما، حتى خيل لبابكر أنه يتعامل مع صديق قديم حميم، يتقاسمان السيجارة الواحدة (تخميسة)، ويستدعيان ذكريات تلك الحملة الانتخابية الأنيقة، ومن بينها ذلك الحادث الذي كاد أن يودى بحياة بابكر لحظة إعلان النتيجة، عندما تهجم أحد الاتحاديين على بابكر بفأس حُمل على أثرها إلى مستشفي أم درمان، حيث ظل طريح سريرها لأيام زاره خلالها عبد الخالق للاطمئنان على صحته، فعد بابكر ذلك اليوم من أسعد أيام حياته!

سأله عبد الخالق عن شقيقه الأمين، الشيوعي القديم، وعن طبيعة عمله بتلغراف الخرطوم، وعن هواياته، وعن كيفية قضائه لأوقات فراغه. ودرءاً لأى التباس قد ينشأ في ذهن الفتى الذي قد يكون منفعلاً فقط بقيم البسالة، دون أية دراية بمقتضيات العمل السياسي السرى، شرح له عبد الخالق أنه ليست للحزب أو له شخصياً علاقة بالانقلاب، وأنه لم يلجأ للاختفاء خوفاً، ولكن

واجبه القيادى يقتضى ذلك في مثل تلك الظروف حتى يستطيع أن يتـحرك بحـرية باتجاه إنقـاذ ما يمكن إنقـاذه والتقليل من حـجم الكارثة بقدر المستطاع[1].

ويروي بابكر أن عـبد الخـالق، عندما أذيع خـبر إعـدام هاشم العطا ورفاقـه الضبـاط، تأثر تأثراً بالغاً، حتـى أنه دخل في حالة صمت مفاجئ، واسـتلقى على سريره منكفئا بوجهه على عـمامته لفترة طويلة، حتى خيل لبابكر أنه قد غط في نوم عميق!

وفي صبيحة السبت، وبينما كان بابكر يتهيأ للذهاب إلى عمله، أخطر عبد الخالق بأنه سـيطلب إذناً بالخروج مبكراً من العمل في ذلك اليوم، كي يعود سريعاً ليكون إلى جانبه. فأوصاه عبد الخالق بأن يجلب معـه، عند عودته، بعض الصحف والسجـائر، كما طلب منه موافاته بإحصائيـة عن برقيات التأييد التي وردت لسلطة 19 يوليو والجهات التي بعثتها.

لكن بابكر، عـندمـا عـاد للمنزل، وجـده مـقـفـلاً، وعند ذهابه للاستفسـار في جوش حسين الكد عرف أن عبـد الخالق قد غادر إلى مكان آخر![2].

●●●

كان عبد الخالق، عندما خـرج بابكر إلى عمله، ما يزال مشغول البال بأمر (الضفـه الشرقية للنهر)، حيث عـاود سؤال طه عما إذا كان قد فعل شيئاً بهذا الخـصوص مع (مراكبية اب روف). ويبدو

---

(1) المصدر السابق.

(2) سابق.

أن طه كان قد تراجع عن فكرته تلك حين استشعر خطورتها كمغامرة بحياة عبد الخالق. وكان من المحتمل، بالفعل، أن يكون شاطئ اب روف قد أصبح مرصوداً أيضا من قبل الدوريات العسكرية وعيون العسس التي انتشرت مبثوثه في كل الأمكنة. فنقل هواجسه تلك لعبد الخالق الذي لم يشاطره الرأى، بل كان يبدو متيقناً من سلامة (العملية)، ولكنه ساير طه، على أية حال، وصرف النظر عن المسألة برمتها!

أصر عبد الخالق، بعد ذلك، أن يتحول من منزل حسن الكد، حيث قدر أن لهاث أجهزة الأمن في البحث عن خالد الكد لن يلبث أن يدفعها، إن عاجلاً أو آجلاً، إلى مداهمة ذلك الحوش، رغم المنصب الأمنى الرفيع الذي يشغله إبن الأسرة كمال!

كان طه وقتها يكاد يكون قد انصرف تماماً عن كل شئ، بما في ذلك حتى مشكلة شقيقه خالد، وركز كل جهده في إنقاذ حياة ابن خاله عبد الخالق، فأجرى، بتوجيهات الأخير، بعض الاتصالات مع القلة التي لم يطالها الاعتقال بعد من أعضاء فرع الحزب بأب روف.

وبالنتيجة تقرر نقل عبد الخالق إلى منزل آخر لا يبعد كثيراً، لكن الشبهات لا تحوم حوله كون مالكه هو أحد رجالات حزب الامة!

●●●

قبيل ظهيرة السبت الرابع والعشرين من يوليو كانت العربة التي يقودها المرحوم بكرى السمانى تقف ملاصقة تقريباً لباب

منزل حسن الكد. وكـان يجلس إلى جواره شـقيق زوجتـه فضل البلولة، أحد أعضاء فـرع الحزب بالحى. ومنذ ذلك اليوم أطلق طه إسم (الفـحل) على بكرى الذي لم يكن عـضواً بالحـزب ومع ذلك تبرع بنقل عـبد الخالق بعـربته، بل وأصر على قـيادتها بنفـسه! وعلى حين وقفت صفية، إحدى شقيقات طه، تراقب الشارع ريثما يخرج عـبد الخالق ليسـتقر بالعربة، كـان بكرى يلح في إبعاد طه عن المكان تحسباً لأى طارئ بعد أن رأى حرصـه على مرافقة عبد الخالق والبقاء إلى جانبه[1].

هكذا، تحت شمس رابعة النهار، انطلقت العربة تشق أزقة الحى الشعبى، وعلى مقعـدها الخلفي يقبع الرجل الذي كانت تبحث عنه أرتال عسكر مايو وعـسسها، بجلبـابه الأبيض وعمامته البـيضاء! وفي ما بـعد حرص طه علـى رش منزل عمـه بمادة حصل عليـها بطريقة ما لمحـو آثار عبد الخالق في حـالة اصطحاب رجال الأمن لكلابهم البوليسية![2].

أوقف بكرى العـربة مـلاصقـة أيضاً لـباب منزل قطب حـزب الأمـة، حيث نزل عـبـد الخالق لـيجـد في انتظاره فـائزة أبو بكر العضـو بفرع الحزب بالحى و إبنة صاحب المنزل، فـقضى وسط

---

(1) افادة ملكة الكـد للكاتب، سبق ذكرها، علمـاً بأن رواية أخرى تشـير الى أن العضـو الآخر بفرع الحزب بالحى (س.ط) هو من رافق عـبد الخالق في عربة بكرى السمانى، وليس فضل البلولة.

(2) المصدر السـابق. وقد حاول الكاتب اخـتبار فرضـية ثارت في ذهنه بأنه قد يكون لكمـال، الخبيـر الأمنيالكبيـر وإبن البيت وإبن عم طه، دور في هذا، ولكنه لم يتمكن من التحقق منها!

أسرتهـا الصغيـرة ما تبقى من ذلك اليـوم حتى فجـر اليوم الذي يليه. وقد أفادت فائزة لاحقاً بأن "عبد الخالق قال لى بالحرف: أنا ما عندى علاقة بالانقلاب واختفائى ليس خوفاً من الموت ولكن من أجل أبناء وبنات الشـعب السودانـي وربنا يقدرنا نقـدم ليهم مـا يطورهم ويسعدهم، وكانت هذه آخر كلماته لى"[1].

ما كـاد ينقضي وقت قصيـر منذ وصول عبـد الخالق إلى هذا المنزل المأهول، كأغلب مـنازل أمدرمان القديمة، بـعدة أسر فرعـية صغيرة من شجرة عائلة واحدة كبـيرة، حتى حدثت واقعة اعتقال أحد سـاكنيه. وعلى الرغم من أن الاعـتقال تم من مكـان عمل تلك الشـخصـية بالخـرطوم إلا أنه جرى دون أن يفطن رجـال الأمن لوجود عبـد الخالق، الشخصيـة المحورية في حملاتهم المحـمومة، بمنزل من قاموا باعتقاله، بل ولم يخطر لهم ذلك أصلاً!

لكن ما أن ورد خبـر ذلك الاعتقال، حتى طلب عـبد الخالق من طه الذي كـان قد وصل آنذاك الاسـراع بنقله الى منزل خـال من السكان. والواقع أن عبـد الخالق كان قـد اقترح ذلك قبل مـغادرة بيت حسن الكد، إذ يبدو أن إقدام النميري على إعدام قادة الانقلاب من العسكريين، وعلى البطش بالمدنيين، جعله يفكر جدياً في تسليم نفســه للسلطة المهتاجة، والـتي قدر أنها لن تبرأ من سـعارها، أو تتوقف عن دمويتها وبطشـها بـالشيوعيين والقوى الديمقراطية، إلا بالقبض عليه. وقد حاول طه، جهد طاقته، أن يثني عبد الخالق عن قراره ذاك، لولا أنه تمسك به كـقرار نهائي، فطـلب منه طه التريث

---

(1) افادة فائزة للكاتب، سبق ذكرها.

حتى يتم تدبير منزل مناسب، لكن عبد الخالق واصل إلحاحه على أن يتم ذلك فوراً!

خرج طه وأجرى بضعة اتصالات مستعجلة نتج عنها، على عجل أيضاً، تدبير منزل كان أهله على سفر خارج البلاد. ويمكن القول هنا أن عبد الخالق "كانت تشغله في تلك اللحظات.. الطريقة التي يفدى بها حزبه ورفاقه، حتى إذا اقتضى الأمر تسليم نفسه لموت محقق. ويمكن أن يقال.. إنه كان يفكر في تقديم نفسه قرباناً لحزبه، ولكنه لن يكف عن أن يكون شهيداً لهذا السبب.. فإن جميع الشهداء بالمعنى الواسع للكلمة هم بطريقة ما وبمعنى من المعاني قرابين"![1].

ولا بد أيضاً أن عبد الخالق قد أحس، بصورة أو بأخرى، أن الأمر قد قضى، وأن الخناق أصبح يضيق تماماً، فلم ينتظر عودة طه، إذ غادر منزل قطب حزب الأمة على عجل برفقة شقيق فائزة أبوبكر التي أكدت أنه "لم يأت أحد ليغادر معه، ولكن رافقه من داخل بيتنا شقيقي معاوية الذي كان صديقاً له، وكان وقتها وزير دولة، ثم أصبح فيما بعد وزيراً للتشييد والأشغال قبل أن يتوفي عام 1978م، وقد ذهب معه سيراً على الأقدام إلى المنزل الذي انتقل إليه قريباً من بيتنا"![2].

هكذا انتقل عبد الخالق، فجر الأحد الخامس والعشرين من يوليو، إلى هذا المنزل الأخير الذي سيعتقل منه بعد قليل، والذي

(1) الخاتم؛ موقع..، سبق ذكره.

(2) افادة فائزة للكاتب، سبق ذكرها.

دبره المرحوم عثمان مصطفي عبد الرحمن، عضو فرع الحزب بأب روف الذي يعمل نجاراً، والذي تؤكد فائزة أنه بذل قصارى جهده من أجل تأمين عبد الخالق، وقد وقع اختياره على ذلك المنزل باعتبار أنه لا تحوم حوله أية شبهات، وأنه مملوك لعمه المرحوم الطاهر حاج حمد الذي كان وقتها في رحلة علاج بالقاهرة!

□□□

(11)

مهرجان المصادفات المشئومة!

□□

في منزل المرحوم الطاهر قضى عبد الخالق الساعات المتبقية من نهار وليل الخامس والعشرين من يوليو. لكن، وفي الساعات الأولى من فجر اليوم التالى، السادس والعشرين، فوجئ سكان أب روف والأحياء المتاخمة بلعلعة زخات متتابعة من الرصاص، وصافرات سيارات النجدة تنطلق مسرعة بين أزقة الحى العتيق، وأعداد غفيرة من ضباط وجنود سلاح المظلات وعناصر أجهزة الأمن والشرطة يطوقون بالدبابات والشاحنات العسكرية منطقة ود اللدر على تخوم أب روف، حيث يقع ذلك المنزل!

بدا العسكر في غاية الاستعجال وهم يتقافزون من الدبابات والشاحنات حتى قبل أن تستكمل وقوفها أمام المنزل، وسرعان ما انطلقوا يتسلقون جدرانه. وبعد لحظات قصار شاهد أهل المنطقة الذين تجمهروا باب المنزل الخارجى ينفتح من الداخل على مصراعيه، والضباط والجنود يخرجون منه وهم يقتادون أمامهم، لدهشة الجميع.. عبد الخالق، حافي الرأس، ساكن القسمات، بادى الارهاق، أشعث اللحية، محمر العينين، موثق اليدين خلف ظهره بحزام (القاش) العسكري المتين، تكسو بياض جلبابه وحذائه طبقة كثيفة من الأتربة والأوساخ. وسرعان ما ألقوا به بفظاظة على ظهر مصفحة انطلقت، يتبعها رتل الشاحنات والمصفحات الأخرى،

باتجاه وزارة الداخلية في وسط الخرطوم، حيث عرضوه في البداية على أبو القاسم هاشم، عضو مجلس قيادة الثورة ووزير الداخلية، وبعض كبار الضباط، قبل أن ينطلقوا به من هناك رأساً إلى معسكر الشجرة جنوب الخرطوم، حيث كان النميري ورجاله في انتظار الصيد الثمين!

●●●

أشارت تقارير جهاز الأمن، في ما بعد، إلى أن اعتقال عبد الخالق وقع بمحض الصدفة، ولم يكن نتاج أى جهد من جانب الأجهزة المختصه، حيث كان (تقدير الموقف) الذي عادة ما يجرى في مثل تلك الحالات يؤكد أن من يستطيع الهروب من معتقل حربى كسلاح الذخيره بمثل تلك المهارة، ثم ينجح في الاختفاء عن الانظار طوال تلك الفترة، يستطيع أيضاً الاختفاء لمدة أطول، وبالتالى تصعب إعادة اعتقاله بالسهولة المتصورة مهما بُذل من جهد. ولذا فقد كان من الأفضل، حسب تلك التقديرات، عدم شغل أجهزة الأمن بذلك الأمر، مؤقتاً، لأن الوقت لم يكن في مصلحتها، والتركيز على من لم يختف بعد من كوادر وقيادات الحزب العليا والوسيطة قبل أن يتواروا عن الأنظار! هذا فضلاً عن أن أجهزة الأمن لم تكن لتتصور أن عبد الخالق يمكن أن يلجأ، في مثل تلك الظروف، للاختفاء في منطقة عُرفت تاريخياً بمناصرتها للحزب الشيوعي![1]

(1) مصدر للكاتب فضل عدم ذكر اسمه.

ولعل مما عـزز عدم قـيـام مثل ذلك الـتصـور آنذاك في ذهن السلطة وأعوانها أن أحد أبرز قادة انقسام عام 1970م، وقد شهد لاحقـاً ضد قيادات الحـزب أمام المحاكم العـسكرية الايجازية مما أدى لإعدامـهم، ثم توفي خارج البلاد بـعد سنوات طوال من ذلك، كان، ضمن سعـيه المحموم لتحطيم عبـد الخالق والحزب، قد أدلى بمعلومـات لأجـهزة الأمن عـن الأماكن التي يمـكن أن يلجأ إلـيهـا السكرتير العام للحـزب، مستبعداً تماماً منـطقة أمدرمان، وبالذات أحياء بيت المال وأب روف، وحصر جل تركـيزه في منازل بعينها بمدينة الخـرطوم كـمنزل د. عبـد الحليم مـحـمـد، ومنزل القطب الاتحادى محـمد توفيق، ومنزل القطب الاتحادى إبراهـيم جبريل، ومنزل محمـد احمد محجوب رئيس الوزراء الاسبـق. وقد كشفت عن ذلك صراحة للكاتب إفادات بعض المصـادر المقربة من الأجهزة الأمنية وقتـها، إضافة لما أدلى به للرفـاعى العميد شـرطة سليمان داؤود الذي كان حينهـا برتبة مقدم، والذي أكد أنه كـان موجوداً، في أحد تلك الأيام، بمبـانى مديرية الخرطوم بمكتب المقـدم شرطة المرحوم حسن ميرغنى، "فدخلت عليهمـا (شخصية مهمة)، وبعد السلام أخبرهما أنه جاء ليبلغ بأن عبد الخالق محجوب يتواجد في منزل الاتحادى إبـراهيم جبريل قـرب مقـابر فاروق"[1]، واتضح فيما بعد أن تلك المعلومة لم تكن صحيحة!

وقد روى سليمان داؤود للرفاعى أنه، في أمسية اليوم الذي تم فيه اعتقال عبـد الخالق، كان يؤدى مهام (الضابط العظيم) بوزارة

---

(1) المصدر السابق بالاضافة إلى مقال الرفاعى الذي سبق ذكره.

الداخلية، مما حتم عليه أن يظل ساهراً حتى الصباح، فمر عليه بمكتبه المقدم شرطة حقوقي أبوبكر عباس وأكد له أنه ذاهب على رأس قوة لاعتقال عبد الخالق في حي أب روف وأنه سيعود في فترة أقصاها ساعتين ومعه عبد الخالق. وما أن انصرف المقدم أبو بكر حتى تحرك سليمان داؤود مسرعاً بعربة جيب عسكرية في محاولة لانقاذ الرجل. وكانت خطته أن يسبق المقدم أبو بكر بمقابلة أحد قادة الحزب لتنسيق انتقال عبد الخالق من المنزل المتواجد فيه إلى منزل كان داؤود قد جهزه سابقا لإخفاء أحد اصدقائه من المطلوب القبض عليهم. لكن العربة التي كان يستقلها تعطلت فجأة، مما اضطره للعودة إلى مباني المديرية لاستخدام عربة أخرى، غير أنه عندما تيسر له ذلك كان الوقت قد فات![1].

●●●

مهما يكن من أمر، فإن السؤال الذي مازال يؤرق أذهان الكثيرين، شيوعيين وديمقراطيين ووطنيين وخادبين ومهتمين، هو: من الذي وشى بعبد الخالق؟! من أبلغ السلطة عن مكان اختفائه؟!

لم تتوفر لدى قيادة الحزب، حتى الآن، أية معلومات باتجاه الاجابة اليقينية على هذا السؤال. ويؤكد التيجاني الطيب أن "المعلومات شحيحة جداً. ويبدو أن أحد الجيران أحس فجأة بحركة في المنزل الذي ظل خالياً لفترة من الزمن فأبلغ بذلك. ولكننا لم نتوصل لمصدر المعلومة التي أفضت إلى مداهمته"[2].

---

(1) مقال الرفاعي، سبق ذكره.

(2) افادة التجاني للكاتب، سبق ذكرها.

ورغم ما تثيره هذه الافادة من علامات تعجب واستفهام، كون الحزب لم يتوصل بعد كل تلك السنوات لمصدر المعلومة التي أفضت إلى مداهمة المنزل الذي كان يختفي فيه سكرتير الحزب (!) وكون المعلومات ما تزال "شحيحة جداً" بعد كل هذه المدة (!) إلا أن ثمة بعض الروايات في هذا الشأن يجدر أخذها في الاعتبار:

1 ـ تؤكد فائزة أبو بكر أن الشخص الذي أبلغ عن عبد الخالق إسمه السر، وتضيف قائلة: ".. لم يكن من السهل معرفة مكان عبد الخالق إذا لم يتم التبليغ عنه، إذ لم تكن هناك أية شبهة حول المنزل، ولم يطرقه أحد لأن أصحابه على سفر، علاوة على أنهم لم تكن لهم صلات وثيقة بأهل الحى"![1].

2 ـ ويؤكد الرائد معاش مامون عوض ابو زيد، رئيس جهاز الأمن القومي وقتها، أن اعتقال عبد الخالق تم بمساعدة شخص أبلغ عن مكانه، فقد ".. تبرع أحدهم بتلك المعلومة مقابل أن نضمن له سلامته.. لست أذكر الاسم ولكنه عضو بالحزب الشيوعي"![2].

3 ـ تضمنت إفادة المرحوم عثمان مصطفي للرفاعى الذي ضمنها مقاله المنشور والمشار إليه بشأن ملابسات إختفاء عبد الخالق ثم اعتقاله بحى أب روف ".. أنه تلقى اتصالاً هاتفياً من المرحوم طه الكد وآخر طلبا إليه خلاله المشاركة في

---

(1) افادة فائزة للكاتب،سبق ذكرها.

(2) افادة الرائد معاش مامون عوض أبوزيد، عضو مجلس قيادة الثورة في انقلاب 25 مايو 1969 ومدير جهاز الأمن القومي الأسبق،للكاتب عن طريق الفاكس من القاهرة بتاريخ 14/9/2004.

توفير مخبأ للمرحوم عبد الخالق فنصحهما بأهمية اللقاء سوياً لعدم جدوى وسلامة الاتصالات عبر الهاتف، وأنه سعى بعد ذلك في إعداد منزل عمه بعد أن صرف مساعد السائق. ويضيف المرحوم عثمان مصطفي بأن أحد أقاربه، وإسمه عركي، ممن تربطه صلة ما بمدير جهاز الأمن القومي الرائد مامون عوض ابو زيد، قد علم بنية إخفاء المرحوم عبد الخالق فذهب ونقل النبأ للرائد مامون. كان بلاغ عركي قاصمة الظهر، إذ حوصرت منطقة المنزل برقابة أمنية دقيقة، واعتقل المرحوم عثمان مصطفي من موقع عمله بوقاية النباتات بالخرطوم بحري وأودع، إمعاناً في عزله، بشرطة قسم الخرطوم بحري قرب سوق الخضروات. بعد انتقال المرحوم عبد الخالق إلى المنزل تم اعتقاله، ونقل عثمان مصطفي إلى مباني الأمن القومي بالخرطوم لمقابلة الرائد مامون. وعند دخول عثمان مكتب الرائد مامون وجد معه قريبه عركي الذي نصح عثمان مصطفي بالتعاون مع (سيد مامون) إنقاذاً لحياته، وبترك مسألة الشيوعية لخطورتها على حياته. قام الرائد مامون بصفع المرحوم عثمان مصطفي على وجهه صفعة قوية قصد منها تهيئته للادلاء والاعتراف بما يطلب منه"![1].

(4) 4 ـ بأن اثنين من أقرباء المرحوم عثمان مصطفي وعمه المرحوم الطاهر، هما (أ) و (ع)، علما، بشكل أو بآخر، بوجود عبد الخالق في منزل المرحوم الطاهر، فتآمرا في ما

---

(1) مقال الرفاعي، سبق ذكره.

بينهما على التبليغ عنه، وكانا يعتقدان بأن السلطات ستكافئهما مالياً!

5 ـ كذلك ثمة رواية خامسة تتعلق بـ (ف. أ). ففي بحثهم الحثيث عن الشيوعيين بأم درمان، مع التركيز على المناطق التي عرفت بمناصرتها للحزب كبيت المال وأب روف، وصل أفراد الأمن إلى منزل المذكور. وأثناء التفتيش الروتيني وجدوا، بالمصادفة، ورقة صغيرة الحجم بين متعلقاته مكتوباً عليها "وجدنا مكاناً آمناً للرجل"! فما كان منهم إلا أن أخذوه معهم وضيقوا الخناق عليه كي يفسر لهم معنى تلك القصاصة المثيرة للشكوك! لكن اعتقاله لم يدم طويلاً، إذ سرعان ما أطلق سراحه! وكان أن أثارت عودته السريعة في تلك الظروف دهشة طه الذي سأله عن السر وراء إطلاق سراحه بتلك الكيفية، خاصة وأنهم وجدوا معه تلك القصاصة! وانتهي الأمر بطه للتشكك في أمر الرجل، وواجهه بالاتهام مباشرة، بل وأنذره بأنه إن حدث مكروه لعبد الخالق فإنه شخصياً سيحمله مسئولية ذلك. غير أن (ف. أ) نفي التهمة بشدة، وأكد لطه أنه، عندما ضيقوا الخناق عليه، قال لهم إن المقصود هو خالد الكد![1]. لكن طه، بصرامته الاخلاقية المشهودة، ورغم الصداقة القوية التي كانت تربطه بالمذكور، قطع صلته نهائيا به، فلم يكن يتحدث إليه أو حتى يحييه إلى أن توفي طه![2].

(1) افادة خالد الكد بأمدرمان 1979م، وإفادة الخاتم عدلان بلندن 2002م للكاتب.

(2) مصدر للكاتب فضل عدم الاشارة لاسمه.

هذه الرواية يؤيدها، بصورة أو بأخرى، ما كتب محمد على خوجلي، الكادر السابق بالحزب، قائلاً: ".. علم المرحوم طه والشاهد (م.ى.م) باعتقال (ف.ب) و(ع.م.ب)، فظلا يتابعان حتى حضرا إليهما بعد إطلاق سراحهما.. عند مواجهة المرحوم طه لهما بحضور الشاهد (م.ى.م)، ولماذا أطلق سراحهما، أجابه (ف.ب) بأنه عند تفتيشه تم العثور معه على مذكرة بخط يده مكتوب عليها (لقد وجدنا مكاناً آمناً للرجل)، وأنه.. تحت الضغط.. فسر لهم أن الرجل المقصود هو خالد الكد، فانفعل طه: كيف يعثر معه على المذكرة وتعاد إليه.. الخ، واتهمهما بتسليم المرحوم عبد الخالق فلاذا بالصمت"[1].

من جانبه يضئ الطريفي يوسف الشيخ، عضو فرع الحزب بأب روف، الاشارات الواردة بالأحرف الأولى في مقال محمد على خوجلي، ".. فالسيد (م.ى.م)، هو مجذوب يحى صهر طه وخالد الكد وأيضا الشهيد عبد الخالق فهو متزوج بإبنة خالتهم. أما (ف.ب) فهو.. فضل البلولة، وهو موجود الآن بالامارات، وقد تم الاتصال به ليرد حول هذا الموضوع"[2]. وعلى الرغم من نشر إضاءات الطريفي على نطاق واسع، وتأكيده بأن اتصالاً قد تم مع فضل البلولة ".. ليرد حول هذا الموضوع"، فإن الأخير، حسب علم الكاتب، لم يرد!

---

(1) محمد على خوجلي: الفصل الأخير (5)، سبق ذكره.

(2) مقال الطريفي يوسف الشيخ بصحيفة (الأيام) بعنوان: "تعليق على مقالات السيد محمد على خوجلي ود. الرفاعى، حول الفصل الأخير من حياة القائد الوطنى الشهيد عبد الخالق محجوب".

على أية حال فإن الحقيقة هي أن عبد الخالق قد اعتقل وسط مهرجان المصادفات المشئومة تلك. ولذلك فإن قادة (الأجهزة المختصة) لم يشعروا في قرارة أنفسهم بأن ذلك (الانجاز) قد تم بفضل أى جهود بذلوها، أو أنه شكل انتصاراً لهم على أى نحو!

●●●

سارعت السلطة للاعلان عن اعتقال عبد الخالق بُعيد وقت قصير من وقوعه. وما لبث الخبر أن سرى داخل وخارج البلاد سريان النار في الهشيم. وقد أوردته صحيفة الأيام كالآتى: "تمكنت سلطات الأمن في الثانية من صباح أمس من القاء القبض على عبد الخالق محجوب سكرتير الحزب الشيوعي المنحل بعد اندحار المؤامرة الفاشلة وبعد أن شوهد في أماكن عامة بعد نجاح الانقلاب. وعلمت (الأيام) من مصدر مسؤول في أجهزة الأمن أن معلومات تلقتها السلطات بانتقال عبد الخالق محجوب من منزل في حى أبى روف إلى منزل آخر بود اللدر بنفس الحى، وعلى الفور وضعت السلطات خطة لمراقبة المنزل وتم تنفيذها بدقة متناهية حتى الساعات الأولى من صباح أمس حيث داهمت قوة كبيرة المنزل وألقت القبض عليه" [1].

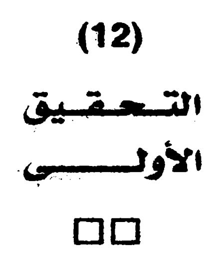
ومن مكان ما إتصل محمد إبراهيم نقد تلفونياً بنعمات مالك لكى يستوثق من الخبر والمكان الذي وجدوه فيه، فأكدت له نعمات المعلومة، فودعها ووضع سماعة الهاتف[2].

□□□

---

(1) صحيفة الأيام، الثلاثاء 27/7/1971م، ضمن (الصحافة، العدد/ 5004 بتاريخ 22/7/2004).

(2) افادة نعمات للكاتب عن طريق الهاتف، سبق ذكرها.


(12)
التحقيق
الأولي
□□

كانت الأجـواء العامــة داخل سـلاح المدرعات، وربما كـل منطقة الشجرة جنوب الخرطوم، تحمل رائـحة الموت، حيث اختلط دخان البارود الخانق بمشاعر الهستيريا المنفلتة وتوتر الجنود بأحذيتهم العـسكرية الملطخـة بوحل الخريف ولزوجـتـه! كان المئـات منهم مـدججين بأسلحـتــهم، وثمة أرتال من المصـفـحات والشـاحنات العسكرية حـول وبين (الهناقر) الضـخمة التي حُـولت الى أماكن للاحتجاز، فاكتظت بأعـداد ضخمة من العسكريين والمدنيين الذين كانوا يقـبعـون هناك ينتظرون مصـيرهم المجـهول بعـد أن جرى اعتقالهم من مواقع مختلفة. وكانت ثمة ثلاثة مكاتب يشرف عليها ضباط الاستـخبارات والقضاء العسكري، حيث تجرى مـحاكمات عسكرية ايجـازية لا تسجل مضـابطها ولو حالة واحـدة (لشاهد ملك)، ولا تستغرق إجراءاتها، في المتوسط، سوى دقائق معدودات يرسل (المتهمون) بعدها إما إلى (الدروة) لتختلط أشرف الهتافات بمزق الأجساد المتطايرة تحت زخات النيران الكثيفة، أو إلى مشنقة (كوبر) لتـتدلى على هدير (ترابيسهـا) الداوى أعناق أنبل الرجال، أو إلى عـتمـة الزنازين بأحكام السـجن الموحش طويل الأمد. أمـا اللواء جعفر نميري، المحتشـد الدواخل فزعاً من مجرد فكرة أنه قد عاد لتوه إلى سدة الحكم.. بمعجزة، فقد كان محض طاقة شيطانية

منفلتة من عقالها، معجونة بالخوف والجبن والخسة والنذالة، وتسيطر، مع ذلك، منفردة على المشهد بأكمله!

●●●

حوالى العاشرة من صبيحة ذلك اليوم السادس والعشرين من يوليو توقفت في قلب ذلك المكان المرعب المصفحة التي كانت تقل عبد الخالق، حيث أنزلوه ليقتادوه مصفد اليدين من الخلف، يحيط به عسكر مايو كالوحوش الضارية، وأسلحتهم الفتاكة مصوبة نحو كل بوصة في جسده من كل الجهات. لكنه، برغم كل ذلك، كان يسير وسطهم مرفوع الرأس، ثابت الخطى، تماماً كما شهد بذلك صحفيون عالميون ومحليون، وكما بدا في كل الصور الفوتوغرافية التي التقطت له في تلك اللحظات، ليدلف، بهيئته تلك إلى المكتب الذي سيمثل فيه أمام النميري وزبانيته، وعلى رأسهم الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم عضو مجلس الثورة، والعميد احمد محمد الحسن مدير فرع القضاء العسكري الذي ترأس، في ما بعد، محاكمته الصورية المهزلة، إلى جانب بعض وزراء النميري وبطانته، كمنصور خالد وعمر الحاج موسى، وبعض الصحفيين المصريين كموسى صبرى ومريم روبين.

وفي كتابه (السيف والطغاة) يصف العميد معاش السر أحمد سعيد تلك الأجواء قائلاً: "في الغرفة التي كانت مخصصة مكتباً لقائد سلاح المدرعات جلس الرئيس جعفر النميري وعلى يمينه اللواء خالد حسن عباس، بينما جلس بجانبه الصحفي المشهور موسى صبرى ممثلاً للصحيفة المصرية ذائعة الصيت أخبار اليوم وهو يغطى الأحداث. ووقف وراء الطاولة التي يجلس عليها

الرئيس عـدد من الحراس المدججين بـالسلاح. أما الرئيـس نميري فقـد بدا مسود الوجه وغـير آبه الا بالأحداث التي أصـبح يسيطر عليها تمامـاً بعد يوم العودة. لم يكن مهـتماً حتى بلبســه، فإحدى علامات غصن الزيتون على ياقته غير موجودة، بينما كانت الثانية مثبتة، وذلك قطعاً شئ ملفت للنظر " (1).

أما منصور خالد فقد وصف مشــهد ذلك اللقاء في كتابه باللغة الانجليزيه (نميـري وثورة مايو الفزع) بقـوله: "كان عبـد الخالق متعباً، مرهقاً، وقد تشـققت شفاهه. طلب ماء وصب له عمر الحاج موسى كوباً، ثم آخـر، ثم ثالثاً، ولما كانت أيدي الرجل مقيـدة فقد أمسك له عمـر بالكوب يعينه على الشرب، وحين أطفأ عـبد الخالق ظمأه سألنى سيـجارة، واستجبت، واشعلت له واحدة ووضـعتها بين شفـتيه.. وظهـر في هذه اللحظه الرئيس نميـري وابو القاسـم محمد إبراهيم. نظر نميري للرجل مقيد اليدين، وقرش أسنانه، ولم ينبس بحرف، لكنه عاد بانفعال ليلتـقط كوب ماء ممتلئ إلى نصفه وصبه على وجه عبـد الخالق. أما ابو القاسـم، الحوار الذي أراد أن يغلب شيخه، فقد انتزع السيجارة من فم عبد الخالق" (2).

إستـجوب نميري عـبد الخـالق بفظاظة، عارضاً عـليه بعض الوثائق. وقد حاول استفزازه عدة مرات بـأسئلة سخيفة وساذجة عن مأكله ومشربه وما إذا كان يتضمن (الكافيار) و(الفودكا)! أما حين سأله عـما قدم للشعب والـوطن، فإن عبد الخـالق رماه بتلك الاجابة الشهيرة التي تناقلتها الصحف وأجهزة الاعلام العالمية في

---

(1) ضمن طارق: 3 أيام... سبق ذكره، ص136-137.

(2) ضمن عبدالله على إبراهيم: شهادات وأخبار، سبق ذكره.

حينهـا، وجرى تداولها بشكل واسع في مـا بعد: "الوعى.. الوعى بقدر ما استطعت"!

●●●

تم تحويـل الرجل، بعد ذلك، لأخـذ أقواله بواسطة ضـابط من فرع القـضاء العسكري، علماً بأنه لم يسـمح له بمراجعة مـحضر التحقيق الذي سجلت عليه أقواله أو التوقيع عليه، كما وأن المحضر نفسه لم تتم الاستعانة به في جلسات المحاكمة!

كان التحـقيق الأولى عبارة عن اسـتجواب لا علاقـة له بالتهم التي نسـبـت اليـه داخل المحكمـة، وقـد انصب فـي غـالبـه على استيضاحات حول كيـفية هروبه من مصنع الذخيرة، والأشـخاص الذين ساعدوه في ذلك، والأماكن التي لجأ إليـها أثناء اختفائه قبل وبعد يوم 19 يوليو، ونشاط الحزب الشـيوعي في سلاح الذخيرة والأسلحـة العسكرية الأخـرى، وأسمـاء الضبـاط والجنود الذين ينتمون الى الحزب داخل القوات المسـلحة. لكن عبد الخالق لم يرو غليـل المحـقق، ولـم يكشف، بـالأخص، عن أى إسم، لا فـي ذلك الاستجواب الأولى ولا داخل المحكمة. وللدقة فقد كان يشير أحياناً إلى أسماء الأشخاص الذين كان قد تأكـد من اعدامهم، كعثمان أبو شيبـة الذي أكد أنه قد أخفاه بمنزله بالحرس الجـمهورى، وهاشم العطا الذي ساعد في تهريبه من سـلاح الذخيرة. أمـا عن الورقة التي وجـدت بخط يده بمنزل سعـاد إبراهيم احـمد مـدوناً عليهـا ترشيحـات لوزارة 19 يوليو، والتي سألت المحكمة صديقـه حامد الانصارى عـن سبب وجودهـا في منزله، فقـد بادر عبـد الخالق للاعلان بشجاعة وشهامة عن أنهـا تخصه، وأنه كان قد تركها مع

علبة سجائره على طاولة بمنزل حامد الأنصاري. وأما بخصوص معرفة الحزب بالانقلاب فقد نفي ذلك قائلاً ان الحزب فوجئ بالانقلاب في الراديو وسانده بعد نجاحه، وهو ما أشارت اليه وثيقة تقييم الانقلاب التي صدرت بعد سنوات طوال من ذلك عن اللجنة المركزية للحزب بأن "قرار التحضير للانقلاب وتنفيذه للاطاحة بديكتاتورية مايو لم يتخذه عبد الخالق محجوب أو الأمانة العامة أو المكتب السياسي أو اللجنة المركزية ـ ذلك شرف لا ندعيه. لكننا لا ننفي حقيقة أن العسكريين عرضوا علينا فكرة الانقلاب، وهم ليسوا أول عسكريين يعرضون على حزبنا فكرة انقلاب، وأننا ناقشنا الفكرة في المكتب السياسي، وطرحنا عليهم وجهة نظرنا وملاحظاتنا وتحفظاتنا، وطلبنا منهم مناقشتها وإبداء رأيهم حولها، تمهيداً لطرح الأمر على اللجنة المركزية ـ تلك تهمة لا ندفعها. أما إعلان عبد الخالق أمام جلاديه في المحكمة عن أن الحزب الشيوعي ولجنته المركزية لا علاقة لهم بالانقلاب، وأن هاشم اتصل به في المعتقل وأخطره بالانقلاب ومن ثم يتحمل المسئولية وحده، فتلك شهامة وفداء _ لكن عبد الخالق لم يتخذ القرار، بل أصر على طرح الأمر على قيادة الحزب" [1].

●●●

ضمن إفادته للكاتب قال الرائد معاش مأمون عوض ابو زيد، عضو مجلس الثورة ورئيس جهاز الأمن القومي، وقتها، إنه التقى بعبد الخالق قبل دخوله على النميري وأنه سأله قائلا: "أهذه يا

---

(1) الحزب الشيوعي؛ 19 يوليو...، سبق ذكره.

عبد الخالـق هي حركة الجماهير التي قلت إنهـا لا بديل عنها؟ فرد عبد الخالق قائلا: لم يكن لنا خيار سوى ذلك"! [1].

إفادة مـامون هذه (حمـالة أوجه) إلى درجة مـحيرة في أكـثر التقديرات موضوعية:

فهي، من جهة، تبدو متنافرة بالكلية مع الوقائع الثابتة وقرائن الأحـوال. إذ لو كانت تلك بالفـعل إجـابة عبـد الخالق على سـؤال مامون، لـشكلت اعترافاً ضـمنياً منه بأنه والحزب قد شـاركا في الانقلاب والاعـداد له بصورة أو بأخـرى! وهو ما يتناقض جـملة وتفصيـلاً مع معطيات أخرى، لعل أقـواها احتداده مع هاشم، في أول لقاء بينهما بعد نجاح العملية العسكرية الفنية للانقلاب، حول تعجلهم وعدم انتظارهم لرأى الحزب الذي كان يُتوقع صدوره بعد اجتـماع اللجنة المركـزية مسـاء 19 يوليو المخـصص لتداول رأى العسكريين بحضور هاشم، وإلى ذلك نفيه المتكرر بشكل ثابت لأى علاقة له أو للـحزب بالانقلاب، مما ورد، مثلاً، ضـمن الأمانة التي حملها لطه الكد، إضـافة إلى أقواله التي سترد لاحقـاً في مضابط محاكمته!

لكنها، من جـهة أخرى، تبدو منسـجمة تماماً مع إفـادة نعمات مالك، أرملة عـبد الخالق، للكاتب في هذا الخصـوص، والتي أكدت من خلالها أنهـا لاحظت بعد ظهر يوم 19 يوليو أن "عـبد الخالق اعتـراه قلق ما عندمـا لم تقطع إذاعة أمدرمـان برامجـها في وقت

---

(1) افادة مامون للكاتب، سبق ذكرها.

معلوم.. لتبدأ في بث المارشات العسكرية الممهدة لاذاعة البيان الأول للانقلاب "![1].

لا شك أن إفادة نعمات هذه تكاد تكون الأكثر خطورة وسط كل ما تلقيت وأثبت من إفادات عبر هذا الكتاب، فهي، بوزن مصدرها، تتجه، أول ما تتجه، لتعضيد رواية مامون، مباشرة، وإلى حد بعيد. غير أننا لو نظرنا إليها، موضوعياً، من الزاوية الأخرى، لوجدنا أنها معلولة بشبهة الاستنتاج، لا الافادة بواقعة مباشرة، كما وأنها لا تخلو، بدورها، من نفس علة رواية مامون، من حيث التناقض مع جملة الوقائع الثابتة، والتنافر مع كل قرائن الأحوال.

وثمة أمر آخر لا يقل أهمية في هذا الشأن، إذ يتبقى، موضوعياً أيضاً، الاحتمال الآخر القائم في كون الانقلاب نفسه لم يكن، على أية حال، ليشكل بالنسبة لعبد الخالق مفاجأة هكذا بالمطلق! فمثلما حدث في انقلاب النميري، كما قد رأينا، كان الرجل، هذه المرة أيضاً، على درجة كبيرة من العلم بالاتجاه الغالب وسط الضباط الاحرار نحو الحركة التصحيحية. وقد وقفنا على مناقشاتهم معه حول الأمر منذ أن كان حبيس الغرفة الصغيرة بسلاح الذخيرة، واتصال تلك المحادثات بعد تهريبه، وحتى طلبه إلى هاشم حضور اجتماع لجنة الحزب المركزية الذي كان مقرراً مساء 19 يوليو نفسه، لعرض الأمر عليها وأخذ رأيها. لهذا السبب على الأرجح، فإن هنالك أساس قوى لتغليب احتمال ألا تكون تقديرات قائد

---

(1) افادة نعمات مالك للكاتب، رسالة بالانترنت، مارس 2005م.

سياسى، بذكاء ودقة وحصافة وتمرس عبد الخالق، بعيدة كل البعد عن تكوين تصور، ولو تقريبى، ليس فقط لما ستنتهي إليه الأمور في ما لو أصر الضباط الشيوعيين والديموقراطيين على تنفيذ مخططهم، بصرف النظر عن موقفه هو أو موقف اللجنة المركزية، بل وللتوقيت الراجح للتنفيذ، بذات القدر من ملابسات علمه قبل عامين من ذلك، ليس فقط بأن تنظيم الضباط الأحرار يعد لانقلاب بقيادة البكباشى جعفر نميري، بل وأن الانقلاب سيقع فجر 25 مايو 1969م، دون أن يعنى ذلك موافقته هو أو موافقة الحزب! وبالتالى فحتى متابعة الاذاعة "بقلق" في وقت معين يمكن ألا تعنى، في الحساب النهائى، وبالنظر لقدرات الرجل السياسية المشهودة، أكثر من ذلك!

من هذه الزاوية فقط (يحتمل) فض الاشتباك الغريب بين روايتى مامون ونعمات. أما إذا افترضنا تطابقهما في اتجاه (المدلول الآخر) فإن دوامة من الأسئلة الحائرة والمحيرة ستبقى بلا إجابات مقنعة، سواء كان ذلك على صعيد التناقض والتنافر مع الوقائع الثابتة وقرائن الاحوال المنطقية، كما قلنا، أم كان على صعيد السؤال الجوهرى الذي لا مناص من طرحه بإزاء (افتراض) موافقة عبد الخالق على انقلاب 19 يوليو: هل وقع بموافقته هو وحده أم بموافقة الحزب مؤسسياً؟! وفي كلا الحالين: لماذا تم التخلى عن الموقف السابق المعلن، والمؤسس فكرياً، والمعتمد كخط للحزب، من الانقلابات العسكرية باعتبارها "وسيلة البرجوازية الصغيرة التي تتأفف من العمل الشعبى الصبور"؟!

●●●

أخيـراً أودع عبـد الخالق مكتبياً متـرباً مهجـوراً جافـياً وسـئ التهـوية داخل معـسكر الشجرة، حـيث أخلد لنوم مرهق مـتقطع تتخلله مخـايل غائمة متداخلة من تراجيـديا الأيام القليلة الماضية، وأخرى من مـاض عامـر سحـيق، في انتظار أن تكتـمل إجراءات التحـضير لمحاكـمته التي تقـرر أن تكون عسكرية ميدانيـة، أسوة بتلك التي كانت وقتها قد جرت أو ما تزال تجرى داخل ذلك المكان الكئيـب، وقضت أو يتوقع أن تقـضى على حيـاة رجال لم يتـوفر لهم، قط، قضاء يتسم ولو بالحد الأدنى من الاستقلال أو النزاهة!

□□□

(13)

السعار!

□□

سبق أن شهد نفس هذا المكان عام 1959م، وبإجراءات مشابهة تماماً، محاكمة واعدام أول فوج من العسكريين يتم إعدامهم بعد الاستقلال. ففي أعقاب المحاولة الانقلابية الفاشلة التي وقعت في الحادى عشر من نوفمبر عام 1959م ضد النظام العسكري الأول بقيادة الفريق إبراهيم عبود (1958- 1964م)، أصدرت المحاكم العسكرية التي شكلها المجلس الأعلى للقوات المسلحة، آنذاك، أحكاماً بالاعدام شنقاً حتى الموت على كل من البكباشى على حامد، البكباشى يعقوب كبيده، الصاغ عبد البديع على كرار، اليوزباشى طيار الصادق محمد الحسن، اليوزباشى عبد الحميد عبد الماجد. كما أصدرت أحكاماً بالسجن المؤبد لكل من الصاغ عبد الرحمن كبيده والملازم ثانى محمد محجوب عثمان، والسجن أربعة عشر عاماً لكل من اليوزباشى عبد الله الطاهر بكر والملازم محمد جبارة.

وبعد ما لا يزيد إلا قليلاً عن العقد من الزمان أخضع ضباط 19 يوليو 1971م لنفس الاجراءات، وفي نفس المكان. ويروى عنهم الملازم أول معاش عبد الرحمن فضل الله قائلاً: "كنت شاهداً على إعدامهم، وأذكر منهم العقيد عبدالمنعم محمد أحمد والمقدم محمد عثمان ابوشيبه والرائد محمد احمد الزين والرائد

معاوية والملازم محمد جباره وآخرين. حين صدرت التعليمات بالضرب رأيت الرائد محمد أحمد الزين يستأذن ويصلى ركعتين، ثم اصطفوا ووقفوا وقفة عسكرية وعملوا إنتباهاً ثم (مارش) ثم (خلف دور) وكأنهم في طابور شرف! عندها قال الرائد محمد أحمد الزين (نحن جاهزون) فأطلق عليهم الرصاص. ما لا أنساه للفقيد عبدالمنعم محمد احمد (الهاموش) أنه، عندما أطلق عليهم الرصاص، لم يسقط دفعة واحدة، بل نزل على ركبتيه وكأنه يمارس حركة رياضية! أيضا لا أنسى أن السيجارة التي كانت بين شفتيه لم تسقط بفعل الرصاص الذي اخترق جسده (...) ساعتها أحسست بالفخر لشجاعة الجندى السوداني التي جعلته يواجه الموت وعيناه مفتوحتان، وقلبه ثابت، وتمنيت لو كنت واحداً منهم" [1].

إتسم تشكيل وأداء تلك المحاكم العسكرية الايجازية بعدم الحياد وبالتدخل المكشوف من قبل جعفر النميري. وكمثال صارخ على ذلك روى اللواء أحمد على اللورد قائلاً: "المجلس العسكري الأول لفاروق وبابكر أمر بسجنهم فقط بحكم أنهم لم ينفذوا وكانوا بالخارج، السلطة لم تقتنع وأمرت بإعادة النظر في الحكم، وسبع مرات على التوالى كان يصدر نفس الحكم، وفي آخر الأمر حلته السلطة الحاكمة وكونت مجلساً آخر أمر بالاعدام" [2] وواضح بالطبع أن المقصود "بالسلطة الحاكمة" في حديث اللواء

---

(1) حوار بصحيفة أخبار اليوم،سبق ذكره.

(2) المصدر السابق

اللورد ليس سوى جعفر النميري الذي انفرد وحده بتشكيل تلك المحاكم العسكرية والتصديق على أحكامها ان صادفت هواه، وإلا فإنه كان يعيد أوراق التصديق آمراً باعادة المحاكمة، وهو ما حدث بالفعل في محاكمة كل من المقدم بابكر النور والرائد فاروق حمد الله. وفيما يتعلق بابكر النور فقد حاكمه أولاً العميد تاج السر المقبول ".. وأصدرت المحكمة حكمها عليه ب 12 عاماً سجناً. رفض النميري نتيجة الحكم وأعاد الأوراق مرة أخرى. ثم أعيدت المحاكمة وصدر الحكم ب 20 عاماً. وعندما أعاد نميري الحكم للمرة الثانية رفض العميد تاج السر أن يرأس المحكمة، ورفض كل الضباط الذين كلفوا برئاستها باعتبار أن نميري يريد فرض حكم الاعدام، حيث كان في كل مرة يعيد أوراق الحكم قائلاً: (ده رئيس مجلس ثورة تحاكموه كده؟!) ثم اتصل بالمقدم صلاح عبد العال تلفونياً، فحضر وتسلم أوراق القضية وحكم على بابكر بالاعدام "![1].

أما المقدم صلاح عبد العال مبروك نفسه فقد أكد الرقيب معاش عثمان الكودة، في إفادته للكاتب، أنه شوهد بالقيادة العامة بعد نجاح انقلاب 19 يوليو، وقد بدا فرحاً منتشياً بنجاح الانقلاب، وقد حرص على الدخول لمكتب الرائد هاشم العطا مهنئاً ومباركاً! كما أكد الكودة أيضاً أن بعضاً من الذين حاكموا عبد الخالق كانوا يعلمون، قبل الانقلاب، أنه مختبئ بمنزل أبشيبة! بل إن بعض هؤلاء كان على اتصال به هناك!

---

(1) الحزب الشيوعي السوداني: مجازر معسكرالشجرة ـ حقائق ووقائع، ج 1، يوليو 1973م.

وحول انفراد نميري بتشكيل المحـاكم، والتصديق على أحكامها منفرداً، ودون حتى مـشاورة أعضاء مجلس الثورة الآخـرين، فقد برره الرائد معاش مامون عـوض ابو زيد بقوله: "تلك حالة كانت تسمح بذلك، وبأكثر من ذلك"![1].

●●●

- "لست نادمـاً على مـا قمت به.. وإن كـان لى أن أندم فـذلك لأنني تركتك حياً لثلاثة أيام وعاملتك معاملة كريمة"!

هكذا رد هاشم الـعطا على النمـيـري عندمـا سـأله بطريقـة استـفزازية، بعـد اعتقـاله مبـاشرة، عمـا إذا كان الانقـلاب قد تم بتوجيه من "أهلك الشيوعيين"!

والواقع أن هاشم كـان قـد اسـتطاع، عقـب انهيـار الانقـلاب مبـاشرة، الخروج من مـبنى القيادة العـامة بعد أن تأكـد من عدم جدوى المقـاومة، خاصـة أنه كان "ضد وقـوع مجزرة دمـوية قد تطال المدنيين"، حسب رده على الطيار الحربي صبرى أرباب الذي كـان قـد اقـتـرح "إشـراك الطيـران لمواجـهـة الدبابات المعـادية وإخراجـها من المعـركة في لحظات"! ويؤكـد الخبـراء أن ذلك قد كان، بالفعل، ميسوراً فيما لو كـان هاشـم قد أعطى موافقته، مغلباً تأمين الحركة على أرواح الناس!

من مـبنى القيـادة العامـة استطاع هاشم الوصـول، مع بعض رفاقه، إلى مقابر فاروق بالخرطوم. وهناك عـقدوا اجتماعاً سريعاً طلب فيـه من المدنيين المغادرة سـريعاً، على حين وجـه العسكريين

(1) افادة الرائد مامون للكاتب،سبق ذكره.

بتسـليم أنفسهـم طالباً منهم عـدم كشف أسـماء أعضـاء التنظيم العسكري أو أسماء المشتركين في المحـاولة، مهما واجهوا من عنت وقسوة أثناء الـتحقيق، كمـا نصحهم بأن يتمـسكوا بالقول بأنهم تلقـوا أوامر التـحرك العـسكري منه شخـصيـاً، وأن مسـئوليـة الانقلاب تقع عليه وحـده، ثم "قام بإحراق كل الأوراق التي تدين الملكيين" (1).

ما كـادت تلك الثلة الصـغيـرة من الرفاق تتـفرق حتـى جرى اعتـقال هاشم، حـيث اقتادوه بطريقـة مزرية بعـد أن أوثقوا يديه ووسطه من الخلف بشدة حتى برز صدره للأمـام! كانوا في قمة الرعب والهـستيـريا، وكان هو في قـمة التـعب والاعياء، مـرتدياً جلباباً فوق زى مجلس قيادة الثورة و.. فردة حذاء واحدة! "وفي غـرفة قـرقـول سـلاح المدرعات قـضى هاشم السـاعـات الأولى لاعتقـاله موثوق اليدين، مـستلقياً على ظهـره، وكان رغم الارهاق ثابتاً هادئاً ومبتسماً كـعادته. وعندما حانت منه التفاتة نحو بعض الضباط المعتقلين، خاطبه أحدهم ـ الملازم هاشم المبارك ـ ممازحاً: (هاردلك يا هاشـم)! وبعد لحظات دخل الغرفة الملازم كـمال سعيد صبرة وبدأ يستفز الشهيد الذي نظر إليه في سخرية واستخفاف، فوطأ المـلازم نظارة الشهـيد فهـشمـها (...) وعندمـا أدخلوه إلى النميـري طرح عليه بعض الأسئلة الاستـفزازية، وحاول التحـقيق معه، فرفض هاشـم، وأعلن أنه لن يدلى بأى أقـوال إلا أمام محكمة علنية (لأنكم ستتشوهون أقوالـي وتحرفوها)، وأكد أنه يتحمل كل

---

(1) صحيفة أخبار اليوم، سبق ذكره.

المسئولية (...) ليس لديكم حجة في محاكمة الضباط والجنود والصف "[1].

لم تستغرق محاكمته الصورية سوى دقائق معدودات صدر بعدها الحكم بإعدامه رمياً بالرصاص. لكن أسرته الطيبة لم تكن، في واقع الأمر، تتوقع إعدامه، معتمدة في ذلك، حسبما أوضحت شقيقته أم سلمة، على أنه كان "هنالك ميثاق عهد بين أعضاء مجلس قيادة ثورة مايو بأن لايؤذى أى واحد منهم الآخر أو يعدمه، ولكن نميري نكص عن العهد وخانه وأعدم هاشم والآخرين"![2] وكان هاشم قد ذكر بالفعل، عقب نجاح حركته مباشرة، لبعض أفراد أسرته الذين استفسروه عن مصير النميري، أنه لن يعدم لأن هناك "ميثاق بينهم أن لا يؤذى أحدهم الآخر وأنه لن ينكص بمواثيقه"![3].

ما أن صدر الحكم حتى سارعوا لاقتياده إلى (الدروة). "كانت السماء ملبدة بالغيوم، والشمس مائلة للغروب، والأرض معطنة بالطين الممزوج برائحة الموت، نفس المكان تم فيه إعدام الذين سبقوا هاشم: الهاموش.. أبشيبة.. بشير عبدالرازق.. ود الزين.. أحمد جبارة.. الحردلو.. كلهم أدهشوا الموت وجلاديهم بثباتهم الخرافي"[4]. وكانت قد غابت تماماً عن تنفيذ تلك الاعدامات "أبسط الاجراءات القانونية والانسانية المفروض اتباعها عند تنفيذ

---

(1) الحزب الشيوعي؛ مجازر...، سبق ذكره.

(2) صحيفة أخبار اليوم،سبق ذكره.

(3) المصدر السابق.

(4) أحمد طه؛ موقع...، سبق ذكره.

حكم الاعدام، مثل عصب الأعين، وتحديد مكان القلب بشارة ملونة، وربط المحكوم عليه إلى عمود، وتحديد سلاح واحد يلقم بالذخيرة الحية لا يعرفه حتى فريق تنفيذ الاعدام الذي يكون بقيادة ضابط يحمل مسدساً محشواً للاجهاز على المحكوم عليه، ويكون الاعدام بحضور قاض ورجل دين.. هكذا ينفذ الاعدام حتى عند النازيين والفاشست "![1].

في الطريق إلى (الدروة) إنطلق صوت هاشم يردد نشيد الشيوعيين السودانيين الشهير عن شهيدهم صلاح بشرى:

- "يا شياطين المدافع كيف صرتم محكمة؟!

إستبدوا بحياتى وأقيموا المقصلة..

غير أني لن أساوم لن أقول كلمة "![2]

وأضاف إلى المقطع:

- "جاءكم هاشم.. فأعدوا المقصلة"![3]

وواصل هتافه الداوى بحياة الشعب السوداني وقواه التقدمية وسلطة الجبهة الوطنية الديمقراطية، ما جعل أبدان جلاديه تقشعر، ثم ".. ردد الشهادتين بصوت خافت، وأخرج علبة سجائر أشعل

---

(1) المصدر السابق.

(2) صلاح بشرى عدلان، طالب طب شيوعي درس بمصر، حيث إعتقل ليواجه ببسالة نادرة صنوفاً من التعذيب القاسى بسجن ليمان طره الرهيب، مما أدى لاستشهاده في 1950/1/24. والقصيدة كتبها الشاعر الشيوعي المصرى الراحل كمال عبد الحليم.

(3) أحمد طه؛ موقع... سبق ذكره.

منها سيجارة، وأخذ منها نفساً عميقاً، واستدار نحو الدروة، وما أن أعطاهم ظهره حتى انطلق الرصاص من كل جانب. أولى الزخات هشمت فكه.. وقبل أن يسقط على الأرض كانت آلاف الطلقات قد أصابت جسم الشهيد، واستمر الضرب عليه حتى بعد موته، حتى لم يبق مكان في جسمه لم يطله رصاص الجنود"![1].

ولعل هاشم قد حقق، بمثل ذلك الرحيل الملحمي، أمنية غالية كان قد أسر بها يوماً إلى النميري نفسه عندما زاره بمنزله بعد قرارات 16 نوفمبر التي أقصته مع زميليه بابكر وفاروق عن السلطة.. فقد اقترح عليه النميري يومذاك أن يغادر إلى لندن، "فقال له: لن أغادر حتى أصبح مثل هذا"[2].. وعندما استدار النميري إلى حيث أشار هاشم، شاهد صورة تطل من إطار على حائط الصالون.. ولم تكن سوى صورة الشهيد الأممي أرنستو شي جيفارا، بعينيه المتألقتين ومحياه الصبوح!

●●●

كان القصف ضحى يوم 23 يوليو قد همد نوعاً ما في منطقة القصر الجمهوري بالخرطوم على شاطئ النيل الأزرق، والقيادة العامة على التخوم الشرقية بين المدينة وضاحية برى، وكانت الهواتف تتبادل الأخبار والشائعات عن الانقلاب المضاد الذي عاد النميري وسط ملابساته الغامضة إلى السلطة، عندما انحنى الشفيع يسرح عينيه بحنان في وجه طفله النائم أحمد، ويخاطب

---

(1) الحزب الشيوعي؛ مجازر، سبق ذكره.

(2) جعفر العطا؛ حوار بصحيفة أخبار اليوم..، سبق ذكره.

زوجته المناضلة فاطمة أحمد إبراهيم، عضو لجنة الحزب المركزية ورئيسة الاتحاد النسائى، والتي كانت ما تزال في طور النقاهة بعد عودتها للتو من رحلة استشفاء خارج البلاد، قائلاً:

- "فاطمة.. دا يوم الامتحان العسير، نميري ما حيسيبنا، لكن مهما حصل ما حنفشى أسرار الحزب"!

فعلق شقيقه د. الهادى، الذي كانوا قد انتقلوا من مسكنهم في ضاحية برى مع بداية الأحداث مساء 19 يوليو إلى مسكنه في شارع (1) بمنطقة العمارات بالخرطوم، قائلاً:

- "ولكن ماذا فعلت أنت حتى يستهدفك النميري"؟!

راحت فاطمة تتأمل مغزى كلمات الشفيع، على حين التفت هو إلى شقيقه طالباً منه اصطحاب فاطمة والطفل بعربته إلى منزل أسرة فاطمة بحى العباسية بأمدرمان. وبدا مصراً على قراره. وقبل أن يتحركوا بدأت أجهزة الراديو والتلفزيون تبث قرار النميري بتجريد الشفيع من وسام النيلين الذي كان قد قلده له العام الماضى في إثر نيله وسام لينين في ذكراه المئوية من الحكومة السوفيتية، مما يعنى أنه يتربص به الدوائر ويضمر له الشر!

كان محمد عبد الغفار قد حضر وقتها مسرعاً بعربته لتحريك الشفيع إلى مكان آمن أعده الحزب لاختفائه. لكن الشفيع رفض ذلك قائلاً بهدوء: إذا لم يكن من الاعتقال بد فإنه يفضل أن يتم ذلك من مكتبه بمقر اتحاد العمال، ولذا فسوف يتوجه إلى هناك فوراً! في تلك اللحظات وصل أيضاً المقدم أحمد عبد الله حريكة،

أحد المشاركين في الحركة، وترجل من عربته العسكرية شاهراً مسدسه وقال للشفيع إنه جاء خصيصاً لحمايته، وإنه سوف يطلق النار على أى شخص يقترب منه! على أن الشفيع رفض ذلك أيضاً بقوله للمقدم حريكة:

- "ولماذا تطلق النار على أشخاص من المحتمل أن يكونوا أبرياء"؟!

"ثم أخذ منه المسدس ووجه محمد عبد الغفار بأن يصطحب حريكة بدلاً منه إلى مكان الاختفاء الذي أعد له"![1].

●●●

إستقل الشفيع عربة أجرة وطلب من السائق التوجه به إلى اتحاد العمال. ولكن ما كادت العربة تقطع مسافة قصيرة حتى أوقفت عند واحدة من نقاط التفتيش الكثيرة التي كانت قد زرعت وقتها في كل مكان، حيث ألقى القبض على الشفيع، ونقل على عجل إلى حراسة الشرطة بالقسم الشرقى جوار النادى الأمريكى. وهناك وجد المقدم حريكة الذي تم اعتقاله أيضاً قبل قليل. فجأة، وبينما كانا جالسين على الأرض، دخل، كما العاصفة، على حسين اليمانى، أحد ضباط الصف الذين كانت قد تمت ترقيتهم استثنائياً واتخذهم الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم بطانة له بسلاح المظلات. ودون أى مقدمات وجه اليمانى إلى وجه الشفيع صفعة قوية أسقطت عمامته.. وخرج! إنفعل حريكة وهاج هياجاً شديداً، لولا أن الشفيع أمسك به مهدئاً، وقال له:

---

(1) افادة فاطمة أحمد إبراهيم للكاتب عن طريق الهاتف، لندن 2005م.

- "ما تنزعج، أنحنا زى ده متعودين عليهو، لكين أدينى إسمو".

وأخرج من جيبه مفكرة صغيرة كتب عليها إسم اليمانى قائلاً لحريكة: "لو عشت حآخد حقي، ولو مت فكلم الأخوان"![1].

ويقول د. الهادى أحمد الشيخ إنه استطاع التعرف على ذلك الضابط فيما بعد، فقد "كان قائداً بسلاح المدرعات يسكن حى العرب ويقود حافلة الآن"![2].

ولم يمض وقت طويل قبل أن يتم ترحيل الشفيع إلى معسكر الشجرة، مخفوراً بحراسة مشددة وكلتا يديه مرفوعتان إلى أعلى.

●●●

- "عبد الخالق وين"؟!

قذف الرائد أبو القاسم محمد إبراهيم، وهو في ثلة من بطانته، بالسؤال الهستيرى في وجه الشفيع. وبعد سنوات من ذلك روى د. مصطفي خوجلى لدكتور الهادى أحمد الشيخ تفاصيل تلك الواقعة وكل ما جرى للقائد العمالى التاريخى بمعسكر الشجرة.

رد الشفيع قائلاً بثقة:

- "لا أعرف.. بشرفي لا أعرف"!

فصفعه أبو القاسم حتى طارت عمامته، وانفجر صارخاً في وجهه:

---

(1) فاطمة والهادى: من حوار معهما بجريدة الصحافة، سبق ذكره.

(2) المصدر السابق.

- "إنت عندك شرف"؟!

ثم انهال عليه باللكمات والركلات في كل جزء من جسده، تعاونه في ذلك بطانته التي جر أفرادها الشفيع إلى مكان بعيد، حيث تولوا ضربه ضرباً مبرحاً، مركزين على أجزاء حساسة من جسده، على مرأى من د. مصطفي الذي واصل روايته للهادى قائلاً:

- "للأمانة نميري خرج من إحدى الغرف وتساءل: إيه البيحصل، فقالوا له: ده أبو القاسم بيضرب في الشفيع، فالتفت نحو زين العابدين قائلاً: روح وقف الحكاية دى، وجرى زين العابدين، وبالفعل أوقف عملية الضرب"![1].

تم نقل الشفيع بعد ذلك إلى حجرة بها عدد من المعتقلين كان من بينهم حامد الأنصارى الذي روى للهادى، فيما بعد، أن الشفيع عندما أدخل إليهم كان مضرجاً بالدم، مثخناً بالجراح. ورغم ذلك شرع في تنظيف الغرفة عندما رأى أنها متسخة، قائلاً للمعتقلين "إن بقاءنا فيها قد يطول"! وفي صبيحة الأحد استيقظ، وأخذ حماماً، ولبس جلباباً آخر ما لبث أيضاً أن تلوث بالدم، "وأخبر المعتقلين وهو يجاهد ليحافظ على ابتسامته: عذبوني.. أبو القاسم وجماعته، لكين المعنويات عالية، وأنا ما متوقع شئ غير الاعدام. وقد رد عليه بعض الضباط المعتقلين: طبعاً انتو ما ليكم دخل بكل الموضوع دا وما حتجيكم حاجة، فرد عليهم بقوله: يا أبنائى نحن من سنة 1948م نتوقع الموت في أى

---

(1) سابق.

لحظة، ولو متنا الحياة حتمشى (...) نحن لم نرتكب خيانة ضد الوطن وشعبه، وقفنا مع التقدم ومصالح الناس، واذا رحنا المهم أن يحافظ الناس من بعدنا على التنظيمات الجماهيرية التي اشتركنا في بنائها مع آلاف الناس"[1]. وكان قد أخبر المعتقلين بأن معاوية إبراهيم سورج قد جئ به للمحكمة كشاهد اتهام ضده.

لم تكن فاطمة التي استقرت بمنزل أسرتها بحى العباسية بأمدرمان تعلم شيئاً عن مصير زوجها حتى اللحظة التي حضر فيها إليها شقيقها الشاعر صلاح لينقل إليها متردداً، وبصعوبة، أن أحمد سليمان اتصل هاتفياً قبل قليل من معسكر الشجرة، وقال إن الشفيع يواجه حكماً بالاعدام، مقترحاً أن تحمل فاطمة ابنها أحمد وتحضر لمقابلة النميري كى تسترحمه للابقاء على حياة الشفيع! إنفجرت فاطمة، كما توقع صلاح تماماً، وردت بحزم، وهي لا تدرى أتبكى على الشفيع، في تلك اللحظة، أم على الاهانة التي يريد أحمد سليمان أن يلحقها به وبها وبطفلهما مدى الحياة: "دع أحمد سليمان ينقل للنميري أن الشفيع لم يرتكب جرماً حتى تعدمه.. وأن فاطمة لن تقف أمامك ترجو رحمتك على الشفيع حتى لو قطعته إرباً إرباً أمامها!"[2].

●●●

- "يا الشفيع لسع ما قرينا عليك بيان الحكم"!

---

(1) سابق.

(2) سابق.

وجه حكمدار سجن كوبر حديثه إلى الشفيع حين رآه يتوجه مباشرة، وبمجرد إنزاله من المصفحة العسكرية التي نقلته من معسكر سلاح المدرعات بالشجرة إلى سجن كوبر، ودون حتى أن ينتظر معرفة الحكم الذي صدر ضده، نحو (الميزان) المخصص عادة لوزن المحكومين بالشنق حتى الموت! فرد الشفيع على الحكمدار بأنه متيقن من الاعدام! ثم أضاف قائلاً: هذه أقدارنا، رغم أننا ظللنا طوال حياتنا ننادى بالتطور السلمى، وسلاحنا هو الكلمة والاقناع!

هز ثبات الرجل غير العادى حكمدار السجن، ولكنه أيضاً خفف من حرجه شيئاً، فسأله بصوت متهدج إن كانت لديه وصية، فأجاب قائلاً: قولوا لأخوانى وأخواتى وأهلى، ولكل الزملاء والأصدقاء والمعارف، أن يصفحوا عنى إن كنت أسأت لأحدهم أو أخطأت.. ثم ما لبث هتافه أن تصاعد، وهو يخطو نحو غرفة التنفيذ، بحياة الشعب والوطن والحزب! ".. وهنا قال له عم ميرغنى: يا الشفيع إنت تحدثت في السياسة كتير ،حسع قول حاجة لربك، فرد عليه الشفيع قائلاً: يا عم ميرغنى أنا صليت ركعتين قبل أن أجئ إلى هنا.. بعد ذلك أخذ في ترديد الشهادة ثلاث مرات.. وقال: طيب مع السلامة.. وانتهي كل شئ في يوم السادس والعشرين من يوليو"[1].

●●●

(1) سابق.

بعد ما يربو على ثلاثين سنة من ذلك لم يستشعر العميد معاش عبد الوهاب البكرى الذي كان قد مثل الاتهام في محاكمة الشفيع الصورية، ذرة من حياء وهو يزعم، ضمن حوار صحفي أجرى معه، أن الشفيع أفاد بأنه "هو ومعاوية سورج عارضوا فكرة الانقلاب وعندما حظيت الفكرة بتأييد الجميع انسحب هو ومعاوية من الاجتماع الذي كان قبل أربعة أيام من الانقلاب"![1] أولى الملاحظات التي يمكن أن ترد على هذه الزعم، فضلاً عما فيه من محاولة مفضوحة (للتذاكى) الذي يدعو للسخرية، أنه يفتقر لأبسط مقومات الأمانة والمسئولية الأخلاقية تجاه روح إنسان هو الآن في رحاب ربه! إذ من المعلوم للقاصي والداني أن معاوية إبراهيم سورج كان قد قاد في واقع الأمر، مع أحمد سليمان وآخرين، محاولة انقسامية شهيرة لشق صفوف الحزب في أعقاب انقلاب 25 مايو، مما أدى إلى فصله من قيادته، بل ومن عضويته، قبل زهاء العام من تلك الأحداث، بل واعتقاله ضمن من تم اعتقالهم عصر 19 يوليو! فعن أى معاوية، إذن، يتحدث هذا الجنرال الهمام؟! وأى اجتماع لقيادة الحزب ذلك الذي تبلغ السذاجة بقائد في قامة الشفيع كى يدعى للمحكمة العسكرية أنه انعقد بحضور معاوية قبل أربعة أيام فقط من انقلاب 19 يوليو؟!

ويتكثف هذا التناقض بقول البكرى للمحرر في موقع آخر من الحوار: "والله شوف أقول ليك الصراحة الشفيع دا لو الشاهد بتاعو قال الحقيقة ما كان أعدم"![2] فكأن أحكام الاعدام كانت

---

(1) حوار بجريدة الصحافة، ضمن موقع sudaneseonline.com.

(2) المصدر السابق.

تصدر في ذلك الوقت بمحاكمات تتوخى الحقيقة! على أن ما تهمنا الاشارة إليه هنا هو بلوغ بؤس المنطق مداه بهذه المحاولة الساذجة لتجاوز (حرج السؤال)، فمن شهد ضد الشفيع في تلك المحاكمة كان، في الأصل، هو معاوية إبراهيم سورج نفسه الذي كان يتراكض وقتها من محكمة صورية لأخرى متطوعاً بالشهادة أيضاً ضد عدد من المتهمين الذين هم، في الواقع، خصومه! وهو ما كان يعلمه الشفيع، ويعلمه الاتهام، وما جرى توثيقه أثناء حياة معاوية نفسه، فلا استطاع نفيه، ولا حاول في الأصل!

أما العميد عبدالوهاب البكرى فقد كان عضواً في محكمة هاشم العطا، وممثلاً للاتهام في محاكمتى كل من عبد الخالق والشفيع، وقد سجل إفادته (للتاريخ!) في ختام حواره المشار إليه قائلاً بالحرف: "لست نادماً فقد كنت أؤدى واجبى وأنفذ القانون دون ميل أو هوى"![1].

●●●

التاسعة إلا ربعاً مساء الأحد الخامس والعشرين من يوليو، والمعتقلون نيام، "صلصلت فجأة المفاتيح الضخام في الأقفال الفولاذية، وصرت الأبواب صريراً عالياً، ودخلت مجموعة صغيرة من الجنود مدججة بالرشاشات الخفيفة والأحذية العسكرية الملطخة بالوحل، جاست قليلاً، بين الأجساد المتكدسة، قبل أن يجلجل صوت آمرها ينادى، من فوق كل تلك الزوبعة الخريفية: (جوزيف قرنق)!

---

(1) سابق.

نهض من فرشته الحصيرية البالية التي كان يستلقى عليها بالبنطال والفنلة الداخلية. أحكم تثبيت قطعة القطن التي كان يضعها في أذنه اليمنى، جراء ما كان يعانى من ألم حاد لم يسمح له بعلاجه، ومضى يرتدى قميصه، محاولاً أن يجعله يستقر بصورة أنيقة قدر المستطاع، داخل بنطاله، وأن يسوى ما تجعد منهما ـ القميص والبنطال ـ خلال ثلاثة أيام من اعتقال مفاجئ بدون غيار. إنتبه البعض فسرت في أنحاء العنبر همهمات محتشدة بالأمل المحصور والتشهيات الأسيرة:

ـ "إطلاق سراح بدون شك"!

ـ "أكيد"!

ـ "طيب، وما الذي يمكن أن يأخذوه به وقد عاد من أفريقيا الوسطى قبل أيام"؟!

ـ "يا رجل.. حمداً لله على السلامة"!

هب الراقدون الى جواره يعاونونه. طلب مشطاً. بحثوا عبثاً. ولما لم يكن من الممكن العثور على شئ كهذا في مثل ذلك المكان، اكتفي بأن خلل شعره بأصابع يديه. وما أن فرغ من ذلك حتى وقف متمكثاً لبرهة. ثم أخذ نفساً عميقاً وهو يسرح عينيه الوديعتين في الوجوه التي راح يتعاورها، في تلك اللحظات، مزيج من التفاؤل الرغبى والقلق الكتيم، ثم ما لبث أن مشى بين الجنود بخطوه الواثق، ورزانته المعهودة، صامتاً لا يعلق على الهمهمات المتناثرة من حوله. سوى أنه، وعلى حين كان الباب الضخم يوشك أن يوصد، مرة وللأبد، بينه وبين رفاق العنبر، إلتفت اليهم،

فلمحـوا، للمرة الأخيرة، طيف الابتـسامة الغامـضة على شـفتـيه، وسمـعوا الصـوت الهادئ، المتـيقن، الواضح برغم الرعـد والمطر، يخاطبهم أجمـعهم بانجليزية مبينة، وبنبرة مـحتقنة بأطيب ما في الانسانية من نبل الطوية، وأعمق ما فيها من جرح الخذلان:

- "مع السلامة، ما أظن نتـلاقى تانى، شدوا حيلكم"! Good_ by, we might not meet again, I wish you will hold on_![1]

وفي الواقع، في الوقت الذي كان فيه النمـيري يستكمل عودته إلى السلطة من فـوق الملابسات الغـرائبيـة لدبابات مساء الـثانى والعشـرين من يوليو، كان جـوزيف قرنق المحامى، وعـضو لجنة الحزب المركزية، يعتنى مع زوجته (فطومـة أكول حسن) بإبنتهما الصغيرة طريحة فراش المرض بمستشفي الخرطوم، والتي كان قد منحها بعض الدم من جسده المنهك بفعل الجهود الجبارة التي كان يبذلهـا خلال تلك الفترة كـوزير لشئون الجنوب، والتي كـانت قد أثمرت بيان الـتاسع من يونيو عام 1969م الذي جـرى الاعتراف فيه رسمياً، لأول مرة، بالأسـباب الحقيقية لمشكلة الجنوب، وبحق أهله في الحكم الذاتى الاقليـمى، مما سوف يجـرى تضمين أكـثره بعد وقت قصير في اتفاقية أديس أبابا للسلام عام 1972م.

في تلك الأمسيـة، وفي غرفة طفلته بمستشـفي الخـرطوم، أسر جوزيف لـزوجته، وقـد تأكد من عـودة نميري ونظامـه، بأن ذلك يعني أن النميري لن يتركه حياً، ولكنه لن يهرب بل سيسلم نفسه:

---

(1) كمال الجـزولى؛جنوبيون: (جو.. أى فتى أضاعوا)، مـوقع التحالف الديمقراطى ببريطانيا /d-a.org.uk

"شدى حيلك يافطومة وربى الأولاد تربية كويسة، يافطومة أنا ما حأشرد، زول كبير في القبيلة زيي يافطومة ما بيشرد"!

وبالفعل ما أن وصل منزله بحي الزهور بالخرطوم حتى وجد رتلاً من الجنود بانتظاره. أخذوه مباشرة إلى مباني سلاح المدرعات بمنطقة الشجرة، وأدخلوه على عجل إلى حيث يقبع العقيد أحمد محمد الحسن يصدر (الاحكام!)، وبعد جلسة صورية لم تستغرق سوى دقائق معدودات أعيد الى سجن كوبر الذي كان قد أخذ منه في نفس تلك الليلة، ".. ولكن ليس إلى رفاق العنبر، بل إلى حجرة المشنقة الرطبة، المعتمة، زنخة الرائحة، الواقعة ما بين قسم (المعاملة) وزنازين الشرقيات"![1].

كان حكمدار السجن قد بدا مذهولاً للوهلة الأولى وهو يتسلمه في مكاتب الإدارة ويفض المظروف المقفل، فسأله بتأثر إن كان يعلم بالحكم؟! فأبدى المحامي المرموق دهشته: "حكم؟! دى كانت محكمة"؟! ثم أطرق للحظات كانت كافية لأن يدرك تماماً أن أحكام الجنون التي كانت تصدر تلك الأيام تباعاً قد طالته هو الآخر. فتناول، بنفس الهدوء، قلماً وورقة من على مكتب الحكمدار، الذي ظل صامتاً يتحاشى النظر في عينيه مباشرة، وسطر رسالة لصديقه جيرفس ياك: "ثوان وينتهي الأمر.. تماماً كطائرة تهوى في البحر"![2].

بعد عقود طوال من ذلك أكدت أرملته فطومة حسن، ضمن حوار صحفي أجرى معها، "أن لديها علماً يقينياً بأن سياسياً

---

(1) المصدر السابق.

(2) الحزب الشيوعي؛ مجازر... سبق ذكره.

جنوبياً مرموقاً - لم تسمه - هو الذي حرض النميري على إعدامه "!(1).

●●●

كانت الاجواء الرسمية في دوائر السلطة، آنذاك، قد انشحت تماماً بسعار انفلت من عقاله دفعة واحدة ضد الحزب الشيوعي والقوى الاجتماعية المناصرة له. وكانت الأمور كلها تشى بأن النميري في عجلة من أمره لابادة كل الشيوعيين في البلاد! فتم توجيه الصحافة وأجهزة الاعلام بشن أكبر حملة عداء وتحريض على الشيوعيين، وانطلقت التصريحات والكتابات والفتاوى تتطاير في كل مكان بأن الشيوعيين "كفرة وملحدون ومارقون وضالون.. الخ"، وراح النميري يوحى بأنه يخوض حرباً مقدسةً ضد الشيوعيين الذين يعادون الاسلام! لكنه لم يتسن له أن ينتبه في خضم كراهيته للشيوعيين التي انفلتت من عقالها إلى أنه كان حتى الأمس القريب يجتهد في محاولاته المستميتة لاقناع الحزب الشيوعي بالتحالف معه، وبالعدم استمالة قسم مؤثر فيه للانشقاق عنه والالتحاق بنظامه، مرة بالترغيب ومرات بالترهيب!

□□□

---

(1) ضمن كمال الجزولى؛ جنوبيون... سبق ذكره.

(14)

المحاكمة

□□

صباح السابع والعشرين من يوليـو تقرر أن يسمح للصحفيين الأجانب بحضور المحكمه التي ستنعقد بعد قليل لمحاكمة عبد الخالق. فرغم طابع الجنون الذي طغى على أدائها في تلك الأيام بفعل الهلع الذي أورثتها إياه سلاسة الجرأة التي انتزعت بها السلطة من بين فكيها في وضح النهار، إلا أن السلطة لم تستطع، مع ذلك، أن تتكتم على تلك المحاكمة بالنظر إلى "أهمية شخصية عبد الخالق نفسه وأهمية الحزب الشيوعي السوداني بحسبانه أكبر حزب شيوعى في المنطقة" [1]، خاصة وقد حوصرت بالنقد أصلا من قبل أجهزة الاعلام والرأى العام العالمى جراء إقدامها على (كلفتة) أحكام الإعدام، في تلك الأيام، بصورة وصفت بالهمجيه والرعونه وانتهاك حقوق الانسان، ولذا فقد أرادت الظهور، ولو مرة واحدة، بمظهر من يتوخى الحقيقة ويرعى العداله بصورة متحضرة!

كانت الصالة الرئيسية للفندق الكبير قبالة النيل الأزرق في قلب العاصمة السودانية تحتشد بعدد كبير من أولئك الصحفيين الأجانب الذين كانوا قد حضروا خصيصاً إلى السودان لتغطية

---

(1) إدريس حسن: "شاهدتهم يحاكمون عبد الخالق محجوب"، صحيفة الأيام أول أبريل 1987م.

تلك الأحداث المتسارعة. وعلى حين حرم الصحفيون السودانيون من حضور محاكمة عبد الخالق، كان إدريس حسن هو الصحفي السوداني الوحيد الذي أتيحت له تلك الفرصة! وفي مقاله الشهير الذي نشره بصحيفة (الأيام) بعد ستة عشر عاماً من ذلك، يؤكد إدريس أن الصدفة وحدها هي التي لعبت دوراً في ذلك! فقد كان بالفندق نهار ذلك اليوم في زيارة الصحفي اللبنانى فؤاد مطر حين "بدأت في المكان حركة غير عادية، إذ أخذ رجال الاعلام والصحافة العالمية يحملون معداتهم ويهرولون خارج الفندق ويتجمعون حول عدد من العربات الحكومية، وعندما استفسرت عن حقيقة الأمر قيل لى إنه سمح للصحفيين الأجانب فقط بحضور محاكمة عبد الخالق.. التي أعلن أنها ستكون ميدانية أسوة بالمحاكمات التي تمت من قبل"[1]. وبدافع الحس الصحفي الذي لا يقاوم مهما سبب لصاحبه من متاعب صعد إدريس وسط تلك الأفواج إلى إحدى الحافلات التي أقلتهم إلى معسكر الشجرة، حيث وجد نفسه وجهاً لوجه أمام عبد الخالق بنفس الهيئة التي تم بها اعتقاله، فاضطرب اضطراباً شديداً، ولم يستطع تحيته إلا بإشارة من يده رد عليها عبد الخالق بمثلها. غير أن أحد الضباط سرعان ما قطع ذلك المشهد السريع القاسى حيث اقتاد عبد الخالق واختفي به عن المكان تماماً لمدة تزيد عن الساعة.

أبلغ عبد الخالق بأمر محاكمته، وبأنها ستكون ميدانية، وأن عدداً من الصحفيين الأجانب ووكالات الانباء العالمية قد سمح لهم

(1) المصدر السابق.

بحضورها، فما كان منه إلا أن "رفض.. الدخول لقاعة المحكمة أو الادلاء بكلمة واحدة ما لم يرسلوا رسولاً لمنزله ليحضر له الآتى: صابون حمام، فرشة أسنان، معجون، مكنة حلاقة، كلونيا، ملابس داخلية، قميص وبنطلون، شرابات وحذاء. وعندما تعذر الضابط لضيق الوقت، وأن المحكمة أوشكت أن تبدأ، جلس عبد الخالق على كنبة في أحد ممرات المعسكر وقال للضابط: إذاً احملونى بالقوة لقاعة المحكمة! هل يليق بى وبكم وبالبلد أن أظهر أمام صحفيين أجانب بجلابية نمت بها؟ "[1].

هكذا، وفي حى الشهداء بأم درمان، ترجل ضابط من سيارة شرطة وطرق باب منزل عبد الخالق، وعندما خرجت إليه زوجته نعمات أخبرها بما يطلبه عبد الخالق. أعدت نعمات حقيبة صغيرة حرصت أن تضع فيها بعض الأشياء التي تعلم أن عبد الخالق يحبها، خاصة القميص السمنى وكلونيا (الأولد سبايس). وكانت تلك إشارة من نعمات إليه تطمئنه بأنها موجودة بالمنزل بعد أن كانت قد اعتقلت، وأن الأطفال بخير[2].

●●●

أعدت قاعة المحكمة على عجل في أحد (هناقر) سلاح المدرعات بمعسكر الشجرة بالخرطوم، وكانت تعج بالصحفيين الأجانب ومندوبى وكالات الأنباء العالمية الذين بدأوا في تجهيز معداتهم

---

(1) محمد إبراهيم نقد؛ تعليق على مقال ادريس حسن "شاهدتهم يحاكمون.."، ضمن عبدالله... شهادات وأخبار،الأيام 30 أبريل 1987م، سبق ذكره.

(2) افادة نعمات للكاتب، سبق ذكرها.

وآلات التصوير والتسجيل. وما أن دلف إلى داخل القاعة ومن حوله حراسه، يصحبه العميد محمود عبد الرحمن الفكى (كصديق متهم) حسبما تقضي بذلك القوانين العسكرية، حتى ران صمت مهيب لبرهة، ثم ما لبثت فلاشات الكاميرات أن انطلقت تلتقط له مختلف الصور. وكان صديقه الصحفي الفرنسى أريك رولو، مندوب صحيفة اللوموند الفرنسية، وسفير باريس لدى بيروت في وقت لاحق، قد التقط له خارج القاعة تلك الصورة الشهيرة وهو يخطو بثبات مرفوع الرأس والجبين نحو قاعة (المحكمة)، حيث كان يرتدى بنطالاً غامق اللون، وقميصاً بيجياً منسدلاً خارج البنطال، بكمين طويلين مكفكفي الطرفين، وينتعل حذاءً بنياً لامعاً. كان متوهجاً بالنظافة والأناقة. وبشكل عام كان مظهره ".. قد تغير تماماً عما بدا عليه في المرة الأولى، كان حليق الذقن، بادى الحيوية والاطمئنان، وعلى وجهه لمعة وإشراق "![1].

لم تكن تلك هي المرة الاولى التي يمثل فيها عبد الخالق أمام المحاكم العسكرية، فقد سبق أن واجهها عام 1959م، في فترة الحكم العسكري الأول بقيادة الفريق عبود، تحت طائلة قانون الجمعيات غير المشروعة، أو ما عرف وقتها في الصحافة السودانية باسم (قضية الشيوعية الكبرى) التي فضلت السلطات أن تصرف النظر عنها بعد أن تأكد لها أنها ستنقلب وبالاً عليها، وستشكل في النهاية إدانة كاملة وعلنية أمام كل الشعب ضد حكومة عبود وبطانته[2]. وفي دفاعه الذي كان قد أعده لتلك

---

(1) إدريس حسن، "شاهدتهم.."، سبق ذكره.

(2) الحزب الشيوعي السوداني؛ ثورة شعب، دار الفكر الاشتراكي، الخرطوم 1964م، ص 339.

المحاكمة أوضح عبد الخالق الكيفية التي توصل بها إلى الماركسية اللينينية، نافياً عنها ما يشاع من أنها منافية للتقاليد السودانية. وكان مما جاء في ذلك الدفاع "أن الذين يحاربون الفكر الماركسي، ويبنون بليل جهاز دولة بوليسية، ويتفننون في التشريعات ضد (المبادئ الهدامة) كما يقولون، هم الذين أيضاً يسمحون بأن تجرى تحت أعينهم وسمعهم عمليات هدم تقاليد السودان. فالانحلال الذي طغت موجاته في المدن لا يجد علاجاً بل هو في نطاق القانون، وإحراز كتاب ماركسي مدعاة الى الحجز في السجن التحفظي والتقاط الصور والبصمات، بينما يلاقي من ينشرون المبادئ الخليعة الهدامة يتغنى بها الشباب في الأماكن العامة مثل: (يا أستاذ بالقراز.. وفي الدروس مافيش ممتاز، واللى يجينا نصيبه عكاز، ويا سجسوح جيناك) يلاقى هؤلاء حماية القانون لأنهم ضمن تقاليد السودان! أية سخرية وأي قلب للأوضاع هذا"؟![1].

في المكان المخصص له جلس عبد الخالق بوقار على مقعد خشبي، بعد أن ألقى بالتحية على الحاضرين الذين غصت بهم القاعة وهو يجول بنظراته على المشهد بصورة عامة. كانت أمامه طاولة صغيرة وضع عليها أوراقه وأقلامه وبعض علب السجائر البنسون، وإلى جانبه جلس العميد عبدالرحمن الفكي، بينما انتصب خلفه حراس أشداء من الجنود والضباط المدججين بالسلاح. إعتدل في جلسته والعيون تتابع كل حركاته وسكناته، فعاد، بدوره، يلقى نظرة فاحصة على القاعة، السقف، الجدران،

(1) المصدر السابق.

ويوزع ابتساماته الودودة على وجوه معارفه من الصحفيين الأجانب، وقد نال النصيب الأوفر منها مسيو أريك رولو الذي سأله عبد الخالق مداعباً من على البعد "كيف حال فرنسا"؟! أما عندما سأله مندوب إذاعة البى بى سى بالانجليزية: "هل تتوقع محاكمة عادلة يا سيد محجوب"؟ أجابه عبد الخالق بهدوء: "أشك في ذلك"! وفيما انكب الصحفيون يسجلون عبارته التي التقطتها أجهزة التسجيل أصلاً، إنشغل هو بتنظيم ومراجعة العديد من الأوراق التي سودت بالعديد من الملاحظات التي كان قد أعدها بعناية خلال الساعات الماضية للدفاع عن نفسه[1].

إنقضت بضع دقائق أخرى قبل أن ينطلق صوت أحد الجنود صائحاً: (محكمة)! إنقطعت الهمهمات وسرى صمت مطبق في القاعة حين انفتح الباب ودخلت، في البزات العسكرية المنشاة، هيئة المحكمة برئاسة العميد أحمد محمد الحسن رئيس فرع القضاء العسكري، وقتها، وعضوية كل من المقدم منير حمد والمقدم عبد السلام محمد صالح، تتقدمها هيئة الادعاء المكونة من المقدم عبد الوهاب البكرى والمقدم محمد حسين طاهر. تطلع السكرتير السياسي للحزب الشيوعي في وجوه أعضاء المحكمة الثلاثة على حين كانوا يتخذون مقاعدهم خلف طاولة من الخشب الأبيض، كما تطلع أيضاً في وجوه ممثلى الادعاء، ثم في وجوه العسكريين ذوى الوجوه الصارمة، ثم، وفي تمام الساعة الثانية بعد ظهر يوم الثلاثاء 27 يوليو.. بدأت المحاكمة.

●●●

---

(1)صحيفة اللوموند الفرنسية. يوليو1971م.

- "المتهم عبد الخالق محجوب، هل تعارض في أن أكون رئيساً للمحكمة"؟

- "نعم. لي اعتراض لا يتعلق بشخصك، ولكن هذه محاكمة سياسية. ورئيس المحكمة ذو اتجاه سياسي ينتمي للقوميين العرب. هذا الاتجاه الذي دفع البلاد في طريق شائك ولم يتفهم الأبعاد الوطنية والتقدمية للحزب الشيوعي. ولي اعتراض على العضوين الآخرين اللذين لا أعرفهما، ولكن يستطيع رئيس المحكمة التأثير عليهما. إن اعتراضي لا ينصب على الأشخاص، وإنما يتعلق بطبيعة المحاكمة والأحداث السياسية والصراع الذي وقع بين الاتجاه القومي العربي والاتجاه الشيوعي الديمقراطي، كما أن لي طلباً آخر للمحكمة بتأجيل الجلسة، فإنه لم تتح لي بعد فرصة الاطلاع على أوراق القضية، وحتى أني لم التق بالعميد محمود كصديق في الدفاع إلا قبل دقائق معدودة".

- "أنت تحاكم بمقتضى المادة 69 من قانون العقوبات السوداني بتهمة اثارة الحرب ضد الحكومة السودانية. ليست هناك اتجاهات سياسية في القوات المسلحة، إلا ما أثاره بعض الضباط الشيوعيين".

- "هناك اتجاه قومي عربي وأنت تنتمي إليه".

- "ليست هناك تنظيمات في القوات المسلحة، وإنما هناك ضباط شيوعيون أثاروا الاحداث الاخيرة. وعلي كل ستتداول المحكمة في اعتراض المتهم".

رفعت الجلسة في تمام الساعة 2,10 بعد الظهر، ثم عادت للانعقاد بعد 15 دقيقة ليعلن رئيسها رفض اعتراض المتهم! أما

بخصـــوص طلبه الاطلاع على أوراق القضيــة فقد منحتــه المحكمة مهلة ساعة واحدة للاستعداد!

رفعت الجلسة مرة أخرى، وبعد ساعة بالضبط عادت للانعقاد، حيث أقــسم رئيس المجلس العــسكري الميدانى وأعــضاؤه على أن يسلكوا ســبيل العــدل والحق بمقتــضى قانون الأحكام العــسكرية المعمول به، دون غرض أو ميل أو هوى، وألا يذيعوا الحكم إلا بعد التصديق عليه، وألا يدلوا بأى رأى صادر من أعضاء المجلس ما لم تقض بذلك الواجبات المرعية.

- "عبد الخالق محجوب عثمان.. أنت متهم بالآتى:

1 - مخــالفة المادة/ 3 من الأمــر الجمــهورى الثامن بــالدفاع عن السودان مقروناً بالمادة/ 96 بأن تعــمدت اثارة المعارضة ضد الثورة بقصد الاطاحة بنظام الحكم وإثارة البلبلة والفوضى.

2 - مــخالفــة المادة/ 14 من الأمر الجــمهــورى الرابع بأن نظمت وأدرت منظمة غــير شرعيــة قامت بعرقلة مســيرة ثورة 25 مــايو، وعملــت على تفتــيت الوحــدة الوطنيــة مما يؤدى الى الانقسام وتفتيت وحدة البلاد. وبالاشتراك والتستر على قلب نظام الحكم بالقوة المسلحة بغرض الاستيلاء على الحكم.

3 - مخــالفة المادة/ 96 من قانون الــعقوبات بإثارة الحــرب ضد الحكومة وبــالتآمر مع بعــض الضباط المطروديــن من القوات المسلحــة لقلب نظام الحكم الشرعى مما أدى إلــى انقلاب 19 يوليو ونتج عنه خســائر في الأرواح والأموال. هل أنت مذنب أم غير مذنب في الادعاء الاول"؟

ـ "غير مذنب".

ـ "وهل أنت مذنب أم غير مذنب في الادعاء الثانى"؟

ـ "غير مذنب".

ـ "وهل أنت مذنب أم غير مذنب في الادعاء الثالث"؟

ـ "غير مذنب".

ـ "الادعاء يتفضل".

نهض المقدم عبدالوهاب البكرى وألقى خطبته:

ـ "سيدى رئيس المجلس العسكري، السادة الأعضاء.. يقف أمامكم متهم وجد كل الفرص والامكانيات ليخون وطناً أعطاه أكثر مما أعطى لأبنائه، ولكنه لم يعمل لصالحه. متهم ظل حجر عثرة في سبيل التقدم الوطنى، إستغل ما استثمره فيه الوطن من عرق البسطاء لتعويق مسيرة هؤلاء البسطاء. خيل له أنه عظيم متميز على أبناء وطنه، يسير الوطن كما يراه.. إنه تابع مقاد، متأثر لا مؤثر، يريد أن يبيع عرق السنين للتبعية، يحكم عليهم بالتبعية لمن يتبع، مستغلاً طيبتهم، يسعى لمصلحة فئة ضالة كفرت بالله وبالقطر السوداني.. تآمر حتى جاء 19 يوليو، فقبتلوا الأبرياء، قتلوا أشرف الرجال، وهذا يظهر لمحكمتكم الموقرة ما أراده هؤلاء الأشرار، لولا رحمة الله وشجاعة الرجال المؤمنين التي أنقذت البلاد. فجاء الحق ممثلاً في هزيمة من يعملون ضد مصلحة الوطن.. وهيئة الاتهام لديها من البينات المستمدة من آراء المتهم نفسه وأقوال الشهود ما يثبت التهمة"(1).

---

(1) ادريس حسن، شاهدتهم،سبق ذكره.

نودى على شاهد الاتهام الأول.. حامد الانصارى!

نعم حامد الانصارى، أخلص أصدقاء عبد الخالق، وزوج المناضلة سعاد إبراهيم احمد عضو اللجنة المركزية للحزب! فلقد ".. توهم الادعاء أن حامد في ذلك الظرف من الممكن أن يتحول إلى شاهد ملك لكى يستطيع أن ينجو بنفسه عندما يشهد ضد عبد الخالق.. علماً بأنه سبق وأن قدم لمحكمة عسكرية ميدانية قبل أيام معدودات وحكمت عليه بعشرين سنة سجناً! عندما دخل حامد الانصارى بدت علامات الدهشة على وجه عبد الخالق، إلا أنه، وبعد سؤال الادعاء لحامد عن علاقته بالمتهم ورده على السؤال بأنه الصديق الأول له في السودان بدت على عبدالخالق علامات الرضا والارتياح فاشعل.. سيجارة"![1].

وبدأ الادعاء في استجواب (شاهده!):

- "منذ متى تعرف المتهم"؟
- "منذ عام 1964م".
- "كم مرة قابلته بعد 7/19"؟
- "مرة واحدة في منزلى".
- "هل تعرف السبب"؟
- "للسلام علينا".
- "ذكرت أنك الصديق الأول له"؟
- "أعتقد".

---

(1) افادة سعاد للكاتب، سبق ذكره

- "هل له صلة قرابة بزوجتك"؟

- "لا".

- "هل تربطهما صداقة شخصية"؟

- "يربطهما الفكر الماركسى".

- "هل زوجتك من التنظيم في القمة"؟

- "في القمة.. يقال إنها عضو في اللجنة المركزية".

- "بحكم معايشتك لزوجتك في المنزل.. هل تباشر أى عمل حزبى داخل بيتك"؟

- "أبداً".

- "هل يحدث أن يتواجد في بيتك أكثر من واحد من الشيوعيين في نفس الوقت"؟

- "يحدث".

- "كم مرة اجتمع عدد غير عادى في بيتك.. أكثر من 3 أو حتى 4"؟

- "لم يحدث أكثر من 3 أو 4".

- "هل تعقد اجتماعات في بيتك دون علمك"؟

- "إذا كان دون علمى فكيف أعرف"؟

- "هل أنت على علم بكل الاجتماعات التي تعقد بمنزلك"؟

- "ليس لى علم بأى اجتماعات عقدت".

- "قلت إن عبد الخالق قابلك مرة واحدة في منزلك للسلام عليك بعد 19 يوليو، ماذا دار بينكما"؟

ـ "كنت في المنزل، نزلت ووجدته في الصالة، سلمت عليه، عرضت عليه الفطور، قال إنه مستعجل".

ـ "هل أنت على علم بكل ما يدور في منزلك"؟

(رئيس المحكمة يعترض على السؤال)

ـ "هل هناك وحدة فكرية بينك وبين زوجتك، هل أنت شيوعى"؟

ـ "أبداً".

ـ "متى علمت بحركة 19 يوليو"؟

ـ "من الراديو".

ـ "هل تناقشت مع زوجتك عن تحليلاتها للوضع بعد 19 يوليو"؟

ـ "لم يحدث".

ـ "ما هو مصدر دخلك الحالى"؟

ـ "250 جنيهاً شهرياً من الشركة بتاعتى المصادرة".

ـ "ما هو سبب المصادرة"؟

ـ لا أعرف السبب حتى الآن، إلا أننى سمعت أنى متهم بمساعدة الحزب الشيوعي بالأموال".

ـ "قلت إنك على علم بكل ما يدور في منزلك، فكيف تفسر أشياء خطيرة تحدث ولا تقول عنها" ؟

ـ "على ما أعلم لا يحدث شئ خارق للعادة، إذا كان يحدث شئ خبرنى به".

- "جاء في أقوال أحد الشهود أن اجتماعاً تم يوم الخميس بحضور زوجتك وفي منزلك وحضره المتهم واتخذت فيه قرارات".

- "لا أحضر هذه الاجتماعات ولست على علم بها".

هنا خاطب ممثل الادعاء رئيس المحكمة طالباً اعتبار الشاهد (شاهداً عدائياً) - وهو الشاهد الذي يستجلبه الطرف لصالحه فيتعمد الشهادة ضده فيستأذن الطرف المحكمة في مهاجمة صدقيته - وبرر الادعاء ذلك بأن من الواضح من اجابات هذا الشاهد أنه (ممتنع) أو (متحفظ)! فتدخل عبد الخالق طالباً أن يسمح له بمناقشة الشاهد، فرد رئيس المحكمة على طلب عبد الخالق بإرجائه إلى وقت لاحق، وعلى طلب الادعاء بالموافقة على معاملة الشاهد (كشاهد عدائى)، ومن ثم سمحت للمقدم البكرى بمواصلة استجوابه على هذا الأساس:

- "هل يلجأ إليك أفراد من الحزب، بصفتهم الشخصية أو باسم التنظيم، طالبين معونات مالية أو التبرع لمطبوعات"؟

- "كتنظيم لا، ولكن يحدث أن يستدين البعض مبالغ مالية كأصدقاء".

- "من هو آخر واحد استدان منك، وكم كان المبلغ"؟

- "الشفيع أحمد الشيخ، وكان المبلغ 75 أو 90 جنيهاً.. لا أذكر"..

- "بالتفتيش في منزلك وجدت مستندات تتعلق باحداث 19 يوليو، وقد ذكرت أنك تعرف ما في منزلك.. وضح أسباب وجودها"؟

ـ "عندما جرى التفتيش أنا لم أكن موجوداً في البيت، لا أنا ولا زوجتى، ولذلك أنا ما متأكد من أن المستندات وجدت في بيتى كما تقول".

هنا عرض الادعاء على المحكمة المستندات المدعى بالعثور عليها في بيت الشاهد، وهي خطاب من عبد الخالق إلى سعاد زوجة الشاهد، وورقة عليها ترشيحات الحكومة، فعرضها رئيس المحكمة، بدوره، على الشاهد الذي نفي علمه بها، ومن ثم عرضها الرئيس على عبد الخالق فدار بينهما سجال ساخن:

ـ "كانت هذه الورقة في جيبى وتركتها مع علبة السجائر في منزل الشاهد، وهذه ليست ترشيحات وإنما مشاورات واقتراحات بعد نجاح 19 يوليو".

ـ "منذ متى كنت تعرف بحركة 19 يوليو"؟

ـ "كنت أعلم أن هناك ضجراً.."

ـ "تكلم في الموضوع"!

ـ "كنت أعلم أن هناك ضجراً في البلاد.."

ـ "تكلم في الموضوع"!

ـ "كنت أعلم أن هناك ضجراً وقلقاً في البلاد وفي القوات المسلحة، ولكن لم أكن أعرف متى يعبر هذا الضجر عن نفسه بحركة. لم أكن أعلم بالتوقيت والمكان والأشخاص، ولم تكن اللجنة المركزية للحزب تعلم شيئاً عن الانقلاب، ولكننا اجتمعنا بعد الاعلان عنه في الراديو وساندناه".

ـ "ذكرت في أقوالك أنك قمت بتدوين البيان قبل الانقلاب".

ـ "غير صحيح"!

هنا سأل رئيس المحكمة الادعاء: "ألم يذكر المتهم في أقواله أنه كان يعلم بالانقلاب وقام بتدبيره"؟ فرد الادعاء بالايجاب! فطلب منه الرئيس أن يواصل استجواب حامد الانصارى، فسأله الادعاء:

ـ "المستند رقم (5) به ترشيح لعقيلتك كعضو في الوزارة"؟

ـ "لا علم لى".

هنا عاد رئيس المحكمة للتدخل بسؤال عبد الخالق:

ـ "لماذا يقوم الحزب بترشيح الوزراء"؟

ـ "في كل تغيير وطنى يُطلب من القوى الوطنية دعمه، حدث هذا في 25 مايو، بل ونوقش قبل شهر من 25 مايو في أشياء كثيرة. ونوقش أيضا بعد 25 مايو".

ـ "كل الترشيحات شيوعيون"!

ـ "الأسماء المكتوبة في هذه الورقة ليست كلها شيوعيين، فالوضع لا يحتمل كل هذا العدد، بل يتطلب وجود كل العناصر الوطنية والتقدمية. ومن بين الأسماء المقترحة أسماء وزراء حاليين".

ثم عاد الادعاء لمواصلة استجواب الشاهد حامد الانصارى:

ـ "هل كنت تعلم بتحركات زوجتك في ليلة 18، 19 يوليو"؟

ـ "يوم 18 يوليو كانت معتقلة في البيت، محددة الاقامة".

ـ "هل تطلعك زوجتك على نضالها في الحزب"؟

- "لا".

- "هل توافقنى أن الأسرة نوع من التنظيم"؟

- "نعم".

- "بماذا تفسر عدم اطلاع زوجتك لك عن نشاطها في الحزب"؟

- "هذا تنظيم لست فيه وليس لى الحق في الاطلاع على أسراره ولا أسألها عنه".

- "هذا الموقف فيه عدم منح الثقة للزوج، نوع من عدم الولاء للتنظيم الأسرى"![1].

أتيحت فرصة الحديث، بعد ذلك، لعبد الخالق. ويروى إدريس حسن في مقاله المذكور قائلاً: ".. كان منظره مهيباً، أشبه بفرسان الأساطير القديمة. بدأ حديثه وصوته هادئ صاف، فنفي التهمة الأولى المتعلقة بشن الحرب على الحكومة، وقال إنه لا يملك أدوات تلك الحرب، لا هو ولا التنظيم الذي يتولى قيادته. وسرد.. حديثاً طويلاً عن طبيعة الفكر الماركسى قاطعه خلاله رئيس المحكمة أكثر من مرة بلهجة مصرية صارمة بقوله (هذا الكلام لا يفيدك)! ثم تطرق عبد الخالق للاتهام الذي يليه وهو إحداث تمرد في القوات المسلحة، قال.. إن حزبه ضد الانقلابات العسكرية، وإن موقف الفكر الماركسى من هذا واضح، وسبيله للتغيير هو الثورة الشعبية، وقال إنه وحزبه كانوا ضد انقلاب 25 مايو قبل حدوثه،

---

(1) ادريس حسن؛ شاهدتهم..، سبق ذكره.

وإنهم تعاملوا معه بعد ذلك كـأمر واقع مع تبنى أغلب شعاراتهم. وعن عدم مـشروعية الحـزب الشيوعي قال إن مـايو عندما تولت السلطة حظرت جمـيع الأحزاب ما عدا الحزب الشـيوعي. بل على العكس أنهـا طلبت التعـاون معـه واختارت عـدداً من الوزراء في حكومتها بصفتهم الحزبية. وقـال إن مايو كانت في بدايتها تعتمد على (مانفستو).. الحزب الشـيوعي. وقال إنه عندما حدث الخلاف على بعض المسـائل الجوهرية بين مايو والحـزب الشيـوعي كانت هناك لقاءات وحوارات بين ممثلى الطرفين إشتـرك فيها من جانب الحزب الشيوعي الشهيد الشفيع احمد الشيخ ومحمد إبراهيم نقد، ومن جانب مايو الرائدان أبو القاسم محمد إبراهيم ومامون عوض ابو زيد عضـوا مجلس الثورة. وقـال إن السيـد بابكر عوض الله نائب رئيس مجلس الثورة يحضر بعض هذه الاجتماعات. وأضـاف متسـائلاً كيف يمكن أن يكون الحزب الشيـوعي محظوراً والسلطة في أعلى مستوياتها تتصل به. وطلب شهادة أعضـاء مجلس الثورة الذين ذكر أسماءهم، لكن رئيس المحكمة رفض طلبـه. وفيما يتعلق بمقتل الضباط والجنود في بيت الضيـافة قال.. لا دخل لنا فيه و.. كل ما في الأمر أنها تهمة يريدون إلصاقها بنا للقضاء علينا. وقال إن كل مـا يعلمه عن انقـلاب 19 يوليـو أن (هاشم العطا اتصل به وأخطره باحتـمالات حدوثه)، وأن الـشفيع أحـمد الشيخ كـان قد أخبره بعد هروبه من معتقله أن بعض الاخوان نقلوا للشفيع بأنهم يدبرون لإحـداث انقـلاب. وقـال إنه لم يـعلم من هـم أولئك العسكريون، ولا متى سـيتم الانقلاب، بل انه لم يعر الأمـر برمته اهتماماً لأن الجو كان مشحوناً بالشائعات والتوتر ولأن نظام مايو

كان قد دخل في خصومات كثيرة مع قوى سياسية متعددة. وقال إنه لم يعلم بالانقلاب إلا بعد حدوثه، وإنهم تعاملوا معه بعد ذلك لكى يجنبوا البلاد المشاكل، (وإن اللجنة المركزية لم تكن تعلم شيئاً عن الانقلاب، ولكننا اجتمعنا بعد الاعلان عنه في الراديو وساندناه). ونفي أن يكون للحزب الشيوعي كادر عسكرى داخل القوات المسلحة. وقال إن هاشم العطا وبابكر النور أعضاء في الحزب الشيوعي ولكن فاروق حمد الله لم يكن عضواً في الحزب الشيوعي بل متعاطفاً معه".

عند هذا الحد بدأ رئيس المحكمة في توجيه الأسئلة لعبد الخالق:

- "يا عبد الخالق إنت إذا ما دبرت الانقلاب كيف هربت من المعتقل بهذه الكيفية وبمثل هذا التوقيت المطابق تماماً لتوقيت الانقلاب؟! الذي يستطيع الهروب بتلك الطريقة من معتقل داخل القوات المسلحة يستطيع أن ينظم انقلاباً"!

- "لقد خشيت على حياتي من الموت لأنه وأثناء وجودى في المعتقل سمعت معلومات منها أنهم يدبرون لاغتيالى بعد إذاعة نبأ عن هروبى من المعتقل".

- "فسر لنا يا عبد الخالق لماذا تم الانقلاب بعد هروبك مباشرة؟ أليس الذين دبروا هروبك من المعتقل هم أنفسهم الذين قاموا بالانقلاب"؟

- "كما ذكرت ليس للحزب الشيوعي أى كوادر داخل الجيش، وإن الأمر كله لا يعدو أن يكون صدفة، خاصة وأن أى شئ كان متوقع الحدوث".

- "فيم اختلفتم مع الثورة"؟

- "حول السياسات التي كانت تمارسها".

- "مثلاً"!

- "ضربة الجزيرة أبا والقرارات الاقتصادية الخاصة بالمصادرة والتأميم".

- "أليس موضوع سيطرة الدولة على وسائل الانتاج وقيام مجتمع اشتراكى من الشعارات التي ينادى بها حزبكم وتدعو لها النظرية الماركسية؟ ولا لازم تنفذوها إنتو بس"؟

- "نعم إننا ندعو لتحقيق تلك الشعارات، ولكن ليس بالكيفية التي تمت بها.. والتي تجاهلت كافة ظروف البلاد. بل ان القرارات نفسها جاءت مرتجلة وغير مدروسة وسابقة لأوانها. إننا كنا قد أوضحنا موقفنا في سلسلة من المقالات في جريدة أخبار الاسبوع".

ويسترسل الصحفي إدريس حسن في روايته قائلاً: ".. ثم أخذ عبد الخالق يستفيض في الحديث موضحاً أخطاء قرارات التأميم وما صاحب تنفيذها من أقاويل وإشاعات حول الفساد الذي حدث في بعض المؤسسات. وقاطعه رئيس المحكمة قائلاً بلهجته المصرية الصارمة (خلص.. خلص)! وللحق فقد كانت هذه هي المرة الوحيدة التي رأيت فيها عبد الخالق محجوب متأثراً عندما قال لرئيس المحكمة: "أرجو يا سيادة الرئيس أن توسع صدرك قليلاً لأن المسألة بالنسبة لى بضع ساعات فقط"[1].

---

(1) المصدر السابق

ويشير إدريس إلى أن الدهشة علت وجوه الحاضرين عند سماعهم لكلمات عبد الخالق "التي كانت إشارة واضحة إلى أنه كان يعلم سلفاً بأنهم قد قرروا إعدامه! لقد كان الأمر أكبر من الدهشة وأعمق من الخوف! لقد كانت لحظة صراع رهيبة بين شخصين: أحدهم يريد أن يضيف لعمره حتى ولو بضع دقائق معدودة لعل معجزة قد تحدث، والآخر يريد أن يخلص نفسه بسرعة من مهمة ثقيلة حتى ولو كانت حياة إنسان"![1] كما يلاحظ إدريس أن رئيس المحكمة قد تجاهل الحديث عن (ضربة الجزيرة أبا) على الرغم من أن عبد الخالق كان قد ذكرها ضمن أسباب الخلاف مع مايو!

ويمضي إدريس قائلاً إن "رئيس المحكمة قد سأل عبد الخالق فجأةً:

- "هل لدى حزبكم أسلحة"؟

وجاءت إجابة عبد الخالق مفاجأة للمحكمة والحضور:

- "نعم.. وقد أرسلها لنا الرئيس جمال عبدالناصر عام 1965م عندما تعرض الحزب لهجمة شرسة مَن جانب القوى الرجعية أدت لطرد نوابه من الجمعية التأسيسية بسبب ما سمى بندوة معهد المعلمين العالى"![2]..

عند ذاك أعلن رئيس المحكمة رفع الجلسة لبعض الوقت، وكانت قد استغرقت أكثر من أربع ساعات!

●●●

---

(1) سابق.

(2) سابق.

"بعد خروج هيئة المحكمة من القاعة مباشرة طلب عبد الخالق محجوب التحدث مع الصحفي الفرنسى أريك رولو المندوب الخاص في الشرق الأوسط لدى صحيفة اللوموند الفرنسية. وبالفعل حياه أريك، وشد على يديه بحرارة، فاستدار عبد الخالق نحو كاميرات الصحافة العالمية التي راحت تلتقط له مختلف الصور، بينما تدافع بقية الصحفيين نحوه يمطرونه بمختلف أسئلتهم المتلاحقة:

- "كيف تمت معاملتك"؟

سأل أحد الصحفيين، وما أن بدأ عبد الخالق في الاجابة حتى انهالت عليه أسئلة بقية الصحفيين.. في هذه اللحظات تدخل أحد حراس عبد الخالق، وكان برتبة ملازم أول، وهو يخبط على الطاولة بعنف قائلا لعبد الخالق: أنت ممنوع من الاجابة على الأسئلة، بينما واصل معظم الصحفيين طرح أسئلتهم المتلاحقة.. فهددهم الضابط صائحاً: هل تسمعوننى أو سأضطر الى طردكم جميعا للخارج.. أتودون ذلك؟! ثم أمسك بيد عبد الخالق وقاده مبتعداً، بينما تبعته ثلة مكونة من خمس جنود مظليين وهي توجه فوهات بنادقها الاوتوماتيكية نحو ظهر عبد الخالق!

بعد لحظات تم اخطار الصحفيين والمراسلين بأنه قد تقرر أن تكون جلسات المحكمة سرية إلا أن ما سيتم التوصل له سيعلن عنه لاحقاً"[1].

●●●

---

(1) جيس لويس: "الحكم بالاعدام على قائد شيوعى بواسطة محكمة عسكرية"، صحيفة الواشنطون بوست - خدمات الواشنطون بوست الأجنبية، 28 يوليو 1971م.

وحول لجوء المحكمة إلى عقد جلساتها سراً يعلل عبد الله على إبراهيم هذا الاجراء قائلاً: "لجأت المحكمة إلى هذا الدس لأنها أخفقت في جعل المواطن الشهم المرحوم حامد الأنصاري يشهد بالزور، في ظل قبة الارهاب المنصوب في أيام ذلك السودان في يوليو 1971م، ضد المرحوم عبد الخالق والحزب الشيوعي. وحين الحق أبلج والباطل لجلج توارت المحكمة من ضوء النهار وكاميرات الصحفيين إلى عتمة الليل.. كالخفافيش"![1].

وحول الجلسة السرية نفسها التي أعلن للصحفيين بأنها قد تقررت، ينفي العميد معاش منير حمد العضو الثاني في المحكمة عقد أية جلسة أخرى من الأصل، مبرراً ذلك بأن "الحكم عليه كان معداً سلفاً!"، الأمر الذي يؤكد ما أورده إدريس حسن في مقاله المذكور من أن الجلسة السرية كانت مجرد "إعادة استجواب من المحكمة لعبد الخالق.. ومناقشة أقواله"[2].

وفيما بعد أعلن رئيس المحكمة، بالفعل، نهاية المحاكمة، قائلاً إن المحكمة سترفع قرارها إلى القائد العام الذي كان مرابطاً هناك بصورة دائمة، متخذاً من مكتب قائد سلاح المدرعات العميد أحمد عبد الحليم مقراً له.

وفي نهاية مقاله يعلق إدريس حسن إجمالاً بأن المحاكمة كانت أشبه بالمسرحية الدرامية التي تنهمر فيها الدموع! وعلق على موقف عبد الخالق كإنسان بأنه "كان شجاعاً بكل ما تحمل الكلمة

---

(1) د. عبد الله علي إبراهيم: مخطوطة بخط اليد حول عبد الخالق محجوب. بدون تاريخ.

(2) إدريس حسن: "شاهدتهم... سبق ذكره.

من معانى، وثابتاً كل الثبات. كان يتحدث في أحرج الأوقات وكأنه يتحدث في ندوة سياسية، بالرغم من أنه كان يعلم مصيره سلفاً! لا ريب أن عبد الخالق كان أكثر ثباتاً من الذين حاكموه، فقد لاحظت.. القلق والاضطراب يتملكان رئيس المحكمة وأعضائها! بل ان بعضهم كان ينظر الى ساعة يده بين الفينة والفينة وكأنه يتأهب لموعد أهم"![1].

●●●

حكمت المحكمة العسكرية الميدانية على عبد الخالق.. بالاعدام شنقاً حتى الموت. لكن، وبعد مضى أكثر من ثلاثين سنة، إعترف العميد معاش منير حمد، العضو الثانى في هيئة المحكمة، للكاتب بأن الحكم كان "معداً سلفاً، وأن عبد الخالق كان قد واجه ظرفاً يتعلق بمصير حياته قبل اجراءات محاكمته، وأن جعفر النميري ودوائر أخرى هم من اتخذوا ذلك القرار"![2] وفي إجابته على سؤال الكاتب عن السبب في عدم اعتراضه، كعضو ثان بهيئة المحكمة، على القرار، برر العميد منير ذلك بأنه "حاول.. إلا أن

(1) المصدر السابق.

(2) إفادة منير حمد،سبق ذكرها. وتجدر الاشارة الى أن العميد منير حمد ظل متحفظاً على بعض أسئلة الكاتب، ولم يكن متعاوناً بالقدر الكافي، ورفض تسجيل افاداته بصوته على شريط كاسيت، وأشار إلى أن ذاكرته لم تعد تستحضر كل التفاصيل نسبة لطول الزمن.لكنه أكد عكوفه (حالياً) على كتابة (مذكراته) التي قال إنه "سيضع فيها النقاط على الحروف حسماً لما ظل متداولاً بين الناس حول تلك المحاكمة ودوره فيها!"، ولم يشأ الكاتب مضايقته أكثر من ذلك!

قوانـين المحاكم العـسكرية تمنع أعضـائها الأقل رتبـة من الادلاء بوجهة نظرهم الـقانونية مباشـرة، وتلزمهم بتسجـيل ذلك كتابة، وقد فعل"![1] وقال العميد منير إنه كـان صديقاً لعبد الخالق، وإن رجل الاعمـال " محمد نـور السيد من أبناء منطقـتى في الخرطوم بحرى، وهو الذي عرفنى بعـبد الخالق"[2]، علماً بأن عـبد الخالق أشار في اعتـراضه على رئيس الهيـئة وأعضائها إلى "الـعضوين الآخرين اللذين لا أعـرفهمـا ولكن رئيس المحكمة يستطيع التـأثير عليهما"! وذكر الـعميد معاش منير حمد أنه فـعل (المستحيل!) من أجل إنقـاذ حيـاة الرجل حيث أوعـز لعـبد الخـالق بأن يطعن في عضويتـه بهيئة المحكمة باعـتباره سكرتيراً لمجلس قـيادة الثورة! وقال إنه تعـرض، هو نفسه، للمـلاحقة فـيما بعـد من قبل سلطة مايو، وأنه أحيل إلى المعاش دون أن تصرف له مسـتحقات ما بعد الخدمة! وأكـد أن الرائد مامون عوض أبو زيد هو الوحـيد من بين أعضاء مجلس الثـورة الذي كان معترضاً على إعـدام عبد الخالق. وأشار إلى أن عـبد الخالق كان قـد أودعه وصايا لأسـرته و.. قد "سلمت تلك الوصايا لعلى أحد اشقاء عبد الخالق"[3]، لكن نعمات مالك أرملة عبد الخالق نفت للـكاتب هذه المعلومة بشدة، مؤكدة أن "على كان معتـقلاً في تلك الفترة، وفيما بعد أصـبح مريضاً. وقد التقـيت بالعـميد منـير حمـد بعد الانتـفاضـة بسنوات وأبديت له

---

(1) المصدر السابق.

(2) سابق.

(3) سابق.

اســتيـائى من تصــرفه غـيـر اللائق في الامـتناع عن أن ينقل لى وصـايا زوجى التي أودعها له، وهي الوصـايـا التي علمت فيما بعد أنها كانت تتعلق من جهة بتـربية الأطفال، ومن الجهة الأخرى بأن العربة الفولكس التي كان يستعملهـا مملوكة للحزب فيجب إعادتها له! "[1].

□□□

(1) افادة نعمات للكاتب، سبق ذكره.

(15)

الأفـــول!

□□

كان الظلام مـا يزال يرخى سدوله عـندما توقفت، فـي حوالى الواحدة من صبـاح الأربعاء 28 يوليو، مصـفحة من نوع ال (بى كى) روسية الصنع أمـام البوابة الرئيسية لسجن كـوبر العمومى العتيق بالخرطوم بحرى. كان الرذاذ ما يزال يرش المكان، والسماء ملبدة بغـيوم خريف ذلك العام، والبـرق يلمع في سماء العـاصمة التي أودع سكانهـا هموم تلك الأيام إلى نوم عـميق. لم يكن ثـمة شئ يسمع وسط ذلك السكون المطبق غير أصوات الصراصير هنا وهناك، ونباح الكلاب يأتى من قـشلاق عساكر السـجون المجاور، ونقيق الضـفادع من البرك التي خلفـتها أمطار الليلة الماضـية، مع دمدمـة الرعود بين الفـينة والأخرى تهـز السكون وتهتك وحـشة المكان.

صرصرت المزاليج الضخام للبوابة الخـارجية للسجن بصوتها الكئيب وهي تفتح لتدلف المصفـحة على مهل رهيب! وما أن أخرج منها عبد الخالق حـتى اقتيد بواسطة ثلة من جنود سلاح المظلات إلى مكتب مأمور السجن عثمان عوض الله. فض المأمور المظروف الذي سلم له، وتلى على سكـرتير الحـزب الشيـوعي الحكم الذي سينفذ فوراً. ثم سأله إن كان يطلب شيـئاً معيناً! خلع عبد الخالق دبلة الزواج الفضية من إصبعه ووضعها بهدوء على طاولة المأمور

راجياً تسليمها لزوجته. غير أن تلك الدبلة صودرت فيما بعد بواسطة جهاز الأمن، حسب شهادة إدارة السجن، ولم تصل، إلا بعد زهاء الثلاثين عاماً من ذلك، إلى أرملة عبد الخالق التي أصبحت تضعها على الدوام، منذ تسلمتها، في إصبع يدها اليسرى![1] وضع الرجل أيضا على طاولة المأمور ما تبقى من علبة سجائره البنسون وولاعته، كما خلع ساعة يده من معصمه وأهداها لجندي السجون الذي كان يقف خلفه. ثم كان آخر طلباته، بعد الفراغ من اجراءات (الميزان) التي لا بد منها (لسلامة) التنفيذ، ألا تعصب عيناه في اللحظة الأخيرة!

●●●

تقع المشنقة في الجزء الشمالي الشرقي من زنازين (الشرقيات)، والجزء الجنوبي الشرقي من قسم (المعاملة)، وعلى الجانب الغربي من السور الشرقي للسجن. عشرون خطوة، ثلاثون، أربعون، ودلف عبد الخالق ومن حوله فريق التنفيذ إلى الزقاق الطويل الممتد بمحاذاة الجانب الشرقي للزنازين، المفضي في نهايته إلى (مجمع الموت) المكون من غرفة الشنق نفسها، بالاضافة إلى زنزانة الانتظار والمغسلة!

فجأة، وفي تلك اللحظات العصيبة القصيرة، بدأت ذاكرته تعمل بأقصى ما تملك من طاقة وسرعة! ولدهشته كانت الصور، هذه المرة، أكثر وضوحاً ونصاعة مما كانت عليه في ذلك المكتب المترب المهجور خلال الفترة التي أعقبت نقله إلى معسكر الشجرة وسبقت

---

(1) المصدر السابق.

محاكمته، بل أوضح وأنصع مما كانت عليه في أى وقت مضى من حياته كلهـا التي ابتدأت يوم 23 سبتمـبر عام 1927م، ثم ها هي توشك على الانتهاء في أية ثانية! كل تلك الحـياة العامرة بالملاحم والتواريخ والوجـوه والصور والمواقف والاحـداث، حلوها ومرها، تبدت له، في تلك اللحظات القصار كمـا لو كانت شريطاً سينمائياً مـضُغـوطاً بمونتـاج غيـر مرتب لا تزيـد مدته عن بضع دقـائق! ورويداً.. رويداً بدأ يحـس بدبيب شئ مـا ينبـجس في الدواخل، يتـخلل الضـلوع، يسـرى بين الحنايا، يملأ القـلب حـتى يفـيض، ويصعد حـثيثاً إلى اللهاة والحنجرة! شئ مـا.. شئ ما.. مزيج من الوجوه والأحداث والصور. الصاغ عبـد الخالق حسن الذي سماه والده تيـمناً به، مأمـور أمدرمـان المصرى في عـشرينات القـرن الماضى، والوطنى الغـيـور الذي قـدح بموته الشـرارة الأولى في ثورة 1924م، حاج الشيخ عمـر دفع الله.. الهتاف الأول في وجه الصلف: "يسقط الاستعمـار"! وجوه ووجوه ووجوه، وشئ ما.. شئ ما يدب حـثيثاً إلى الحنجـرة! الحلقات الماركسـية الأولى في عاصـمة الأربعينات.. "كيف أصـبحت ماركسـياً"؟! نيل اب روف على مشـارف الدميـرة. دعاش الخـريف المخلوط بروائح الطحلب والسمك النافق. مـقابر أحمد شـرفي الغارقة في الظلمة الـدامسة. زخات الرصاص تمزق السكون الزئبقى الكئيب، والأضواء الخافتة المتفـرقة تتراءى شـاحبة من على البـعد على مشـارف أم درمان. وجـوه ووجـوه ووجـوه، وشئ ما.. شـئ ما يـدب حثـيـثـاً إلى الحنجرة! نعمـات والطفلين وأحمد مالك. الوالـد والوالدة والأشقاء عثمان وعلى ومحمد.. "ترى ماذا حل بمحمد وخالد"؟! الجدة آمنه

بت على والشقيقتان فاطمة وهدى.. وآه من ذكرى هدى! عطبرة والسكة حديد والشفيع وقاسم و.. قرشي الطيب. نادى العمال، عيد الاستقلال، إشتراك النقابة، الجمعية التعاونية، الجمعية الخيرية ومعارك التنوير والتثوير والتحديث والتغيير الاجتماعي "أتمنى وأسعى لاسعاد مواطني حتى تصبح الحياة في السودان جديرة بأن تحيا". وجوه ووجوه ووجوه، وشئ ما.. شئ ما يدب حثيثاً إلى الحنجرة! حوش البقر، ميدان الشهداء، فريق السيد المكى، الجنيد صافي الدين ودافورى كرة الشراب الساخن في أزقة حى الغرب. خلوة السيد اسماعيل الولى، كتاب شيخ الطاهر الشبلى، مدرسة الساعة، وادى سيدنا، مستر كرايتون مدرس الأدب الانجليزى ومستر هولت مدرس التاريخ وشهادة كيمبريدج بامتياز. صلاة العيد والمولد النبوى بجامع الخليفة، وإرزام الطبول والأذكار في حوليات الاسماعيلية، و.. "هل صحيح أن الفكرة السياسية تدعو لاسقاط الدين؟! كلا وإن هذا مجرد كذب سخيف"! ماركس، إنجلس، لينين، جورجى ديمتروف، دار الجبهة المعادية للاستعمار بجوار طاحونة كولوبس. الدياليكتيك والصراع الطبقى وفائض القيمة والزفة الشهيرة بأمدرمان في وقفة رمضان والمولد والأعياد الدينية بنداءاتها المنغمة: "العز لمين؟ للنجارين.. العز لمين؟ للحدادين".. هل مصادفة ينشد الناس (للصنايعية) في تلك المناسبات الدينية؟! "أفكار حول فلسفة الاخوان المسلمين"، "الاشتراكية الوضاءة إسلام القرن العشرين"، و"قل لن يصيبنا الا ما كتب الله لنا"! وجوه ووجوه ووجوه، وشئ ما.. شئ ما يدب حثيثاً إلى الحنجرة! الوسيلة

وحسن الطاهر وحسن سلامة وبدرى الشيخ وعوض برير. القاهرة الأولى، حدتو، حستو، مستشفي العباسية، آلام الصدر، هنرى كوريل والمكتبة على (الميدان). القاهرة الثانية، وسهرات الدردشة بشقة أحمد حمروش، و.. "أنا خليفة الزبير باشا في المنفي"! إتحادات العمال والمزارعين والمعلمين والطلاب والشباب والاتحاد النسائى. نقابات الموظفين والمهنيين وحركة أنصار السلام. البرلمان وتوريت وعنبر جودة وحوادث مارس و.. إضراب البوليس. المجلس الاستشارى، الجمعية التشريعية، المظاهرات الهادرة، وداع الوفد إلى القاهرة، و.. "بمجهودى المتواضع وحسب حدودى الفكرية اتضح لي أن هؤلاء الزعماء لا يحملون بين ضلوعهم نظرية سياسية لمحاربة الاستعمار"! وجوه ووجوه ووجوه، وشئ ما.. شئ ما يدب حثيثاً إلى الحنجرة! التجانى ونقد والجزولى وسليمان والسنجك و.. "أتركوا ما للعسكر للعسكر ولينشغل الحزب بالسياسة".. ترى أين هم الآن وكيف تدبروا أمورهم؟! فاطمة وسعاد وعز الدين وجوزيف وشيخ الخير وشكاك ومازرى. حسن قسم السيد وحسن شمت والأمين حامد وعثمان أمان ومحمد نور وحامد الانصارى ومصطفي الشيخ والزميل عوض سائق الشفيع بأحاديثه التي لا تنقطع عن ألمانيا الشرقية. بابكر وفاروق وهاشم والهاموش وأب شيبة ومحجوب طلقة وود الريح ورفاقهم. عثمان الكوده وعثمان عبد القادر وأمسيات الحرس المدجج بالسلاح في مصنع الذخيرة. طه ومعاوية وفائزة وبابكر حاج الشيخ.. ومذاق النيكوتين (المخمس) ما يزال عالقاً في الحلق واللسان! وجوه ووجوه ووجوه، وشئ

مــا.. شـئ ما يدب حـــثـيــثــاً إلى الحنجرة! أفــواج المهنئين، الزمــلاء والأصدقــاء والجيــران والأهل والمؤانســات الرائقة. عــمـر وأحــمـد داؤود ومحمد توفيق وسر الختم الخليفة وفاروق الطيب وميرغنى مــبــروك وأبو الــيـســر والشــريف حــسين والآخــرون. العــربة (الفولكسواجــن) والملابس البسيطة الأنيقة وأثاث الــبيت المتواضـع في حى الشـــهــداء و.. "تـــخلصت من الملكيــة، تنــازلت عن قطعــة الأرض في القــرية، وكل مــا لدى الآن مملــوك بأكــمله للحــزب". المكتب المنزلــى، المنضــدة والكراســى والثــلاجــة وأرففف الكتب، و.. "ماذا قدمت لشعــبك ووطنك؟! الوعى.. الوعى بقدر ما أستطيع"! الصور العــائلية على الجدران تتوسطهــا صورة كبيــرة لهدى، و.. "دسوك أهلك الرباطاب"؟! منفي نواكــشوط، على حامــد ورفاقه، بيوت الاختفاء، قضية الشيــوعية الكبرى، مراكبية أبروف، "الله.. الله، أنا أبوك يا حسين"، و.. "هل تتوقع محاكــمة عادلة يا مستر عبــد الخالق؟ أشك في ذلك"! وجــوه ووجوه ووجــوه، وشئ ما.. شئ ما يدب حــثيــثاً إلى الحنجــرة! مؤتمر المائدة المستــديرة "نعم نحن أحــفاد الزبيــر باشا رحــمــة.. ولكن"! بسالات الشــيوعــيين وأصدقائهم وقوى الاستنارة في الدفاع المستميت عن دور الحزب المتــواضــعــة بإزاء (عنف البــادية)! "المدارس الاشـــتــراكــيــة في افريقيا"! المــيدان، اللواء الأحمر، الوعى، أخبار الأســبوع، الضيــاء، الفــجــر الجديد، مــؤتمر الكادر التــداولى "يا ســارية.. الجــبل!"، "الحزب يقــوى بتطهير صــفوفه من العناصــر الضعيــفة!"، ندوة الأربعاء، المــواكب والندوات والليالى الســياســية "طريقــان شتى مستقيم وأعوج، أمامك فانظر أى نهجيك تنهج"! عدم التصالح مع

الركـاكة البـرجـوازية الصغـيـرة "يعنى إيه لما تأمم ليك مـصنع شعيرية"؟! عدم مـساومة الديماغوغيا مهما علا ضـجيجها "ماذا قدمت لشعبك؟! الوعى.. الوعى بقـدر ما استطعت"! وجوه ووجوه ووجوه، وشئ ما.. شئ مـا يدب حثيثـاً إلى الحنجرة! حل الحزب وطرد نوابه من تحـت قـبـة البـرلمان "قـضـيـة لا يمـلكونهـا"! الاستـمساك بالطريق الديموقراطـى، القضية الدسـتورية، الدائرة الجنوبيـة، بانت، الموردة والهاشـماب (هاشـماب عـبيـد والفجـر وعرفـات وأولاد عشـرى!)، بيت المال، ريد، فنقر، العـباسـية، أب كدوك، أب عنجـة، سبـعة بيوت، قـشلاق الجـيش، سوق الموردة، سوق أم سويقـو، سوق أم دفسو، لوبا عفـن، بصل المكادة، حبال العناقـريب، الويكة والفـيتـريتـه والمحريب والجـردقة والحـرجل والقرض والكمون والدوم والقنقليز والقضيم والفاصوليا والعدس والفول والترمـس "كم من بائع ترمس في بلادى يشع الذكاء من عيونه ولكنه حرم من التـعليم!"، خريف 1968م، بيوت الطين في مجـرى السيل، (فراشـات) الدكاكين الآيلة للسقـوط مع أول زخة مطـر.. ومع ذلك لا تسـقط.. لا تسـقط! خـريف 1968م وطواف نائب الدائرة لتفقد خسـائر المعوزين "نامى جياع الشعب نامى"، و.. "يا شغيلة السودان إن مكانكم الطبـيعى هو الحزب الشيوعي السوداني"! وجوه ووجوه ووجوه، وشئ مـا.. شئ ما يدب حثيثاً إلى الحنجرة! بعانخى وتهراقا والمهدى والخليفة. على عبد اللطيف وعبد الفضيل الماظ وثابت عبـد الرحيم وعبيد حاج الأمين. قرشى الطيب وصلاح بشرى وأحمد القـرشى طه. سلام وفهد وفرج الله الحلو وشـهـدى عطية. على حامـد والطيار وعبـد البديع وكبـيده. غـاندى وجـيـفارا وبـن بركة ولـوممبا و.. " أريـدك أن تعلمى يا

نعمات أن هذا هو بالضبط مـا ظللت أتوقع حدوثه منذ أن وضعت أقدامي على أولى عتبات هذا الطريق الذي اخترته وسلكته باقتناع تام"! كـيف تراه استـقبل الموت كـريستـوفر كوديل فـي الحرب الأهلية الاسبـانية وإيديت قائد اليســار الاندونيسي؟! "أنا في أمة تداركهـا الله، غريب كصالح في ثمـود"! نعمات تفهم وتتـفهم! يا الله كـيف شدت علـى يديك وأنت تغادر.. للأبد! نـعمـات وعمـرو ومعز وديعة لدى الوطن و.. "ليس يعلم ما لاقيت من أحد إلا الذي جل مني في سويدائي"! صوت رئيـس المحكمة يفح في أذنيه: "يا عبـد الخالق أنت تحـاكم بمقتـضى المادة 69 من قانون العـقوبات السـوداني بتهـمة إثارة الحـرب ضد الحكومـة السودانيـة، وهذا الكلام الكثيـر لن يفيدك فـي شيء، خلص.. خلص"! أعضاء هيـئة المحكمـة والادعاء يـحملقـون في بلاهة "يا آه مني ومـنكم، فقـد استبدلتم سيفاً من خشب بسيف ثقيل I _is it a sudanese like? don_t think so!. وجوه ووجوه ووجوه، وصور وصور وصور، وأحداث وأحداث وأحداث، وشيء مـا.. شيء ما يدب حثيثاً، حـثيثاً، حثـيثاً إلى الحنجرة، وفي لحظة، فـي برهة، في ثانية، بل في أقل من ذلك، تكوّر كل ذلك علـى لسان لم تعـزه الفـصـاحة يومـاً، أو يركن للسكوت الشـيطاني عن الحق، لينطلق دفـعة واحـدة، داوياً داوياً، ترتج له أسـوار السجن الـصخـرية السمـيكة، وتتـفجـر به حناجـر آلاف المعتـقلين الشيـوعيين والديموقـراطيين في مخـتلف الأقسـام: "المجد المجد لشعب السودان.. المجد المجد لأمة السودان.. عاش نضال الحزب الشيوعي"!

□□□

(16)

أزيز المشنقة: كلمة السلطة أم كلمة التاريخ؟!

□□

شهد المأمور عثمان عوض الله بأن "عبد الخالق ذهب إلى المشنقة بخطى ثابتة وثياب أنيقة، لامع الحذاء، معطراً وباسماً كعريس". وقال عنه الذين حضروا تلك اللحظة: "لقد أدهش مرافقيه وهو يخطو نحو المشنقة كعريس في ليلة دخلته"! وحيا (شناق) سجن كوبر الجاويش الخير مرسال الذي كان عبد الخالق يعرفه كشقيق للشيوعى القديم الشاعر شاكر مرسال، حياه وهو يعتلى سلم الموت، وسأله ممازحاً: "يازول حبلك ده قوى؟ أنا وزنى تقيل"! وظل العم مرسال يجهش بالبكاء الحار، فيما بعد، كلما استرجع تلك الكلمات!

وعلى حين أخذ البرق يلمع بشدة، والرعد يدمدم بإرزام، والسماء تبكى مدراراً،

إستشعر المأمور عثمان عوض الله حرجاً خاصاً من مغزى لهجته وهو يسأله:

ـ "ألا تود ترديد الشهادتين"؟

فشع وجه عبد الخالق، في تلك اللحظة، بابتسامة مضيئة، وهو يجيب:

ـ "إطمئن، لقد فعلت، بل وتوضأت، فور صدور الحكم، وصليت ركعتين قبل ترحيلى إلى هنا"!

ثم.. دوى أزيز المشنقة!

كتب المؤرخ د. محمد سعـيد القدال عن تلك الأحداث يقول: "لم يحدث أن تمت منازلة حركة سيـاسية بمثل ذلك العنف الدموى في تاريخ السودان الحديث، إلا حركة الامـام المهـدى بعد هزيمتها في معركة كررى عـام 1898م وحركة 1924م. وكان العنف في كل من الحالتـين قد تم على يد الإدارة البـريطانية. أما نمـيري والذين تعاونوا معه في تنفيذ المذابح التي وقعت في معسكر المدرعات في الشجرة بالخـرطوم، فهم أول سودانيين يبتـدرون العنف الدموى في معـترك السـياسـة السودانيـة. وكان عـبد الخـالق محـجوب والشـفيع أحـمد الشـيخ وجوزيف قـرنق أول سودانيين مـدنيين يعدمون في السودان في تاريخـه الحديث". أما عن لحظات إعدام عبد الخالق فقد كتب د. القدال الذي كان هو نفـسه معتقلاً، وقتها، في أحد أقسام السجن: "عندما أفقنا صباح ذلك اليوم كانت هناك بقـايا مطر انهمـر في الليل، فسـمعنا أن المطر كـان ينسكب، وأن الريح كـانت تعصف في سـاعة الاعدام، لتـجعل من تلـك المأساة وكأنها إحدى مشاهد شكسبير التراجيدية التي تأبى الطبيعة إلا أن تشـارك فيـها! وحكـى البعض أنهم أحـسـوا بالضجـة والحركـة وسمـعوا صوت عبـد الخالق يهتف وهو في طريقـه الى المشنقة: (المجد لشعب السودان.. المجد لأمة السودان)! وبموته انطفأ جانب مضيء، وانهـد ركن عزيز في نفوس رهط من أصـدقائه ومحبـيه، وكان مـوته فـاجعـة عمـقت من كآبة ذلك المناخ المأسـاوى، ولكن أحداثـها التي رويت سـاعدت على تثـبيت أقـدامنا في واقع الردة المرير، إذ عرفنا كيف يموت الرجـال! وكنت أجلس في فناء السجن

بجوار العم شورة، وهو الذي حدثني عن تطابق الرعد والبرق مع لحظات الاعدام، فانشدت له أبيات الجواهري شاعر العراق الفحل:

غادرت الحياة تلك القبور وإن غدت
بالناضحات من الدماء عواشباً

وتعهد الوطن الخضيب بمثله
وطن سيبعث كل يوم خاضباً"(1)

ثم.. دوى أزيز المشنقة!

كذلك كتب عبد الماجد أبو حسبو الوزير الاتحادي الأسبق خلال الديموقراطية الثانية: "لم نره وهو يدخل.. لأن أبواب السجن قد فتحت على مصراعيها، ودخلت العربة التي تقله.. حيث تمت كل الاجراءات.. بصورة سريعة جداً.. كان المطر في ذلك اليوم ينهمر انهماراً غير عادي، وكنا قد أرجعنا الى أماكننا في (سجن المعاملة). كانت غرفتي ملاصقة للحائط الذي يفصلها عن غرفة المشنقة، وكنت قد تعودت على سماع صوت المشنقة في الظروف العادية، وكانت الاعدامات تتم فجراً، وكنت أصحو على أصواتها لأصلي الفجر. كانت علاقتي بعبد الخالق قوية، قدم لمصر سنة 1946م ضمن طلبة بعثة السنهوري. وقد استضفته في منزلي لمدة لأن أحد أصدقائي كان قد أوصاني به، ولم أتركه إلا بعد قيام بيوت السودان التي انتقل الى أحدها. وكنت أحبه وأعطف عليه، فقد كان في ذلك الوقت صغيراً، هزيلاً في جسمه. كان واضحاً لي أنه شاب ذكي ألمعي. وكانت كل هذه الذكريات تدور في مخيلتي

---

(1) القدال: كوبر، ص42

مما جعل إعدامه ثقيلاً جداً على نفسى. وقبل تنفيذ حكم الاعدام بدقائق أخذت مصلاتى وذهبت بعيدا عن غرفتى الملاصقة لغرفة الاعدام حتى لا أسمع"![1].

ثم.. دوى أزيز المشنقة!

ويذكر على الماحى السخى، القائد العمالى الباسل، ساعة إعدام عبد الخالق قائلاً: "إن اقسى اللحظات التي مرت على أى معتقل هي في ذلك اليوم المشئوم الذي نفذ فيه الاعدام على الشهيد عبد الخالق.. سمع المعتقلون السياسيون هتافات داوية هزت كل أرجاء السجن، وقد كانت منطلقة من القسم الذي توجد فيه المشنقة، فسادت حالة من الوجوم الذي لازمته أسئلة واستفسارات عن الشخصية التي تم اعدامها! ولم يكن يدور في خلد أغلبنا، ولو للحظة، أن المعنى بالاعدام يمكن أن يكون القائد عبد الخالق على الرغم من أن بعضنا قد ميزه من نبرة صوته بالهتافات التي رددها، ولكن هؤلاء آثروا الصمت إلى أن علمنا بعد ساعات أن المناضل عبدالخالق محجوب قد تم إعدامه! كانت لحظات مريرة وقاسية جعلت الجميع يحسون أنهم بالفعل داخل سجن ومعتقل حقيقى. ثم مرت أيام على المعتقلين توقفت فيها حركة الحياة اليومية، وساد المعتقل صمت ووجوم وحزن حقيقى"![2].

ثم.. دوى أزيز المشنقة!

---

(1) عبدالله على إبراهيم؛ "شهادات وأخبار.."، سبق ذكره.

(2) على الماحى السخى، شهادتى للتاريخ: بيوت سيئة السمعة في السودان، تحرير د. حسن الجزولي، ط 1، المجموعة السودانية لضحايا التعذيب، القاهرة 2000م.

ويقول الخاتم عدلان: "عرفت من شهود العيان ومن السامعين كيف استقبل الموت رابط الجأش، سمح المحيا، وكان يهتف على طول الممر الذي قاده إلى زنازين الاعدام بالجزء الشرقى من سجن كوبر (المجد لثوار السودان، المجد لشعب السودان، عاش نضال الشيوعيين السودانيين، عاش نضال الحزب الشيوعي)! وكان المعتقلون جميعهم من شيوعيين وديمقراطيين يرددون وراءه الهتاف، واغرورقت بعض الأعين بالدموع، وكان الجو ملبداً وممطراً. وقد قال لى أستاذى المرحوم عباس على إنه في لحظة إعدام عبد الخالق في الساعات الأولى من الصباح لمع برق أضاء عتمة الزنازين الشرقية في نفس اللحظة التي أزت فيها المشنقة وارتفع الحبل! وكان يقف بالقرب من عباس الاستاذ جرجس نصيف وهو فنان تشكيلى معروف، فقال له: لا بورك في فنكم إذا لم تسجلوا هذه اللحظة"![1].

ثم.. دوى أزيز المشنقة!

وحول تلك اللحظات يقول (إبراهيم أ.) أحد المعتقلين السياسيين بكوبر في تلك الأيام: "كانت لحظات كئيبة في حياة المعتقل والشيوعيين وكل الديمقراطيين والوطنيين السودانيين، حيث طغى الاحساس بالمهانة والذل.. أن يجرى اعتقال كل هؤلاء الناس وهم عزل من أى قدرة على المقاومة، إلا من.. تماسك وإصرار استمدوا بعضه من ثبات وبطولة عبد الخالق.. نفسه لحظة التنفيذ، ثم يؤتى لهم بقادة حزبهم، بمن فيهم قائدهم الأساسى عبد الخالق..، لتتم تصفيتهم على مرمى ومسمع منهم دون أن يستطيعوا فعل شئ،

---

(1) الخاتم عدلان: إنترنت.،. سبق ذكره.

ثم يترك أمثال هؤلاء الذين قاموا بالتعذيب وأشرفوا على الاغتيالات يمشون في الأسواق بين الناس ويتجاذبون

معهم أطراف الحديث في المناسبات الاجتماعية "! [1].

ثم.. دوى أزيز المشنقة!

وفي مذكراته يقول الأستاذ شوقي ملاسي المحامي: ".. ومن اللحظات التي لا أنساها في أيامنا الأولى بالمعتقل لحظة سماعنا نبأ اعتقال الشهيد عبد الخالق ومحاكمته وإعدامه فوراً والوجوم الذي أصاب المعتقلين، خاصة الشيوعيين، والصمت المطبق الذي ساد بيننا لمدة يومين تقريباً، لدرجة أن كل حبوب النوم والأدوية المهدئة التي جلبها الطبيبان نصيف وعمر حمزة معهما إلى المعتقل انتهت منذ اللحظات الأولى لذلك النبأ "![2].

ثم.. دوى أزيز المشنقة!

وأشار إبراهيم نور، وكان صديقاً لعبد الخالق، إلى أنه في إحدى زياراته لبريطانيا إلتقى بمستر كرايتون، وهو من أساتذة عبد الخالق (...) سأل عن عبد الخالق - بعد يوليو 1971م - فهزه هول ما ذكر بأن السفاح نميري قد دفع بعبد الخالق إلى حبل المشنقة وعلق على ذلك: "ألم يكن من الأجدر الابقاء على حياة رجل في قامة عبد الخالق وعلمه وفكرة الثاقب لدفع عملية التطور في بلدكم "؟![3].

---

(1) افادة أحد المعتقلين السياسيين للكاتب وقد فضل عدم ذكر اسمه!

(2) ملاسي؛ أوراق..، سبق ذكره، ص 158.

(3) موقع us.www.omdurman

وأوردت كل من الاوبزيرفر والتايمس، بقلم توماس هودجكن، أحد المهتمين بالشأن السوداني "أن محاكمة عبد الخالق بنيت منذ البداية على خطأ قانوني عن عمد قصد منه أن يفضي بمسار المحاكمة إلى حكم بالاعدام كان مقرراً مسبقاً حتى قبل أن يتم تشكيل الهيئة العسكرية للمحكمة! المحاكمة جرت بالطبع بموجب قانون القوات المسلحة، ولكن، بدلاً من أن توجه لعبد الخالق ورفيقيه (الشفيع وقرنق) تهمة تأييد الانقلاب بعد وقوعه، وجهت لهم تهمة المشاركة في تدبير الانقلاب، لأن من أمر بتشكيل المحكمة يعلم علم اليقين أن التهمة الأولى لا تفي بغرضه ولا تنطوي على عقوبة الاعدام، بينما تتضمن الثانية عقوبة الاعدام ضربة لازب" وخلص توماس هودجكن إلى أن الاعدام الذي نفذ هو عملية اغتيال، إضافة إلى أن محاكمة عبد الخالق لم تتطرق إلى أية واحدة من تلك التهم التي قدمتها صحيفة الاتهام، كما وأن خطبة الاتهام نفسها كانت ضحلة وبائسة ولا تستند الى أي أركان قانونية مما تؤكده إفادة العميد معاش منير حمد العضو الثاني على منصة محاكمة عبد الخالق، والتي سلف إيرادها، رغم أنها - الافادة - جاءت متأخرة، إذ أعلن بعد أكثر من ثلاثين سنة أن الحكم على الرجل "كان معداً سلفاً، وأن عبد الخالق كان قد واجه ظرفاً يتعلق بمصير حياته قبل إجراءات محاكمته، وأن جعفر النميري ودوائر أخرى هم من اتخذوا ذلك القرار"!

ثم.. دوى أزيز المشنقة!

وكتبت صحيفة اللوموند الفرنسية تقول: "لقد كان للسلوك الشجاع للسكرتير العام للحزب الشيوعي أثره على القضاة مما

أجبرهم على إعلان جلسة مغلقة.. لم يتمكن عبد الخالق محجوب.. من انقاذ نفسه. وقد علم مراسلو المحطات العالمية بالخبر صباح الأربعاء 28 يوليو، بعدما كانوا ولمدة 24 ساعة شهوداً لمأساة نادرة. لقد شاهدوا معركة بعدة أوجه.. بين رجل وحيد، من جهة، ومن الجهة الأخرى ماكينة معدة للطحن.. محكمة عسكرية داخل معسكر حربى مهمتها الحكم بالاعدام وبأسرع ما يمكن، يجب ألا تستمر المحاكمة أكثر من ساعة كما قال لنا أحد الضباط وقد كان شاهداً خلال الأيام الماضية على العديد من المحاكمات"! [1].

ثم.. دوى أزيز المشنقة!

وفي السياق ووجهت تلك المحاكمات، وما اتسمت به من انتهاكات صارخة لأبسط حقوق المتهمين، باستنكار واسع ترددت أصداؤه في مختلف أنحاء العالم، حيث انتظمت حملة دولية شجبت المحاكمات، وطالبت السلطات السودانية بإيقاف (حمامات الدم) التي كانت تجرى في معسكر الشجرة بالخرطوم، الأمر الذي هز النظام المايوى، فحاول بكل الطرق الدبلوماسية تصوير ما تم كما لو كان في حدود القانون ونزاهة القضاء واستقلاله! وفي سبيل تجميل وجهه ".. شكل النميري لجنة قضائية لتقييم المحاكمات من الناحية القانونية. وكان يأمل بالطبع أن يأتى تقريرها مطابقاً لهواه، إلا أن اللجنة برئاسة القاضى السابق بالمحكمة العليا.. حسن علوب خيبت آمال النميري، وكانت أمينة مع نفسها، فوضعت تقريراً قانونياً في ثلاثة مجلدات أثبت مجافاة

---

(1) صحيفة اللوموند الفرنسية، 29 يوليو 1971م.

المحاكم التي شكلت لأى من القواعد السليمة في النزاهة والتجرد. وأشار التقرير إلى الانتهاكات التي ارتكبت في حق العدالة وتحقيقها، كما أكد التقرير أن الحزب الشيوعي ليس بريئاً من مذبحة بيت الضيافة فحسب، بل ومن تهمة تدبير انقلاب 19 يوليو نفسه. وقد ذهبت نسخة من هذه المجلدات الى رئاسة الجمهورية والثانية إلى فرع القضاء العسكري، أما الثالثة فقد بقيت لدى القاضي حسن علوب رئيس اللجنة القانونية! وعند صدور التقرير أصدر النميري توجيهاً بالتحفظ على نسخه، وقام بإقالة جميع أعضاء اللجنة من مناصبهم، ولم يكن راضياً عن التقرير الذي قال عنه إن اللجنة بتقريرها هذا قد صورت المحاكمات وكأنها أشبه (بمحاكم المرور)! وسلم القاضي حسن علوب النسخة التي كانت معه الى رئاسة الجمهورية بعد صدور قرار إعفائه من منصبه. وفيما بعد استفاد نميري من التقرير، خاصة في الجزء المتعلق بالثغرات القانونية في القضاء العسكري، وكون لجاناً قانونية عسكرية لسد جميع هذه الثغرات"[1]. وتشير كثير من الدوائر إلى أن نسخة يتيمة من هذا التقرير قد تسربت بشكل أو بآخر لتودع في القسم الأفريقى بمكتبة الكونجرس الامريكى!

ثم.. دوى أزيز المشنقة!

وفي كتابه (زيارة جديدة للتاريخ) يقول محمد حسنين هيكل ص137 "إن بوريس باناماريوف ذهب يوماً إلى الرئيس السادات

---

(1) مصدر للكاتب فضل عدم ذكر اسمه.

بعد محاولة الانقلاب الفاشلة في السودان يرجوه أن يتدخل لإنقاذ حياة الشفيع، وقد وعد الرئيس السادات أن يبذل مساعيه لدى نميري، واتصل بنميري وطلب منه أن يعدم الشفيع وعبد الخالق"!

ثم.. دوى أزيز المشنقة!

وفي "برقية عاجلة وسرية بعث بها القائم بالأعمال في السفارة البريطانية بالخرطوم إلى وزارة الخارجية البريطانية ذكر ما يلي:

1 ـ واجه عبدالخالق محجوب، السكرتير العام للحزب الشيوعي السوداني، اليوم وعند الساعة 00:01، عقوبة الشنق بسجن كوبر، فيما كانت محاكمته قد بدأت الساعة 14:00 بعد ظهر أمس، واستمرت إلى ساعة متأخرة من الليل. وربما سمعتم أن الصحافة الأجنبية قد دعيت لحضور المحاكمة، ولكنها وبعد ساعة، أمرت بالمغادرة، إذ أن الاتهام قد أوقع نفسه في فوضى تجاه حالة المحاكمة لأن شاهد الاتهام الأساسى، وهو شيوعى، فشل في توريط عبد الخالق.

2 ـ الانطباع الذي ساد لدى أولئك الصحفيين غير مريح كلياً، فقد وصفوا المحاكمة بأنها فوضى مضحكة وتقليد زائف للعدالة، فيما كان عبد الخالق قد أخطر بعض المراسلين بأنه أحيط علماً بأنه سيمثل أمام المحكمة قبل ساعتين فقط من ذلك، وقد رفض أن يجيب على سؤال حول معاملته"!

3 ـ معظم السودانيين أُصيبوا بالغثيان جراء تتابع وتلاحق الاعدامات، وقد بلغ عددها الى الآن 14 بمن فيهم 3 مدنيين،

فيما قال وزير الاعلام اليوم أن هناك 1000 معتقل ينتظرون المحاكمة (!) ومن المفترض أن يكونوا جميعهم من الشيوعيين. والى ذلك أكدت طرق الاعتقال والمحاكمات السائدة ما كان قد قاله هاشم العطا حينما اتهم نظام نميري بوضع نفسه فوق القانون والتصرف بطريقة ديكتاتورية"[1].

ثم.. دوى أزيز المشنقة!

وكان القائم بالاعمال البريطانى قد علق على الاعدامات بالسودان في وثيقة أخرى موجهة إلى وزارة الخارجية البريطانية قائلاً: "حالة القلق والفوضى السياسية السابقة في السودان لا يمكن إيقافها على هذه الاعدامات، فقد ارتكب نميري سابقة ربما يحيا ليرفضها أو يعتذر عنها أو يموت بتبعاتها"![2].

ثم دوى أزيز المشنقة!

وعن عبد الخالق محجوب قال د. عبد القادر الرفاعى: "كان.. في الرابعة والأربعين من عمرة حين تم اغتياله الغادر. بين الاعلان عن المحكمة الميدانية وإعدامه 24 ساعة فقط، فأى محكمة وأى عدالة يمكن أن تستوفي حيثيات قضية يمكن أن تتصل بماضى وحاضر ومستقبل الوطن في حين أنه لايمكن البت في قضية حادث مرورى في مثل هذا الوقت القياسى بصورة وافية؟! لقد تم للجناة القفز على محاكمته وإعدامه في عجلة لا تدانيها عجلة، ولا علاقة لها بحقوق الاقتصاص التي تقوم عليها سيادة وحكم

---

(1) حسن: انقلاب، الآخيرة، سبق ذكره.

(2) المصدر نفسه (4-10).

القضاء. كان عبدالخالق محجوب رجلاً فذاً شجاعاً، وكان شاهداً على التاريخ وصانعاً له، وكان يقود حزباً ثورياً قوياً له جماهيره وقواعده ومؤيدوه، وكان رمزاً لقضية الفقراء والمحرومين. كان في بؤرة السياسة السودانية ولم يتلوث بوحلها، لكنه احترق بوهجها وبنارها، فكان الفقيد الكبير للوطن وللحرية والعدالة والديمقراطية والسيادة الوطنية"![1].

ثم.. دوى أزيز المشنقة!

وكانت كل أشرطة التسجيل والصور الفوتوغرافية الخاصة بمحاكمة عبد الخالق محجوب مودعة خزانة عمر الحاج موسى، أحد وزراء مايو المقربين من النميري، وقد أكد أنه سلمها له بطلب منه حيث قام بإحراقها جميعاً!

ثم.. دوى أزيز المشنقة!

لقد شكل إعدام عبد الخالق صدمة عامة عنيفة، وأحدث غضباً واستنكاراً شديدين في كل المستويات المحلية والاقليمية العالمية، فسيرت المظاهرات والمواكب المنددة بهذا الفعل في شتى مدن العالم، كما جرى احتلال أو محاصرة العديد من السفارات والقنصليات السودانية في الكثير من العواصم الاوربية وبعض العواصم العربية، وانهمرت آلاف برقيات الاستنكار من مختلف المنظمات الدولية، وعبر الكثير من الزعماء والقادة في مختلف أنحاء العالم عن شجبهم وادانتهم لتلك الجريمة البشعة.

ثم دوى أزيز المشنقة!

---

(1) الرفاعي؛ مقال... سبق ذكره.

وإلى ذلك ألهم موته الكثير من الأدباء والكتاب والفنانين، كما أسال مداد الكثير من شعراء السودان والوطن العربى وبلدان العالم المختلفة. فقد كتب عنه، على سبيل المثال، من الشعراء العرب: محمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد ومظفر النواب وأيمن أبو شعر وقاسم حداد وأحمد عبد المعطى حجازى وأحمد فؤاد نجم. كما كتب عنه السوفيتى ستانسلاف تانليوك، والفرنسى دوفيلبان وزير الخارجية الأسبق، والألمانى يوشكا فيشر وزير الخارجية الحالى. وفي السودان خرجت عشرات القصائد لمحمد الفيتورى وجيلى عبد الرحمن وكمال الجزولي ومحجوب شريف وكمال عووضة ومحمد عثمان كجراى ومحمد الحسن سالم حميد ومامون زروق وعلى عبد القيوم وصديق ضرار وغيرهم.

ثم.. دوى أزيز المشنقة!

وكتب عنه العديد من رموز الفكر السياسي سودانيين وغير سودانيين:

قال المفكر العراقى هادى العلوى إن "عبد الخالق محجوب أقل أدلجة من غيره، لأن الغالب عليه كان وعى العصر متماهياً في قلب بروليتارى ذى خصوصية سودانية. كان عبد الخالق محجوب شيوعى الوعى أكثر مما هو شيوعى الايمان. ولو أن الامبريالية وعملائها الناطقين بالعربية لم تنصب ذلك الكمين الغادر بين لندن وطرابلس والخرطوم لكنا اليوم نلتف حول جمهورية نادرة المثال في منطقتنا" (1).

---

(1) هادى العلوى: "مجلة الحرية 29/8/1991م"، ضمن القدال: معالم...، سبق ذكره، ص307.

وقال الكاتب المصرى محمود السعدني: "تعرفت على زعيم الحزب الشيوعي عبد الخالق محجوب الذي كان يبدو أقرب الى سكان القاهرة منه إلى سكان الخرطوم، وكان شيوعياً من طراز يختلف عن طراز الشيوعيين الذين عرفناهم في العالم العربي. كان يحرص على صلاة الجمعة في أكبر مساجد الخرطوم، وكان يحرض أعضاء الحزب على ضرورة الحفاظ على مظهرهم كمسلمين، وكان شديد الحرص على استمرار العلاقات الحسنة بين القاهرة والخرطوم. وقد أبلى عبد الخالق محجوب وحزبه بلاءً حسناً في ثورة أكتوبر، ولكن الجميع تآمروا ضده وضد الحزب الشيوعي وأبعدوه عن المشاركة في السلطة. ولكنه عاد بقوة بعد ثورة مايو واشترك مع النميري في أول أيام ثورة مايو قبل أن ينقلب الحزب الشيوعي ضد النميري في العام التالى، وانتهي الخلاف بينهم إلى شنق عبدالخالق محجوب ورفاقه بعد محاكمات هزلية تصدرها النميري نفسه"![1].

وكتب محمد أحمد محجوب الأديب الشاعر، قطب حزب الأمة، ورئيس وزراء ووزير خارجية السودان الأسبق، قائلاً: "إننى أعرف عبد الخالق محجوب منذ 20 سنة. كان يتحلى بنزاهة وشجاعة بالغتين، وكانت الأخلاق السودانية تأتي في الطليعة من تفكيره السياسي. وقد ساهم كثيراً في إيجاد توافق بين تاريخ السودان الاسلامى والآراء الماركسية الثورية. وهذا ماجعلنى

---

(1) مخمود السعدنى: " بلاد تشيل وبلاد تحط".

أصنف الحزب الشيوعي السوداني بأنه حزب سوداني صرف لا يدين بالولاء لموسكو أو أي بلد شيوعي آخر في العالم"[1].

وقال الروائي السوداني العالمي الطيب صالح: "الواقع أنني كنت معجباً بعبد الخالق محجوب كسوداني نابغة وبفاطمة أحمد إبراهيم (...) كان السيد عبد الرحمن راعي طائفة الأنصار رجلاً شهماً وكريماً حتى مع خصومه السياسيين، ومن نبله أنه كان يحترم عبد الخالق محجوب السكرتير العام للحزب الشيوعي ويعامله كإبنه، فقد ربطته صداقة مع والد عبد الخالق. وثمة قصة سمعتها من أكثر من شخص، فقد حدث أن جاء وفد شيوعي سوفيتي لزيارة السودان للمرة الأولى بدعوة من الحزب الشيوعي السوداني، وسمع السيد عبد الرحمن، رحمه الله، بأمر الوفد فاستدعى عبد الخالق وسأله عن الأمر، فأكد له الخبر. فاستفسره عن الكيفية التي سيكرم بها الشيوعيون السودانيون ضيوفهم، فرد بأنهم على الأرجح سيقيمون لهم حفل شاي. وكان تعليق السيد عبد الرحمن أن ذلك لا يجوز، وقال لعبد الخالق: إننا كسودانيين يهمنا أن يقول الشيوعيون السوفيت، حين يعودون لبلادهم، إن السودانيين أناس كرماء، وأفاضل، لذلك قررت أن أوجه لكم ولضيوفكم دعوة لتناول العشاء في منزلي"؛[2] كما أضاف الطيب صالح في مقال آخر: "لعل أنبغ طالب في ذلك الزمان، بل في كل الأزمنة، كان عبد الخالق محجوب الذي لاقى

---

(1) محمد احمد محجوب؛ ضمن القدال؛ معالم..، سبق ذكره، ص307.

(2) طلحة جبريل؛ على الدرب مع الطيب صالح، القاهرة 1977.

حتـفه، ويا للغـرابة، على يدي جعـفر النميـري! وربما يكون دفع حياته ثمناً لنبوغه! كان في السنة الرابعة ونحن في السنة الأولى، هادئاً حيياً ولكن كان لعقله دوى، ولو سارت الأمـور سيراً طبيعياً لأصبح أستاذاً كبيراً في الجامعة، في الرياضيات أو في العلوم أو في اللغات، فلم يكن عـلم يستعصى عليـه، لكنه سافر إلى مـصر، وأصبـح شيوعـياً، ثم أمـيناً عامـاً للحزب الشـيوعي السـوداني، واصطدمت أحلامه بأحلام شاب آخر دخل الكلية الحربية، وأصبح ضابـطاً في الجيش، ولسـبب ما خـيل إليه أن العناية الالـهيـة قد اختـارته لحكم السودان، فقـاد انقلاباً عسكـرياً، وأمسك بنواصى الأمور، أو هكذا خـيل اليه. كل هذه الأشيـاء المخزية بذرت بذورها تلك الأيام، وهي قصة لم تكتمل فصولها بعد"![1].

ثم.. دوى أزيزالمشنقة!

وكتب عنه الصحفي الكبـير بشير محمد سـعيد، رئيس تحرير صحـيفـة (الأيام) يقول: ".. وكـان هناك عـبد الخـالق محـجوب العبـقرى العالم الشـجاع الفذ زعـيم الحزب الشيـوعي السوداني الذي رفض الانقـلاب ـ 25 مـايو ـ منذ اندلاعـه عن مـبـدأ، رغم اشـتراك بعض رجـال حزبه في حـكومتـه وفق شروط رسـمهـا وحددها. فـضاق به الطاغـية (نميري)، وتربص بـه الدوائر، حتى واتتـه الفرصـة فنفاه إلى القـاهرة في أول الأمر، ثم اعـتقله بـعد عودته داخل السودان، ولم يفلت من قبضته إلا قبيل انقلاب هاشم

---

(1) الطيب صالح: العالم المفتوح في تذكر أكرم صالح، موقع sudanese-online.com.

العطا في يوليو عام 1971م، ولكن إلى أجل محدود.. وكان هذا شأنه حتى بذل الروح مع زملائه مهراً لما كانوا به يؤمنون"![1].

وقال عنه الشاعر محمد الفيتورى، وهو يوثق لتجربته الشعرية: "وقعت تلك المذبحة التاريخية المرهقة، والتي أعتبرها بداية الانحدار للفكر وللمواقف الانسانية في عالمنا العربى والأفريقى، حيث قضت تلك المرحلة على أعمق وأزهر وأعظم شباب القارة الأفريقية حينذاك.. عبد الخالق محجوب، فاروق حمد الله، بابكر النور والشفيع، كانت ذات أثر عميق في حياتى.. هذه التجربة لا أقول أبكتنى لأن البكاء يصبح أحياناً صغيراً أمام الحدث.. ولكنها دفعت بالبقية من عمرى إلى الكآبة العميقة التي لا أعتقد أنها سوف تنتهي يوما ما، والتي أرى أنها، كما قلت، كانت البداية في هذه الاسقاطات الرهيبة التي احتوت أقطارنا"![2]

وكان الفيتورى قد كتب قصيدته الشهيرة (قلبي على وطنى) في تمجيد عبد الخالق الانسان والموقف، مما عرضه لمضايقات من قبل النظام المايوى، لم تكن أقلها مصادرة جواز سفره وهو خارج البلاد حتى اضطر للجؤ السياسي، ولم يستطع العودة لوطنه إلا بعد سقوط النظام المايوى في انتفاضة أبريل 1958م:

"حينما يأخذك الصمت عنا..

فتبدو بعيداً

كأنك راية قافلة غرقت في الرمال،

---

(1) عبدالله على إبراهيم؛ "شهادات وأخبار.."، سبق ذكره.

(2) من حوار صحفي أجراه معه كمال حسن بخيت لصحيفة (القدس العربى).

تعشب الكلمات القديمة فينا..

وتشهق نار القرابين فوق رؤوس الجبال،

وتدور بنا.. يا أنت، يا وجهنا المختفي

خلف ألف سحابة..

في زوايا الكهوف التي زخرفتها الكآبة

ويجر السؤال.. السؤال،

وتبدو الاجابة.. نفس الاجابة"!

ثم.. دوى أزيز المشنقة!

وكتب على أبو سن يقول: "نظم الحزب الشيوعي الفرنسى مظاهرة كبرى في ميدان الجمهورية في باريس للاحتجاج على قتل عبد الخالق محجوب. وما زلت أذكر صورة عبد الخالق وهو يُساق إلى ساحة الاعدام، والتي نصبوها في الميدان بحجم 7 أمتار، وقد لبس الجلابية واكتسى وجهه بذلك التعبير الرجولى، الهادئ، الواثق، المبهر، وقد كتبوا فوقها بحروف ضخمة: هكذا يموت الشيوعيون! فكان رمزاً لأجمل وأعظم ما في السودان والسودانيين من معانى. وقد تجولت وسط ذلك الحشد الهائل من الفرنسيين - حوالى 100 ألف شخص - وشعرت بالفخر، لأننى لم أشهد باريس تحتفي باسم شخص أجنبى قط بتلك الصورة وبذلك الحجم.."! (1).

ثم دوى أزيز المشنقة!

وحكى خالد الكد عن الجنيد على عمر، أحد قدامى أصدقاء عبد الخالق، أنه طلب منه يوماً، بعد إعدام الرجل بفترة، أن يغشى به

---

(1) موقع sudaneseonline.com.www

وهو معه في سيارته، منزل عبد الخالق بحي السيد المكي بامدرمان، ".. ولما بلغنا الدار نزل وأخذ قطعة فحم وكتب على الباب: (الأخ عبد الخالق.. حضرنا للمرة الألف ولم نجدكم)! وعاد للسيارة، وركب بهدوء كأن لم يحدث شئ، كأن لم يمت أحد، كأن القتلة مجرد أدعياء، كأن الصديق عبد الخالق قد خرج لعقد زواج أو عزاء أو لحديث الأربعاء في دار الحزب، وسيعود"![1].

ثم.. دوى أزيز المشنقة!

أما شقيقه محمد محجوب عثمان فقد قال: "إن الذي لم يُقل أو يُكشف عنه النقاب حتى اليوم هو قصة تواطؤ بعض العناصر القيادية لإزاحة وابعاد سكرتير الحزب لما ظنوه أنه العقبة الكأداء التي تقف دون التعاون مع نظام مايو. إن التاريخ سيقول كلمته حول تلك التيارات الخفية، وهذا ما كان يجدر بوثيقة 19 يوليو كشف الغطاء عنه، لا قدحاً أو ذماً لمن بقى أو ذهب في ذمة التاريخ، ولكن كما يجدر بها من وثيقة تُكتب لتشكل تسجيلاً لفترة عاصفة من تاريخ الحزب راعفة بالدم، وليست الدماء ماء"![2].

ثم.. دوى أزيز المشنقة!

ورداً على سؤال وجهه الكاتب إلى الرائد مامون عوض أبوزيد، أحد قادة نظام النميري ومؤسس أجهزة أمنه واستخباراته، حول ما إن كان يعتقد، بتجرد وأمانة وإحقاقاً للحق وللتاريخ، وبعد

---

(1) د. عبدالله على إبراهيم: شيبون والجنيد وعبد الخالق، حضرنا للمرة الألف ولم نجدكم، الصحيفة الالكترونية net.sudanile، في 2 يونيو2005م.

(2) محمد محجوب: الجيش... سبق ذكره، ص51.

مضى كل هذه السنوات، أن محاكمة عبد الخالق والمحاكمات الأخرى قد انطوت على إجحاف وتعجل، من حيث إجراءاتها وحيثياتها، قال: "نعم، والعجلة التي تمت بها المحاكمات حجبت كثيراً من الحقائق بالنسبة للنظام، وللحزب الشيوعي، وللشارع السوداني حتى الآن"![1] ثم أضاف أنه كان قد تحفظ على إعدام عبد الخالق والشفيع وآخرين.

ثم دوى أزيز المشنقة!

وأما الذين ناصبوه العداء بلا وازع من أخلاق تحكم الخصومة، وظلوا يتحينون الفرص للقضاء عليه وعلى حزبه بأي ثمن وبأية وسيلة، فإن أصدق تعبير عن موقفهم ورد ضمن ما أفصح عنه صادق عبد الله عبد الماجد، زعيم الأخوان المسلمين بالسودان، عندما أوضح، في حوار أجراه معه الصحفي البحريني السماك الرضى ونشرته كحلقة ثانية صحيفة الأيام بتاريخ 6سبتمبر 2000م، حيث ذكر أنه يرفض إعطاء اليسار دوراً سياسياً، ولا يمانع في مهادنتهم، "لكننا ضد أن يكون لهم دور سياسى في مسيرة البلاد"! وأضاف السماك معلقاً: ".. ليست هذه هي المفارقة الوحيدة التي دفع بها فضيلته. فحين أدان المحاكمات الصورية العاجلة التي أقامها الدكتاتور جعفر نميري في السجون لكوادر الاخوان المسلمين واعدامهم لافتقادها الشرعية، ذكرناه بمحاكمات شبيهة، وفي نفس السجون، لكوادر اليسار، وعلى يد نفس الدكتاتور، لكنه لم يجد أدنى حرج في أن يقول: "إن من الفعلات أو الانجازات النادرة التي تحسب لهذا الدكتاتور

---

(1) افادة الرائد مأمون للكاتب، سبق ذكرها.

إعدامــه لهؤلاء"! وقد ردت عليه صــحيفة (الميـدان) الناطقة باسم الحزب الشيوعي، والتي تصدر بشكل سرى، مفندة حديثه بقولها: "قبل التعليق على حديث صادق عـبد الله عبد الماجد، نصحح للأخ الصحفــي البحريني معلومــة كاذبة أوردها صادق عن محــاكمات واعدامات تمت للأخوان المسلمين في السجون السودانية، فهذا غير صحيح. الأخوان المسلمون في السودان لم يعدم منهم أحد في كل تاريخ الحركـة السيـاسية في بلادنا لأنهم يفـرون بجلودهم عند (الحارة) نحـو السلطان في كل محنة يواجـهها الشــعب، بل كانوا يحرضون الأنظمة الدكتاتورية على قـتل الشيوعيين. نربأ بأنفسنا عن مهاترة شيخ ناهز الثمانين من العـمر واضعين في اعتبارنا أن الثمانين عاماً لا تعدو أن تكون تكراراً لـتجربة توقفت عند السابعة والعشــرين! فهل يعــتبـر الشيخ إعـدام اليساريين علــى يد نميري احتراما للفكر وحرية الرأى والديمقراطية؟! إننا نرثى للشيخ بؤس منطقه، وضــعف حجتــه، وافترائه على الاعــلام، ومع ذلك نجد له العــذر لأنه مصــاب بلوثة العداء للشــيوعــية، وهو مــرض لا يقل خطورة عن داء السعر، ونتمنى له الشفاء"![1].

ثم.. دوى أزيز المشنقة!

إنتهي

أدنبرا ـ سكتلندا

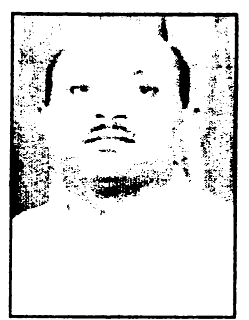
يوليو 2005م



(1) صحيفة الميدان السرية، العدد/ 1953، نوفمبر 2000م.

ملحق الصور

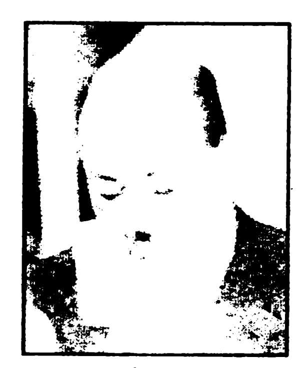
□□



عبدالخالق عام 1962
(عن موقع أم درمان)



مشاركا فى مؤتمر
المائدة المستديرة عام 1965



عبدالخالق متحدثاً في الجمعية
التأسيسية عام 1968



العقيد عبدالمنعم محمد أحمد (الهاموش)



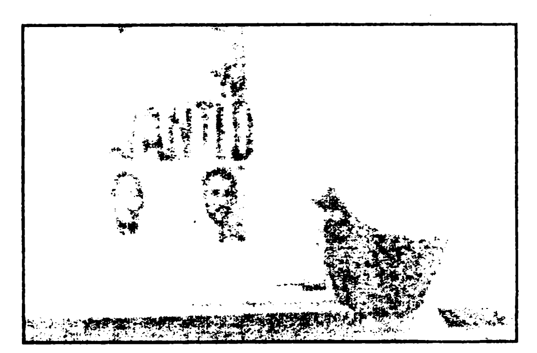
عبدالحى، ود الزين، محجوب طلقة، هاشم العطا
بالقيادة العامة بعد نجاح الانقلاب



المقدم محجوب إبراهيم «طلقة»
لحظة إلقاء القبض عليه بعد فشل الانقلاب



اعتقالات الشيوعيين بالعاصمة



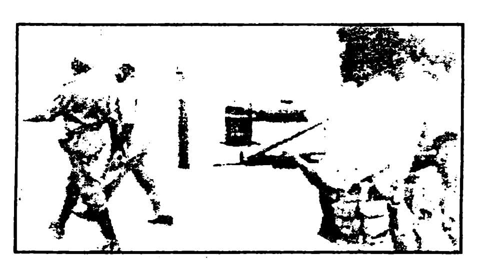
وزارة الداخلية تنشر صور قادة الحزب الشيوعي نقد، سليمان، التجاني، الجزولي، في كل مكان وتطالب بالقبض عليهم بعد فشل الانقلاب



عبدالخالق يخاطب أحد المؤتمرات العالمية



رجل الأعمال حامد الأنصارى



عبدالخالق فى طريقه إلى قاعة المحكمة
بمعسكر الشجرة



عبدالخالق يتوسط الصحفيين الأجانب ووكالات الأنباء العالمية بعد صدور الحكم بإعدامه ويظهر خلفه صديقه الصحفي الفرنسي أريك رولو



اللواء خالد حسن عباس يحقق معه عقب القبض عليه مباشرة



عبدالخالق لحظة اعتقاله ووصوله لمعسكر الشجرة



الكاتب
د. حسن الجزولي



الكاتب والصحفي المصري
أحمد حمروش



اللواء معاش قسم الخالق إبراهيم



مشاركا فى مؤتمر
المائدة المستديرة



الرائد هاشم العطا
وهو يخاطب موكب 22 يوليو
المؤيد للانقلاب



جرعة ماء لحظة فك القيد عنه ريثما
يقدم للمحكمة العسكرية

«عن موقع أم درمان»

صورة الخطاب بعثه عبدالخالق من منفاه بمصر
إلى زوجته نعمات عام 1970



عبدالخالق بموسكو



قوات الحرس الجمهورى التى نفذت انقلاب 29 يوليو



الملازم عبدالعظيم عوض سرور
أحد الضباط المنفذين لانقلاب 19 يوليو



تايني رولاند
مدير شركة لونرو الذى لعب دوراً أساسياً فى إفشال 19 يوليو

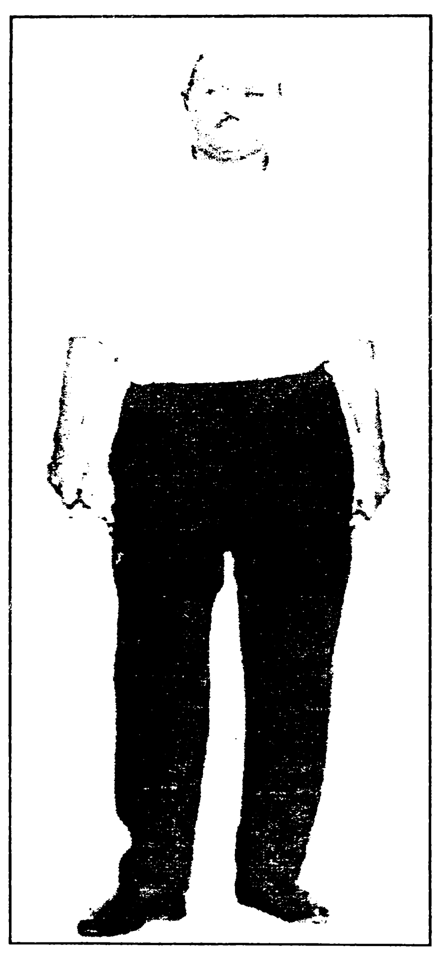


داخل قاعة المحكمة يسجل بعض النقاط

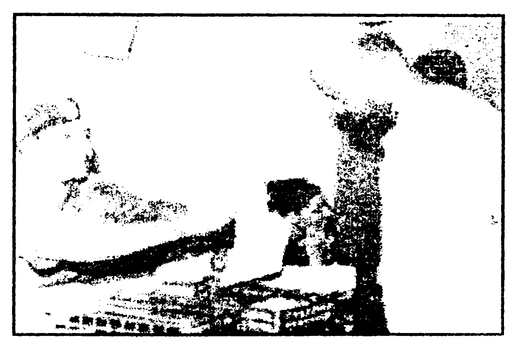


عبدالخالق محجوب.. بورتريه





صورة نادرة لـ «عبدالخالق محجوب»
في الستينيات



النميرى يستجوبه مقيد اليدين بمعسكر
الشجرة قبل احالته إلى المحكمة العسكرية



موكب 22 يوليو المؤيد للانقلاب



الرائد محمد أحمد الزين



النقيب معاوية عبدالحى



صورة نادرة لـ «عبدالخالق محجوب» بمعسكر الشجرة
وهو يهم بدخول قاعة المحكمة العسكرية